الإتقان في العمران الإسلامي

المفهوم والنظرية والتطبيق

الإتقان في العمران الإسلامي

المفهوم والنظرية والتطبيق

صالح بن طاهر مشوش

المعهد العالمي للفكر الإسلامي
INTERNATIONAL INSTITUTE OF ISLAMIC THOUGHT

© المعهد العالمي للفكر الإسلامي - هرندن - فرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية
الطبعة الأولى ١٤٤٧هـ/ ٢٠٢٥م

الإتقان في العمران الإسلامي؛ المفهوم والنظرية والتطبيق
تأليف: صالح بن طاهر مشوش

موضـوع الكتـاب: ١- مفهوم الإتقان. ٢- العمران الإسلامي.
٣- ثقافة الإتقان. ٤- أصول الإتقان النظرية.
٥- العقيدة الإسلامية. ٦- الفكر الإسلامي.

ردمك (ISBN): ٠-٨٤٧-٥٦٥٦٤-١-٩٧٨ [النسخة الورقية]
ردمك (ISBN): ٢-٢٣٠-٨٩١٩٣-٨-٩٧٩ [النسخة الإلكترونية]

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٢٠٢٥/١/١٦٩)

جميع الحقوق محفوظة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي مسبق من المعهد.

المعهد العالمي للفكر الإسلامي
The International Institute of Islamic Thought
P. O. Box: 669, Herndon, VA 20172 - USA
Tel: (1-703) 471 1133, Fax: (1-703) 471 3922
www.iiit.org/ iiit@iiit.org

مكتب الأردن - عمان
ص.ب ٩٤٨٩ الرمز البريدي ١١١٩١
هاتف: ٩٦٢٦٤٦١١٤٢١+ فاكس: ٩٦٢٦٤٦١١٤٢٠+
www.iiitjordan.org

الكتب والدراسات التي يصدرها المعهد لا تعبّر بالضرورة عن رأيه وإنما عن آراء مؤلفيها واجتهاداتهم

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

المقدمة **٩**

الفصل الأول: مفهوم الإتقان وحدوده المعرفية **١٥**

أولاً: مفهوم الإتقان ١٦

ثانياً: مقصد الإتقان ومفاهيمه الكلية ٢٣

الفصل الثاني: أصول الإتقان النظرية **٣٩**

أولاً: أصل مبدأ التوحيد ٣٩

ثانياً: أصل الفطرة الإنسانية ٤٥

ثالثاً: مبدأ العالم والكون ٦٣

الفصل الثالث: مفهوم الإتقان عند العلماء والمفكرين **١٠١**

أولاً: اهتمام العلماء بمسألة الإتقان ١٠٢

ثانياً: دور المبادئ العقائدية في تشكيل ثقافة الإتقان ١٢٨

الفصل الرابع: الإتقان في العمران الإسلامي **١٤٣**

أولاً: نموذج المدرسة الإسلامية ١٤٣

ثانياً: التدبير في نظام الحسبة ١٥٤

ثالثا: تصميم الفن الإسلامي ١٦٧

الخاتمة **١٨٣**

المراجع **١٨٥**

المقدمة

يقدم هذا البحث دراسةً نظريةً لقضية مهمة في حياة المجتمعات والأمم، وخصوصاً منها الإسلامية المعاصرة، وهي ضمور ثقافة الإتقان وغياب معاييرها وتجلياتها المادية والمعنوية في حياة المسلمين الخاصة والعامة. يأتي هذا الكتاب ليسد ثغرة في مجال تفعيل دور العقيدة الإسلامية في العمران والاستخلاف، حيث يهدف إلى معرفة الشروط المعنوية والمادية للإتقان التي يملكها المسلم والأمة التي ينتمي إليها.

ينطلق البحث من المقومات الإسلامية الأساسية التي تشكّل المرجعية العقدية والشخصية الثقافية، متخذاً العقيدة الإسلامية محوراً ومجالاً للبحث. ذلك لأن العلاقة وثيقة بين عملية الإتقان وما يؤمن به المسلم ويعتقده في رؤيته الكونية للحياة والعمل. يبرز الكتاب أثر العقيدة في إتقان العمل وإحكامه عند المسلم دون غيره، وبالتالي لا يهتم البحث بالإتقان والإحكام عند غير المسلم، إلا في إشارات سريعة هنا وهناك استدعتها ضرورة المقارنة والبيان. اعتنى البحث ببناء وتأصيل المفاهيم والمصطلحات الأساسية اللازمة، للتنظير للإحكام والإتقان في ضوء الوحي، قرآناً وسنةً، وعلى أساس ما تداوله علماء المسلمين في مفهوم الإتقان والإحكام. تم وضع تحت التشخيص والدرس عوائق الإتقان، ليجد تفسيراً علمياً لجملة من الظواهر المقترنة بالعمل. وخلص الكتاب إلى مجموعة من المعايير الذاتية والعلمية، لنشر ثقافة الإتقان في إطار اجتماعي ومؤسساتي.

كما عالج البحث مفاهيم وقضايا الإتقان من ناحية نظرية وتطبيقية في أربعة فصول. تناول الفصل الأول الأسس النظرية للإتقان في الإسلام، بينما

ركز الفصل الثاني على الشروط المادية والمعنوية لتحقيق الإتقان. في الفصل الثالث، تم استعراض نماذج تطبيقية للإتقان في مختلف المجالات، واختتم البحث بالفصل الرابع الذي تناول عوائق الإتقان وسبل تجاوزها لتحقيق نهضة شاملة مستدامة.

اعتمد البحث الوحي -قرآناً وسنةً- مصدراً أولياً في بناء المفاهيم والمعرفة العلمية، فجاء الفصل الأول والثاني تأصيلاً للإتقان في القرآن والسنة، وقد استخدم البحث أدوات الاستقراء والتحليل والتركيب والمقارنة، لاستنباط المبادئ والشروط الذاتية والقيم المتعلقة بالإتقان. أما الفصل الثالث فقد ركّز على تغطية الجانب التاريخي؛ إذ تعرض لمعالجة مفهوم الإتقان كما تداوله علماء المسلمين بداية من القرن الرابع الهجري إلى العصر الحديث، مع انتقاء مجموعة من المصادر الإسلامية المهمة. وفي الفصل نفسه تمّ تحليل واقع المجتمعات الإسلامية، وتشخيص العراقيل الراهنة التي تحول دون تحقيق الإتقان في مختلف مناحي الحياة الإسلامية. وجاء الفصل الثالث أيضاً ضمن المحور التفسيري؛ إذ ضمّ تحليلاً نفسياً واجتماعياً ونقدياً للوضع السلبي الذي تعاني منه المجتمعات الإسلامية، بما في ذلك العوائق الذاتية والموضوعية التي تعوق ممارسة الإتقان وتحقيق الجودة في مختلف القطاعات التنموية، والاجتماعية للحياة الاسلامية. ومن جهة أخرى، يُعدّ الفصل الثالث تمحيصاً لثقافة العمل والإتقان السائدة، وذلك من خلال تشخيص العوائق الحقيقية التي تحول دون الأداء المتقن. ويحلل الكتاب أيضاً متعلّقات وعوامل ذات صلة وثيقة بالإتقان مستعيناً بمعايير سننية وقوانين كونية إلهية في العمران والاستخلاف.

كما حرص على البعد عن النقد السلبي للأوضاع المتردية الطارئة على المجتمع المسلم، والتركيز على التجارب الإيجابية في الإتقان والإحكام، وهو

توجهٌ مقصودٌ، وذلك حتىٰ يخرج البحث من دائرة التفكير السلبي الخانق إلىٰ رعاية الاهتمام بالنماذج الإيجابية من التراث التاريخي والفكري في إدارة الأعمال والصنائع والمؤسسات في الإسلام، مثل الحسبة العلمية وتصميم نظام التعليم الإسلامي الأول وتدبيره غيرها من الأمثلة.

إن الإتقان قيمةٌ شاملةٌ، ولأهمية هذه القيمة في بناء المجتمع المتوازن عدّها الاسلام جزءاً من نظام الفضائل والأخلاق. وقد وعىٰ هذه الحقيقة علماء المسلمين قديماً وحديثاً، فعَنْونوا لكثير من تآليفهم ومصنفاتهم بما يدل علىٰ الإتقان والإحكام مثل: الإحكام، والشامل، والمغني، والكامل، والمفصل، والعمدة، والكافي، والحاوي، والتحفة إلىٰ غير ذلك من العناوين التي تعكس بعد الإتقان العلمي والعملي الشامل. ومما ينبغي التنبيه إليه أن الحديث عن الإتقان في صدر الإسلام لم يكن متجهاً إلىٰ التنظير بقدر ما تجلَّىٰ بوصفه ممارسةً وتجربةً عمليةً ميدانيةً راقية. ومع اتساع رقعة الإسلام واحتكاك المسلمين بغيرهم من شعوب العالم وتراثهم الحضاري، ومع بداية مرحلة التأليف والكتابة، بدأت مفاهيم الإتقان تظهر تدريجياً في مؤلفات المسلمين. فمجال دراسة الإتقان عند المسلمين غير مباشر، غير أن مفهوم الإتقان قديم قدم الأمة الإسلامية ومؤلفات علمائها، وإن كان ذلك يخضع للتطور التاريخي للعلوم والمؤسسات والعمران بشكل أوسع. ولذلك لا يمكن مؤاخذة المصادر القديمة في عدم تخصيص مباحث مستقلة تعالج مسألة الإتقان، استيعاباً للسياق التاريخي وطبيعة المرحلة. فما ينبغي تأكيده أنّ تطوّر المفهوم كان في نمو مستمر. وعلىٰ الرغم من صعوبة البحث عن أشياء بلا عنوان، فإن البحث تمكَّن من رصد خط أصيل للإتقان في المؤلفات الإسلامية المتقدمة يقوم علىٰ رؤية وقيم متميزة؛ إذ تنتشر معاني الإتقان والإحكام كالدرر في تراث هائل يحتاج إلىٰ نقاط وفواصل.

ومع دخول الحضارة الإسلامية مرحلة الضعف والتراجع، وتفشي مظاهر الفساد والتخلف على المستوى الثقافي والاجتماعي، قام جمهورٌ من العلماء المسلمين بالذود عن الأمة، وركزوا جهودهم في البحث على تشخيص وفهم "أوضاع الإنسان المسلم المتأزمة" في مجالات مختلفة من التعليم والسياسة والاقتصاد والاجتماع. وقد كان لهذه القضايا وأحوالها علاقة قوية بمستو الإتقان وثقافته في المجتمع، وخاصة أن لب "الإتقان"، هو السعي نحو تحقيق الكمال والجودة في كل مجالات الحياة. سعت هذه الجهود بشكل حثيث للبحث عن حلول عملية وفعالة، مستندة إلى رؤية شاملة وإطار نظري متكامل. تم تحليل الأوضاع الحالية للمسلمين، وإجراء مقارنات بين أوضاعهم والتجارب والإنجازات التي حققها الآخرون في سياقات حضارية مختلفة. كانت هذه المقارنات تهدف إلى فهم ظاهرة التراجع والركود والفجوات وتحديد السبل الممكنة والنهوض من جديد وتشييد العمران. وقد شملت تلك المحاولات كافة جوانب الحياة المادية والمعنوية، حيث تم تناول تحسين مناهج التعليم وأنظمته، والعودة إلى أصول الإتقان ومعاييره وتعزيز الأبحاث العلمية، وتطوير البنية الاقتصادية، وكذلك الاهتمام بالقضايا الاجتماعية والسياسية. لقد ركزت المؤلفات في هذه المرحلة على تحريك الجوانب الإيمانية والأخلاقية، وتقديم أطر عامة لسبل تفعيل قيم الإتقان ومعاييره في عالم الشغل وإدارة شؤون الحياة.

ومع تطور الهائل الذي اجتاح المجتمعات المعاصرة، وبروز مجال "المؤسسات"، توجهت الدراسات في مسألة الإتقان إلى الجودة أو النوعية في التربية وإدارة المؤسسات، والتنمية البشرية ومجالات أخرى تواكب نمط التطور واتجاهاته. ومع ظهور مؤلفات جديدة ومفيدة بما تحمله من أفكار تعبر عن تجارب إنسانية مهمة للاستئناس والمقارنة؛ إلا أنّ ما يؤخذ عليها هو كون أغلبها عبارة عن ترجمات أو ملخصات لما كتبه خبراء الإدارة والجودة والتسيير

في المجتمعات الغربية، وهي في حقيقتها لا تعدو أن تكون ترجمات لنظريات وتجارب أجنبية، دون اعتبار لخلفيتها الدينية والفلسفية وتجربتها التاريخية الخاصة في إدارة الحياة.

سعياً لسد هذه الثغرة وتأصيل مفهوم الإتقان والتحفيز على تفعيله في السياق المؤسساتي، حاولت هذه الدراسة أن تقدم شكلاً ومضموناً مختلفاً في دراسة ظاهرة الإتقان داخل قيم عقدية ومنظومة ثقافية إسلامية متميزة عن غيرها. وكان الهدف من هذه المحاولة هو تقديم تصور أصيل وكلي لمفهوم الإتقان يتوافق مع الهوية الدينية والثقافية للمجتمعات الإسلامية، يكون أكثر فعالية على مساعدة الباحثين والعلماء والقادة وأرباب الأعمال والمؤسسات لإحداث التغيير الإيجابي وإحياء ثقافة الإتقان في المجتمع. وهذا الجهد يمكن ربط مساره بالبحث الذي سلكه عبد السلام رياح في كتابه القيم "عقيدة التوحيد وأثرها في إتقان العمل والابداع فيه"، والذي حاول فيه إبراز جذور الإتقان واصوله من العقيدة الإسلامية ليس فقط من وجهة النظرية، بل تمكن من بينان ذلك واقعياً من خلال ربط هذه العلاقة بالقطاعات المختلفة للحياة الاجتماعية والعمران البشري. لقد تناولت مباحث كتابه مفاهيم حيوية متعدد كأدوات يفكر بها ويحرك بها الوضع الراكد الذي يعاني منه المجتمع المسلم المعاصر. ومن ضمن هذه المفاهيم: منظور عقيدة التوحيد، والإبداع، والتربية والتعليم، والمهارات، وبناء الشخصية، والصحة، والأمن، والتنمية، ومفهوم العمل الصالح، والمسؤولية والقيادة الرشيدة، والتماسك الاجتماعي، والتميز.

وفي ثنايا كل ذلك حاول الباحث كذلك فهم أسباب تراجع ثقافة الإتقان في العلم الإسلامي، واقتراح حلولا تتناسب هوية وبنية المجتمع المسلم والتحديات التي يواجهها لتحقيق النهضة وإحياء الحضارة الإسلامية. ونسأل الله والإخلاص والتوفيق السداد

الفصل الأول:

مفهوم الإتقان وحدوده المعرفية

تمهيد:

اهتم الإسلام ببناء الشخصية الإنسانية السوية، ولأجل ذلك أرشده إلى السبل والمسالك القويمة التي تحقّق له السلامة والتألق في التفكير والشعور والسلوك، ومنها توخّي الإتقان في الأعمال والصنائع والوظائف والمهن كافة. نحاول في هذا الفصل عرض التصور القرآني للإتقان ومناقشة مفهومه وماهيته، لكن قبل الحديث عن موضوع الإتقان بوصفه مجالاً للتجارب الإنسانية، تجدُر بنا الإشارةُ إلى أنّ القرآن ذاته آية من آيات الإتقان أوحاها الله تعالى إلى الرسل ووضعها بين يدي الإنسان للتفكير والتأمل والعمل بما فيه من هداية. إنّ القرآن كتابُ الله تعالى المعجز، تتجلّى فيه جميع ألوان الإحكام والإتقان في عرض الحقيقة والبيان والهداية، فهو كما وصفه الباقلاني (توفي: ٤٠٣هـ): "بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحدّ الذي يعلم عجز الخلق عنه."[(١)] والقرآنُ مصدر المعرفة الأول، إذ لا يستقيم البحث في شؤون الإنسان والحياة والمجتمع والعمران إلا بالعودة إليه، والاستمداد من مواده العلمية الأساسية في صياغة المفاهيم والعلاقات والأوصاف، والقوانين الكلية الضرورية في صياغة الرؤية الكونية التوحيدية. إنّ القرآنَ الكريم منهلٌ خصبٌ عظيمٌ لبيان تفاصيل سلوك الإتقان وثقافته، ومنهجٌ شاملٌ، إضافة إلى أنه قوةٌ دافعيةٌ تحفيزيةٌ على الالتزام بالإتقان وأحكامه النفسية والعمرانية منقطع النظير، مصحوبة بنظام توجيهي متكامل، تستثمر الوقائع والأمثال والوسائط التصويرية، والآيات التي تذكر الإنسان وتعزز لديه

(١) الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب. **إعجاز القرآن**، تحقيق: السيد أحمد صقر، القاهرة: دار المعارف، (د. ت.)، ص٥٠.

مراعاة فضيلة الإحكام في السكن وفي الحركة، والسر والعلن. نحاول في هذا الفصل معالجة مفهوم القرآن للإتقان، واستخراج مجموعة الأساليب المعتمدة في توعية الإنسان، وشحذ همته في عالم الإتقان وفنونه المتنوعة.

أولاً: مفهوم الإتقان

أصل "الإتقان" لغةً من مادة "تَقِنَ"، وتأتي على معنيين أصليين اثنين؛ قال ابن فارس: "التاء والقاف والنون أصلان: أحدهما إحكامُ الشيء، والثاني الطين والحمأة، فالقول الأول أتقنتُ الشيءَ أحكمتُه، ورجلٌ تَقِنٌ: حاذقٌ."[1] وعلى هذا المعنى سارَ جُلُّ اللغويين، كما جاء في القاموس المحيط: "أَتْقَنَ الأمرَ؛ أي أَحْكَمَهُ، والتِّقَنُ بكسر التاء: الطبيعة، وكذلك الرجل الحاذق.[2] وجاء في "لسان العرب" لابن منظور: أتقنَ الشيءَ، أي أحْكَمَهُ، فإتقانه إحكامُه، والإتقان إحكام الأشياء... ورجل تِقْنٌ وتَقِنٌ؛ أي مُتقنٌ للأشياء حاذق، ورجل تِقْنٌ؛ أي الحاضر المنطق والجواب، والتِّقْن: الطبيعة."[3] ويقال: إنّ أصل الكلمة مأخوذٌ من رجل يُضرب به مثل، اسمه ابن تِقْن كان جيّد الرمي، لم يكن يسقط له سهمٌ.[4] وقد وردت الكلمة في القرآن بصيغة الفعل مرَّةً واحدةً في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل: ٨٨].

---

(١) ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي. **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، بيروت: دار الفكر، ١٩٧٩م، ج١، ص٣٥٠.

(٢) الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. **القاموس المحيط**، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٧، ٢٠٠٣م، ص١١٨٣.

(٣) ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي. **لسان العرب**، القاهرة: دار المعارف، (د. ت.)، ج١، ص٤٣٧، مادة: "اتقن".

(٤) المرجع السابق، ج١، ص٤٣٧، مادة: "اتقن".

اقتصرت بعضُ التفاسير على عرض المعنى اللغوي للكلمة وما يقاربها كما جاء في تفسير ابن عباس أن معنى كلمة "أتقنَ": "أحكمَ،"[1] والسمين الحلبي "أوثقَ" و"سوّى" و"أودعَ الحكمة"، و"الإتيان بالشيءِ على أكملِ حالاتِه."[2] واكتفى الطبري (توفي: ٣١٠هـ) بعرض عدة آراء لمعنى كلمة الإتقان الواردة في الآيات، ونسب معنى "أَحْكَمَ كُلَّ شَيْء" و"أحسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَأَوْثَقَهُ" لابن عباس -رضي الله عنهما-، وقول: "أَتْرَصَ كُلَّ شَيْءٍ وَسَوَّى" لمجاهد.[3] أما ابن حزم الأندلسي (توفي: ٤٥٦هـ) فقد حاول تفسير الكلمة بالمثال، فاستعار ثنائية الجوهر والعرض الفلسفية؛ لإبراز تجليات صور الإتقان في خلق الله تعالى. وأشار إلى الحقائق المتقابلة كالتغير والثبات، والحركة والسكون، وهي كلها من نظام الأزواج في المخلوقات المذكورة في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس: ٣٦]. وذكر أن مقصود الآية: "أنّ الله تعالى قد أخبر أنه بصنعه أتقن كل شيء، وهو على عمومه وظاهره، فالله تعالى صانعُ كل شيء ومتقنُه، وإتقانه له أنه خلقه جوهراً أو عرضاً، جاريين على رتبة واحدة أبداً وهذا عين الإتقان."[4] أما ابن عطية (توفي: ٥٤١هـ) ففسَّرها

---

(١) انظر على سبيل المثال:

- ابن عباس، عبد الله رضي الله عنهما، **تنوير المقباس من تفسير ابن عباس**، جمعه: مجد الدين أبو طاهر محمد يعقوب الفيرزوآبادي. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م، ص ٣٢٢.

(٢) السمين الحلبي، أحمد بن يوسف بن عبد الدايم. **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دمشق: دار القلم، (د. ت.)، ج٨، ص٦٤٦.

(٣) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، اعتنى به: عبد الله بن عبد المحسن التركي، القاهرة: هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط١، ٢٠٠١م، ج٨، ص١٣٨-١٣٩.

(٤)ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي. **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، تحقيق: محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، بيروت: دار الجيل، ط٢، ١٩٩٦م، ج٣، ص٩٧.

بـ"الإحسان في المعمولات، وأن تكون حسنةً وثيقة القوة."[1] في حين مال أبو حيان محمد بن حيان النحوي الأندلسي (توفي: ٧٤٥هـ) إلى إبراز الجانب الأخلاقي من دلالة الإتقان، إذ فسَّر فعل "أتْقن" في الآية بمعنى "مقابلته الحسنة بالثواب، والسيئة بالعقاب، ومن جملة إحكامه للأشياء وإتقانه لها وإجرائه لها على قضايا الحكمة أنه عالم بما يفعل العباد، وبما يستوجبون عليه، فيكافئهم على حسب ذلك،"[2] وهو القول نفسه لصاحب الكشاف جار الله الزمخشري (توفي: ٥٣٨هـ). أما أبو الحسن الماوردي (توفي: ٤٥٠هـ) في كتابه "النكت والعيون" فقد عرض الأوجه الأربعة إضافةً إلى معنى آخر وهو "أحصى"، وهي كلمة تحمل معاني الوصف العددي إلى جنب غيرها من المعاني مثل "أحكم"، وأحسن، وأوثق،[3] وهو التفسير نفسه الذي اعتمده العزّ بن عبد السلام (توفي ٦٦٠هـ).[4] لا شك أنّ الظاهرة التي تحدثت عنها الآية السابقة تتجلّى فيها آية من آيات الإتقان الإلهي في الخلق، وتعكس أيضاً أحد مظاهر الإبداع الذي يُعرف بالإخفاء أو الحذف مع إبقاء الوظيفة. وهو الأمر الذي ينطبق على الجبال؛ الظاهرة الكونية، وآية من آيات الله تعالى في العالم المادي يدركها البشر جامدةً وثابتةً، وهي في الواقع تتحرك كتحرك السحاب دون إحداث أي تأثير سلبي على حياة الناس العامة.[5]

---

(١) ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي. **المحرر الوجيز في تفسير كتاب العزيز**، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، بيروت: دار ابن حزم، ٢٠٠٢م، ص١٤٣١.

(٢) أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي. **تفسير البحر المحيط**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٣م، ج٧، ص٩٥.

(٣) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب. **النكت والعيون**، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، بيروت: دار الكتب العلمية، (د. ت.)، ج٤، ص٢٣١.

(٤) السلمي، عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام. **تفسير القرآن**، تحقيق: عبد الله بن إبراهيم الوهبي، بيروت: دار ابن حزم، ط١، ١٩٩٦م، ج١، ص٨١٧.

(٥) خصّ بعض المفسرين هذا الحدث بيوم القيامة، وما يأتي به من التغييرات، وهو التفسير الذي =

إنّ التوغل في معنى الإتقان القرآني يستحثّ الباحث على تعرُّف مفاهيم أخرى تُغني مضمون الإتقان وطبيعته وقيمه وأطره وأبعاده، بحيث يُتخذ مفهوم الإتقان بوصفه موضوعاً محورياً يتتبع من خلاله التأثيرات التي تأتيه من زاوية الألفاظ المضافة. ولعل مباشرة هذه المرحلة من الوصف التحليلي تتم من خلال البحث في الكلمات الأُخر ذات العلاقة بالإتقان، وما تأثيرات تلك العلاقة على تحديد مفهومه ومضمونه وشروطه. إنّ الباحثَ في هذا السؤال لا يجد عناءً كبيراً للوصول إلى النتيجة التي يتوخّاها؛ لأنّ القرآن الكريم يقدم مجموعة متكاملة من المفاهيم تقارب مفهوم "الإتقان" وتندرج ضمن مجاله الدلالي الذي يرتقي إلى رؤية كلية كاملة ومتميزة.

وقد تعرض القرآن الكريم لموضوع الإتقان في أكثر من ستة عشر موضعاً، يدل كلُّ واحدٍ منها على جانبٍ من جوانب الإتقان ومجالاته وثمراته. ويُشير الجانبُ الأول إلى مجال القدرات، ويشمل عمليات التفكير (١٩) ومهاراته، والاستطاعة (٤٦)، والقوة (٢٦)، والطاقة (٢)، والعلم (٤٨٤)، والحكمة (٢٢)، والفعل (٩٩ مرة). أما الثاني، فمجال الملكات والمهارات، ويشير إلى الإحسان (٦٥)، والإحكام (٢١٥)، والإكمال (٥)، والإبداع (٤)، والتفصيل (٦٣)، والتصريف (٢٦)، والتزين الجمالي (٣٧)، والتسخير (٤٩)، والمحافظة (١١)، والصناعة (١٧). وهناك أيضاً مجال التقدير الكمي، والذي يضمّ التقدير (٨٧)، والإحصاء (١٥)، والحساب (٢٩)، ووضع الميزان (٩). وأخيراً مجال المنجزات، ويحدّده مؤشر الإصلاح (٢٠٠)، والمنفعة الظاهرة والباطنة (٦٣)، وعمل المعروفات (٩٣).

= عارضه المعاصرون، كمحمد الطاهر بن عاشور، انظر:

- ابن عاشور، محمد الطاهر. **التحرير والتنوير**، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م، ج٢٠، ص٤٧ - ٥١.

هذا وقد أولى القرآنُ المجيد موضوع تحديد ماهية "العمل الصالح" وشروطه وأنواعه وروافده وسبل تحقيقه كل العناية؛ فمن بدائع القرآن كما يذكر ابن عاشور أنه "ما يذكر مع الإيمان إلا الأعمال الصالحة، وما يذكر مع الكفر إلا المعاصي، ليري أنّ شأن الإيمان إتيان الأعمال الصالحة، وشأن الكفر إتيان المعاصي، وترك ما بين ذلك من إتيان الأعمال السيئة مع الإيمان؛ ليدل على أن مرتكبها يقرب بالقرب،"[1] وهو ما يظهر جلياً عند استقراء المفاهيم الخاصة بالعمل ومدلولاته المشتركة. فقد ورد مثلاً "عملٌ صالحٌ" (توبة: ١٢٠)، و"عملٌ غير صالح" (هود: ٤٦)، و"صالحاً" (البقرة: ٦٢)، و"المصلح" (البقرة: ٢٢٠)، و"إصلاح" (البقرة: ٢٢٠)، و"الصالحات" (النساء: ١٢٤)، و"الصالحين" (آل عمران: ٣٩)، و"العمل الصالح" (فاطر: ١٠)، كلها وردت – وفي أغلب الأحوال – في صيغ اقترنت بالإيمان وأركانه، وهي العبارات نفسها، التي تقابل المفاهيم السلبية المنافية لمعايير الإتقان. وإذا كانت التصورات العقدية الكلية الخاصة بالعمل تقوم على قيم أداء "العمل الصالح" و"الإصلاح" و"الصلاح"، فهذا يقتضي أيضاً اعوجاج أداء المسلم خارج العقيدة وانحرافه وانسداده، بسبب استلزامها الإحكام في بناء التصورات والأفعال أو السلوك، والتي يرتبط حضورها بالإيمان، وما تحويه من قضايا أساسية على رأسها الثواب والعقاب. إن الاعتقاد الجازم يؤكد أن الفعل الصالح يجلب الرضا ويكسبُ الأجر والمثوبة. وبالمقابل، يقوي الشعور الحي بأن الفعل الفاسد يجرمه ويجر عليه العقاب، ويُبقي شعوره ووعيه حيّاً بق أفعاله ويلازمها، وهكذا ينبغي أن يسعى المسلم إلى توجيه فعله وإرادته وجهده إلى كسب الثواب وابتغاء الرضا وتجنب العقاب، وأن يعزّز توجيه بوصلة الأداء إلى تحقيق القربى والاحتساب.

---

(١) ابن عاشور، محمد الطاهر. **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، تونس والجزائر: الدار التونسية للتوزيع والمؤسسة الوطنية للكتاب، ط٢، ١٩٨٥م، ص٨٦.

إننا إذا سلَّمنا بتأثير الأحوال الإيمانية والنفسية في أداء المسلم، فإننا نخلص إلى أنه مع حالات الاستثناء الواردة في القرآن بخصوص حدود التكليف ومناسبته للقدرة الإنسانية، كما في قول الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ [الطلاق: ٧]، فإن من أسباب ضمور سلوك الإتقان يكمن في ضعف التأسيس العقدي بشكل عام وهشاشة البناء الأخلاقي، لا سيما ما تعلق منهما بمفهوم الحياة الدنيا والمسؤولية والسعي والعمل.

يعرض القرآن الكريم المفاهيم، وأنماط الفكر والسلوك المبينة للأحوال التي تخل بالإتقان وتقصّيه عن قيمه الأصلية، ولعل أجمع ما ورد في الباب كلمة "الفساد" التي يعم معناها الصغير والكبير من النقص والرداءة في التصور والفعل. ومن الأمثلة على ذلك الإتقان في الميزان والتزام الوفاء فيه، والذي ورد فيه في القرآن أنّ الإخلال والبخس فيه نوعٌ من الفساد في السلع يحصل بالتعييب أو التزهيد أو المخادعة في القيمة أو الاحتيال في الكيل والنقصان،"[1] وهو منهي عنه؛ لما يسببه من الأضرار الجسيمة في المعاش والعمران بجملته. يقول تعالى ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ

(١) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر. **الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأحكام الفرقان**، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي. بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٦م، ج٩، ص٢٨٢.

وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨٥﴾ [الأعراف: ٨٥].

هذا، ويعرضُ القرآنُ مسألةَ الإتقان بوصفها صفةً طبيعية وأصلية للفعل الإنساني غير إضافية زائدة. فقد شاءت حكمة الله تعالىٰ أن يُؤتىٰ الإنسان العلم والقدرة اللذين يؤهلانه لأن يُدرك ويحتك ويقلد ويكتسب تلك الصفة، وفق ما تسمح له طبيعته الفطرية والخلقية بسلاسة علىٰ مستوىٰ الفكر والشعور والسلوك، ويمثّل ذلك التقليد أحد أقسام الحكمة العملية المتعلقة بأفعال الناس وسلوكهم، ويطلق عليه تهذيب النفس، ويراد به "التخلّق بصفات العلو الإلهي بحسب الطاقة البشرية، فيما يصدر عنه كمال في الإنسان."[1] وبحكم الاستسلام المطلق لإرادة الله تعالىٰ، يصبح المسلم أكثر الناس قُرباً من الوحي وتفاعلاً وتأثراً به، مما يجعل من طينة الإحكام والإتقان النسيج الروحي والفكري والعاطفي لجميع تصوراته وإسهاماته وإنجازاته، وما عداه حالات ظرفية استثنائية مؤقتة، لا تعبر إلا عن حالات من الضعف والفتور الطبيعي، والتي تبعاً لمراجعات فكرية منهجية قويمة، تنبع عنها إشعاعاتٌ جديدةٌ وبداياتٌ وثيقةٌ صلبةٌ في بناء المجتمع والعمران. ولعله بهذا الاعتبار، انتهىٰ علماء المسلمين؛ المتقدمون والمتأخرون والمعاصرون منهم، إلىٰ أنّ الإتقان ملازمٌ للعبودية والالتزام الخلقي والديني. إنّ قيمةَ المرء كما روي عن الإمام عليٍّ كرّم الله وجهَه في "ما يحسن"، وهي حكمة يحثُّ فيها علىٰ الإتقان، وينظر من خلالها إلىٰ قيمة الإنسان بمقدار إتقانه الأعمال وإحكامه الصنائع. وقد تنبَّه الجاحظ إلىٰ قيمتها، فجعلها تُغني عن كتابٍ كامل "لو لم نقف من هذا الكتاب إلا علىٰ هذه الكلمة (أي "قيمة كل امرئ ما يُحسنه") لوجدناها شافيةً كافيةً، ومجزئةً مغنيةً،

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٣، ص٦٢.

بل لوجدناها فاضلة عن الكفاية، وغير مقصرة عن الغاية."[1]

وممن اعتنى من المعاصرين بمسألة الإحسان في العمل راصداً أصلها في الإسلام ومبيناً الخلل الذي لحق الفكر الإسلامي والذي ألحق معه الضعف الشنيع في رعاية الإتقان، الإمام العلامة الطاهر بن عاشور الذي يقول: "وأدلة القرآن والسنة طافحةٌ بالأمر بإحسان العمل، وبيان الأعمال الصالحة، وبالوعد على الامتثال، والوعيد على الاقتحام، وقد استقام السلف على ذلك زمناً لا يُثبطهم تعلّل، ولا يضل بهم تأول،"[2] ويوسف القرضاوي أفرد في أحد مباحث كتابه عنوان "إحسان العمل فريضةٌ دينيةٌ" فقد أكّد أن قيمة العمل وإحسانه وإتقانه من القيم المهمة في مجال الإنتاج، وأنه ليس المطلوب في الإسلام مجرّد أن يعمل الفرد عملاً، بل أن يعمل عملاً حسناً، وبعبارة أخرى: "أن يُحسن العمل، ويؤدّيه بإحكام وإتقان، والذي يعني أنّ الإحسان في العمل ليس نافلةً أو فضلاً أو أمراً هامشياً في نظر الإسلام، بل فريضةٌ دينيةٌ مكتوبةٌ على المسلم ... فمن فرَّطَ في إحسان العمل فقد فرّط في واجب ديني، وفريضة إلهية، مما كتب الله على عباده المؤمنين."[3]

ثانياً: مقصد الإتقان ومفاهيمه الكلية

انتبه كثيرٌ من العلماء المسلمين المتقدمين إلى مجال المقاصد القرآنية، منهم -على سبيل المثال لا الحصر- الإمام الشافعي (توفي: ٢٠٤هـ) في "كتاب الأم"، والطبري (توفي: ٣١٠هـ) في "جامع البيان عن تأويل القرآن"، والماتريدي

---

(١) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. **البيان والتبيين**، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت: مكتبة الخانجي، ١٩٨٥م، ج١، ص٨٣.

(٢) ابن عاشور، **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، مرجع سابق، ص٦٤.

(٣) القرضاوي، يوسف. **دور القيم الأخلاقية في الاقتصاد الإسلامي**، القاهرة: مكتبة وهبة، ط١، ١٩٩٥م، ص١٥١-١٥٢.

(توفي: ٣٣٣هـ) في "تأويلات أهل السنة"، وأبو بكر الباقلاني (توفي: ٤٠٣هـ) في "الانتصار للقرآن"، والبغوي (توفي: ٥١٦هـ) "معالم التنزيل في القرآن"، والزمخشري (توفي: ٥٣٨هـ) في "الكشاف"، والرازي (توفي: ٦٠٦هـ) في "مفاتيح الغيب" والبقاعي (توفي: ٨٨٥هـ) في "مصاعد في النظر للإشراف على مقاصد السور"، لكن تفرَّد الإمام أبو حامد الغزالي (توفي: ٥٠٥هـ) في كتابه "جواهر القرآن" في معرض حديثه عن الموضوع بنوع من التفصيل حول الموضوع،[١] وبعده ازداد المجال جذباً لأنظار العلماء لا سيما في هذا العصر. فظهرت مؤلفات كثيرة تنوّع فيها المنهاج والمباحث والرؤى ومناقشة الأفكار واستخراج الأحكام، وبيان الغايات والفوائد، وإبراز مباحث جديدة غير التي عالجتها كتب المتقدمين في العقيدة والأحكام والأخلاق. فقد حاول بعضهم على سبيل المثال إغناء المقاصد الكبرى أو الضروريات الخمس التي حددها الفقهاء والأصوليون في حفظ النفس، والعقل، والعرض، والنسل، والمال/ مثل العز بن عبد السلام (توفي: ٦٦٠هـ) في "قواعد الأحكام في مصالح الأنام" وأبو إسحاق الشاطبي (توفي: ٧٩٠هـ) في "الموافقات". إذ إننا نجد هذا التطور واضحاً عند رشيد رضا في "الوحي المحمدي" و"تفسير المنار"، وابن عاشور في "مقاصد الشريعة"، والريسوني في "مقصد المقاصد"، وجمال الدين عطية في "نحو تفعيل مقاصد الشريعة"، وفضل الرحمن في "المسائل الكبرى في القرآن الكريم". لكن يبقى حقل المقاصد القرآنية نهراً عظيماً يتجدّد ماؤه لا تعكره الدلاء، يستحثّ الغواصين لاستكشاف كنوزه التي لا تنتهي؛ ذلك لأنّ تراكم التجارب، ونمو العلوم والمعارف وتطور

(١) عبد الرحمن حللي. "مقاربات مقاصد القرآن الكريم: دراسة تاريخية"، **مجلة التجديد**، الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا، المجلد: (٢٠)، العدد: (٣٩)، ٢٠١٦م، ص١٩٣-٢٣٤.

حاجيات عمرانية جديدة، كلها تلزم الإنسان المسلم على العمل والاجتهاد؛ لاستكشاف تلك المقاصد وفقه ماهيتها وطبيعتها ومتعلقاتها. ولعل المباحث التي يمكن إضافتها هي تلك التي تُعنى بنظرية الإنسان في تفاصيلها النفسية والفكرية والسلوكية في سياق الاجتماع والعمران في أحواله وتقلباته. إنه وإن كان الحديث عن الإنسان متضمناً في مقاصد الشريعة في بعديها النفسي (حفظ النفس) والفكري (حفظ العقل)، وتبقى الأطروحات في مهدها متجهة إلى صياغة الأحكام مع قسط قليل من التفسير والتحليل[1] وفق أهداف علوم العمران البشري ومناهجه وأدوات تحليله، ووفق اصطلاح ابن خلدون. ولنستجلي أحقية مبدأ الإتقان أن يدرج في قائمة المقاصد "التفصيلية" ضمن المقاصد الكبرى أو الكلية، فإننا نتجه إلى تبيان اتصال المقاصد بثلاثة مفاهيم قرآنية أساسية، هي القراءة والإحسان والخلافة.

١ - القراءة والإتقان:

تقودنا محاولة تأصيل مفهوم الإتقان إلى تدبر الكلمة المباركة الأولى التي نزلت على سيدنا محمد ﷺ وهي ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، والتي تضمُّ معاني لغوية غنيّة وعديدة جعلتها تتصف بكمالات دلالية في غاية الأهمية؛ ولعل أول إشارة لهذه الكمالات هو غياب الشيء الذي يقرأ فيه حين خطب الرسول ﷺ، ولم يرد ﷺ بعبارة "ماذا أقرأ؟"، بل رد قائلاً ﷺ ثلاث مرات: "ما أنا بقارئ"، كما ورد في حديث عائشة -رضي الله عنها- في الصحيحين البخاري والمسلم. يقول ابن عاشور في تفسير معنى القراءة في الآية: "والأمر بالقراءة مستعملٌ

---

(١) انظر على سبيل المثال:

- العالم، يوسف حامد. **المقاصد العامة للشريعة الإسلامية**، هيرندن: فيرجينيا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٢، ١٩٩٤م، ص٣٢٥-٣٤٠.

في حقيقته من الطلب لتحصيل فعل في الحال أو الاستقبال، فالمطلوب بقوله: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ [العلق: ١] أن يفعل القراءة في الحال أو في المستقبل القريب من الحال؛ أي أن يقول ما سيُملَى عليه، والقرينة على أنه أُمِر بقراءة في المستقبل القريب أنه لم يتقدم إملاء كلام عليه محفوظ فتطلَّب منه قراءتُه، ولا سلِّمتْ إليه صحيفة فتطلب منه قراءتها، فهو كما يقول المعلِّمُ للتلميذ: اكتب، فيتأهب لكتابة ما سيمليه عليه."[1]

وتضم كلمة "اقرأ" معاني لغوية عدة مثل الإظهار والإبراز، كما قيل في وصف الناقة: لم تقرأ جنيناً؛ أي لم تحمل. "وقَرَأْتُ الشيءَ قُرْآناً؛ أي جَمَعْتُه وضَمَمْتُ بعضَه إلى بعض. ومنه قولهم: ما قَرأَتْ هذه الناقةُ سَلىً قَطُّ، وما قَرَأَتْ جَنِيناً قطُّ؛ أَي لم يَضْطَمّ رَحِمُها على ولد ... وقارَأَه مُقارَأَةً وقِراءً، بغير هاء: دارَسه ... والقَارِئُ والمُتَقَرِّئُ والقُرَّاءُ كُلّه؛ أي النَّاسِكُ، يقال: رجل قُرَّاءٌ وامْرأَة قُرَّاءةٌ. وتَقَرَّأَ: أي تَفَقَّه. وتَقَرَّأَ؛ أي تَنَسَّكَ. ويقال: قَرَأْتُ؛ أَي صِرْتُ قارِئاً ناسِكاً... وقال بعضهم: قَرَأْتُ؛ أي تَفَقَّهْتُ. ويقال: أَقْرَأْتُ في الشِّعر، وهذا الشِّعْرُ على قَرْءِ هذا الشِّعْر؛ أَي طريقتِه ومِثاله ... وقَرَأَ عليه السلام يَقْرَؤُه عليه وأَقْرَأَه إِياه: أَبلَغه ... وفي الحديث: "إِنّ الرّبَّ عزّ وجلّ يُقْرِئكَ السلامَ". يقال: أَقْرِئْ ... والقَرْءُ: الوَقْتُ. والقُرْءُ: الحَيْضُ، وضدّه الطُّهرُ. وذلك أَنَّ القَرْء الوقت، فقد يكون للحَيْض والطُّهر ... الأَقْراءُ: الحِيَضُ، والأَقْراء: الأَطْهار، وقد أَقْرَأَتِ المرأَةُ، في الأَمرين جميعاً، وأَصلُه من دُنُوِّ وقْتِ الشيء ... وقَرَأْتُ القُرآنَ: لَفَظْتُ به مَجْموعاً، وقَرَأَتِ الناقةُ: وَلَدت ... وأَقْرَأَت الناقةُ والشاةُ: اسْتَقَرَّ الماءُ في رَحِمِها؛ وهي في قِرْوتها ... وأَقْرَأَتِ الرِّياحُ: هَبَّتْ لأَوانِها ودَخلت في أَوانِها ... والقارئُ: الوَقْتُ ... وأَقْرَأَ أَمْرُك وأَقْرَأَتْ حاجَتُك، قيل: دنا، وقيل: اسْتَأْخَر."[2]

---

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٣٠، ص٤٣٥.

(٢) ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، مادة "قرأ".

يدل الفيض اللغوي والشرعي لكلمة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ على أنّ الكمالَ الإنساني يكمن في قراءة آيات الله تعالى في الأنفس وفي الآفاق، والتي لا تتوقّف عن إشعاع نورها اليقيني لمن قطع على نفسه البحث عن الحق والعمل به، وتحقيق النفع لنفسه ولأمته. وقد اجتمعت كلمة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ في سورة العلق بجملة من المفاهيم الأساسية ذات الدلالة على أصل الإنسان وفعله، ومن بينها الخالق عزّ وجلّ، والخلق، والإنسان، والعلم، والتعليم، والقلم، والطغيان، والاستغناء بالأسباب، والعبودية، والهدى، والتقوى، والقربة من الله تعالى، ومفاهيم أخرى ذات مضامين سلبية، مثل الجهل، والطغيان، والكذب.

وفي هذا السياق حاول حبنكة الميداني استخلاص دروس من مضمون السورة، متخذاً أول الدروس ضرورة التعليم لقيام العمران الإنساني، والذي يتضمن الدعوة إلى اكتساب العلم ووسائله التي سخّرها الخالق عزّ وجلّ، ومكّن الإنسان وهداه لاستعمالها، وذلك من خلال القراءة وهي أهم وسائل القراءة للعلوم الصحيحة النافعة وتدوين المكتسبات العلمية.[1] أما جودت سعيد، فقد تحدث عن أهمية القراءة في تحقيق الرقي الشامل للأمم، مؤكداً على تحقق الاقتران المتلازم بين القراءة والكرم كما ورد في سورة العلق، وأن استقراء التاريخ الإنساني يدلّ على سؤدد الأمم عبر العصور قد كان حظها في القراءة أكبر، كما كان الحال مع اليونانيين والمسلمين في عهودهم الذهبية أو النُقلة التي حققها اليابانيون.[2]

والقراءة في الإسلام شريان الحياة؛ إذ كلما كانت واسعة كانت معها أسمى وأرقى وأكرم، بسبب ما يستفاد منها من المعارف والتجارب وعمليات المراجعة

---

(١) الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة. **معارج التفكر ودقائق التدبر**، دمشق: دار القلم، ط١، ٢٠٠٠م، ج١، ص٣٧.

(٢) سعيد، جودت. **اقرأ وربك الأكرم**، بيروت: دار الفكر المعاصر، ط٢، ١٩٩٣م، ص٢٥-٢٦.

النقدية الموضوعية لرصيد الإمكانات وأساليب الأداء، والحاجة لتطوير المهارات اللازمة؛ لتحقيق مقامات أفضل من الاستخلاف والتمكين والعمران.

لكن لا يقتصر دور القراءة على تحقيق مكتسبات جديدة في مختلف ميادين العلم والمعرفة فحسب، بل يشمل أيضاً إصلاح جذور الفساد ومظاهره في الحياة الفردية والاجتماعية، والموانع التي تحول دون تذليل صعاب التعلم وتحقيق المكتسبات العلمية والمعرفية المتجددة. إنّ للقراءة الواعية كل التأثير في إحياء ثقافة الإتقان[1] وتعزيزها ونموها واستدامتها، والقراءة تتعلق بذلك النوع من التفاعل الحي والصادق الذي يحث عليها القرآن، ومن الطراز الأصلي الأولي الذي نقلت من خلاله حياة النبي محمد ﷺ من التحنث في غار الحراء إلى دعوة عشيرته الأقربين ثم أهالي مكة، ونشر الإسلام في المعمورة وفتح البلدان، وبناء أمة التوحيد والأخلاق والعلم والدعوة والعمران.

وتكون القراءة في نظر جودة سعيد واسعة ماسحة محصية لتجارب البشر ومعاناتهم بالسير في الأرض، وتستدعي النظر في سنن الأمم والشعوب السابقة، وذلك للاستفادة من العبر وتفادي استنساخ الأخطاء، والتبصر بما يريد الله تعالى في خلقه.[2] والقراءة بهذا الاعتبار أسلوب إصلاح وتغيير وإعادة بناء، وتصميم الحلول الناضجة للتساؤلات والمشكلات الطارئة كافّة. وسبب ذلك أن القراءة توسع آفاق الوعي الإنساني والاجتماعي، وتوفر الرصيد المتنامي من التراكمات المعرفية النوعية، وخلاصات الحكمة الإنسانية ورصيد التجارب الحضارية المختلفة.

---

(١) نقصد بـ"ثقافة الإتقان" الوعي الجمعي بقيمة الأعمال المتقنة ومعاييرها الأساسية، وتبني ذلك في بناء الجوانب المختلفة من الحياة البسيط منها والمعقدة.

(٢) سعيد، **اقرأ وربك الأكرم**، مرجع سابق، ص٤٣.

٢- الإحسان والإتقان:

الإحسانُ وصفٌ ربانيٌّ لأسمى علاقة يكتسبها الإنسان مع خالقه تعالى ومع الناس والمخلوقات حوله. وقد ورد استعمال الكلمة بكثرة تشجيعاً على تبنّي هذه الفضيلة في مختلف مجالات الحياة. قال السعدي: "الإحْسَانُ فضيلة مستحبٌّ، وذلك كنفع النَّاس بالمال والبدن والعِلْم، وغير ذلك مِن أنواع النَّفع حتى إنَّه يدخل فيه الإحْسَان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره."[١] وهو المقياس الأساس الذي اتخذه الله تعالى ليزن به أعمال البشر، فالقرآن يشير في بضع مناسبات أن أولوية الفعل الإنساني تحسُّنه قبل تحقيق الكثرة. يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك: ٢].

ولم تكن دعوة القرآن وحثّه على الإحسان في الاتجاه التعبدي بمعناه النسكي أو الأخلاقي القيمي المحدود، بل شملت أيضاً كافة الشؤون الحياتية العملية الأخرى ومختلف الأنشطة الإنسانية والاجتماعية والحضارية وتأثيراته في العمران، ولعله المعنى الذي يمكن استنباطه من قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٧٧﴾ [القصص: ٧٧].

إننا نجد في عديد من المناسبات القرآنية التذكير بالإحسان مدعماً بصور ذهنية مادية ملموسة تذكر الإنسان بملازمة الإحسان لمثل موضوعية وواقعية تعود على نظام حياته ككل. ففي الآية الآتية، رافقت الدعوة إلى الإحسان حدث خلق السماوات والأرض وتقدير عددها، وهي لوحات صورية تعكس الفعل المتقن. يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ

---

(١) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق. الرياض: دار السلام للنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠٠٢م، ج١٤، ص٥١٩.

وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]. وبالإضافة، فقد لجأ القرآن إلى أساليب أخرى لإيصال رسالة الإحسان وما يقابلها من صور الفساد بأقوى صورها معتمداً وسيلة المقارنة كما في قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة: ٥٠].

هذا وقد استعمل القرآن أسلوباً آخر في تعليم الإتقان وتعزيز سلوكه وثقافته، مما يمكن تسميته بأسلوب التكليف الذي نجده واضحاً في مسألة ولاية مال اليتم، فقد أمر الله تعالى بالإحسان والإحكام في ولاية اليتيم، بالصورة الأحسن رعاية وصيانة له ولماله، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ۝٣٤﴾ [الإسراء: ٣٤]. ولا تقتصر الولاية هنا على تدبير المال وصيانته، بل تشمل كذلك النفس بتحقيق العناية وتربية شخصية اليتيم مثل التعليم والتطبيب والتشغيل والتزويج.[1] وقد سنَّ الشرعُ لضمان غايات الولاية من الحفظ والإحسان أحكاماً غاية في الدقة والحكمة، وجعلها منوطة بتحقيق مصلحة اليتيم في كل الأحوال ومراحل الولاية وحتى تسليم ماله إليه. إذ يشترط على الولي أن يراعي النضج العقلي لليتيم ورشده حتى تتم المصلحة. يقول تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٦﴾ [النساء: ٦]. إن وقوع الولي في أي شكل من الإهمال أو الظلم أو التعدّي واجهه القرآنُ بوعيد قاس في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾ [النساء: ١٠]. إنه بقدر ما ينظر إلى هذا التكيف بأنه مسؤولية عظيمة، أيضاً مدرسة عملية في اعتماء فقه الإتقان بوصفه أسلوب

(١) الزرقا، مصطفى أحمد. **المدخل الفقهي العام**، دمشق: دار القلم، ط٢، ٢٠٠٤م، ج٢، ص٨٤٣.

حياة. فالذي يطلع على الأحكام المختلفة المتعلقة بولاية اليتيم[1] يُدرِك جيداً أنّ استفائها ليس لها إلا نتيجة واحدة، وهي تحقيق درجة الإحسان والإتقان في رعاية مصلحة اليتيم في الحياة العملية بمختلف أبعادها الروحي والفكري والسلوكي والاجتماعي.

وفي سياقات أخرى، استبعد القرآن الاستثناءات والفراغات التي قد يلجأ إليها الإنسان، فعمّم إلزامية الإحسان مثل تذكير الناس بقيام الدين كله على مبدأ الإحسان والحثّ على اتباع "الأسوة الحسنة" التي تحلّى بها الأنبياء، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥].

كما عرض القرآن معاني الإحسان في مجال واسع فسيح يضم الوجود الإنساني بكليته، لا سيما عند تأسيسه العلاقة الخاصة بينه وبين مفهوم "الابتلاء"، بوصفه سنَّةً من سُنن الله تعالى في الخلق، وبهذا نقل موضوع الإحسان أو الإتقان إلى أعلى مستوياته الممكنة من التأمل والتدبر والاعتبار. فالابتلاء ضرب من الاختبار الذي يستوجب إحسان العمل والتصرّف. فقيمة العمل ليس بكثرته، بل بجودته. فالعمل الكثير الذي لا يراعى فيها الإحسان، قد يتحول إلى فساد. فالإحسان الذي يدعو إليه القرآن ليس تصورّاً جزئياً منصبّاً على حقول الكسبية المادية فحسب؛ بل يشمل سعة الحياة كلها. وهو بالإضافة إلى ذلك لا يندرجُ ضمن صنف الخصال الشخصية الموروثة التي يتوقع الإنسان اكتسابها بأدنى مستويات الاهتمام والرعاية والجهد، بل على العكس معادلات ملكات ذهنية وسلوكية خاضعة لقوانين التعليم والتدريب ومراقبة التحسن.

---

(١) قوزح، مريم عطا حامد. "أحكام مال اليتيم في الفقه الإسلامي"، أطروحة ماجستير في الفقه والتشريع، كلية الدراسات العليا: جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، ٢٠١١م، ص٥٩-١٢٤.

ولهذا نبَّه بعضهم مثل القرضاوي إلى أن الإتقان من لوازم الإيمان الأساسية، يقول: "إن المؤمن لا يكتفي بالاندفاع الذاتي إلى العمل، بل يهمّه أن يجَوِّده، ويتقنه ويبذل جهده لإحسانه وإحكامه، لشعوره العميق، واعتقاده الجازم أن الله يراقبه في عمله، ويراه في مصنعه أو في مزرعته أو في أي حال من أحواله، وأنه تعالى "كتب الإحسان على كل شيء."[1] وهذا يعني أنّ الذين يهملون شروط الإتقان في أعمالهم التعبدية والعمرانية، لا شك أنهم أساؤوا فهم معنى العقيدة والحياة معاً، وأنهم قد غاب عنهم المعنى الحقيقي للصلاح والفلاح. ولهذا، فإن الاعتناء بالأحوال التعبدية وتنميتها واستدامة الاستقامة فيها مثل الإيمان والتقوى والصلاح تُوجب الآتي كما يقول القرضاوي: "أن نوازن بين ديننا ودنيانا، وأن نتعبَّد الله تعالى بمراعاة سننه الكونية، وأن نعد لأعدائنا ما استطعنا من قوة، وأن نغرس ونزرع ونصنع، ونقوم بكل علم أو صناعة تحتاج إليها الأمة في دينها أو دنياها، وهو ما عدّه فقهاءُ المسلمين فرضَ كفاية تأثم الأمة كلها بالتفريط فيه ... إنّ التقوى المنشودة ليست مسبحة درويش، ولا عمامة متمشيخ، ولا زاوية متعبّد، إنها علمٌ وعملٌ، ودينٌ ودنيا، وروحٌ ومادةٌ، وتخطيطٌ وتنظيمٌ، وتنميةٌ وإنتاجٌ، وإتقان وإحسان."[2]

وتنبغي الإشارة إلى أنه في القرآن الكريم، سبق مفهوم الإحسان والاستباق في الخيرات التذكير بسنة الابتلاء (المائدة: ٤٨؛ هود: ٧؛ الملك:٢)، بوصفه الأساس والمحفز الإيجابي الذي يدفع الفرد إلى الجد والاجتهاد والمثابرة. وأصل الابتلاء من "ابتليتُه؛ أي اختبرتُه، وابتليتُ الرجلَ فأبلاني؛ أي استخبرتُه فأخبرني، وامتحنتُه واختبرتُه، كبَلَوتُه بلْواً وبلاءً، والاسم البلوى والبِلوَة بالكسر. والبلاء: الغمُّ كأنه يبلي الجسم، والتكليف بلاءٌ؛ لأنه شاقٌّ على البدن أو أنه اختبارٌ، والبلاء

(١) القرضاوي، **دور القيم الأخلاقية في الاقتصاد الإسلامي**، مرجع سابق، ص١٥٥.

(٢) المرجع السابق، ص١٥٣-١٥٤.

يكون منحة ويكون محنة."[1] هذا وإن أحسن المفسرون عرض تطبيقات مفهوم الابتلاء في مجاله القيمي المحدد بالطاعة والمعصية، غير أن المسألة لا تزال بحاجة إلى بيان تفاصيلها، لا سيما فيما يتعلق بتأثير الابتلاء في النفس والذهن والتفكير والسلوك، وتشكيل نمط الحياة والرؤية الكونية.[2] ولعل هذا التحديد إحدى العوامل التي جعلت بعض الناس يغفلون الربط بين "الابتلاء" بمفهومه العقدي ونوعية الأعمال التي تصوغ الحياة العمرانية، مما يشكّل موضوع العبودية في كمالها وشموليتها. فعلى مستوى العقيدة مثلاً، يدعم مفهوم "الابتلاء" مفاهيم أخرى ويسندها مثل التمحيص (آل عمران: ١٤٥)، والافتتان (العنكبوت: ٢-٣) أو الحاجة لمواجهة البلاء بضوابط التوحيد وقيم الإيمان والصبر (البقرة: ١٥٥) أو أنه سنَّةٌ عامةٌ في أبواب الخير والشرّ (الأعراف: ١٦٨)، (الأنبياء: ٣٥)، وأنها تخصّ الإنسان في ذاته (الإنسان: ٢)، وممتلكاته (آل عمران: ١٨٦)، ودرجته عند الله تعالى (الأنعام: ١٦٥). فالمسلم يجب أن يعي ما يلزم من الابتلاء وهو حصول السعي الإيجابي والكدّ والسرعة في إتيان الخيرات بأشكالها وأنواعها، والاستقامة في ذلك، بعيداً عن اختزال المفهوم في حدوث المصائب والصبر عليها وإظهار الاحتساب. إنّ سنَّة الابتلاء في القرآن بمثابة فضاء رحب واسع يشعّ الوعي الحيّ الإيجابي، ويستند على الحثّ على الإتيان بالمبادرات والخوض في المنافسة الكريمة والسرعة إلى تحقيق الإحسان في الأفعال والشعور الزكي والتفكير السليم.

٣- الاستخلاف والإتقان:

ينشأ الشعور بمسئولية الإتقان في حياة المسلم من الفهم السليم لمعنى الحياة والرسالة المنوطة بالإنسان، وحاجة الإنسان إلى تبنّيه المنهاج الصحيح

---

(١) الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، مرجع سابق، ص١٢٦٤، مادة: "بلى".

(٢) انظر على سبيل المثال:

- صالح، عبد الله ميرغني محمد. **الابتلاء وأثره في حياة المؤمنين كما جاء في القرآن الكريم**، الرياض: دار الاعتصام، ١٩٨٣م.

الذي يضمن سعادتي الدنيا والآخرة. فقد كرَّم الله تعالىٰ الإنسان بإرسال الرسل والأنبياء تترا، وأنه وفقاً لهذه السنّة الإلهية في هداية البشر، نجد في القرآن أجوبة يقينية مفيدة للأسئلة الكبرىٰ التي تستثير العقل البشري حول أصله ومصيره ومعنىٰ الحياة ومغزىٰ القيم والشرائع التنظيمية المختلفة. وقد لخَّص القرآن الكريم محاور الحياة الإنسانية الكبرىٰ في المفاهيم الآتية: الاستخلاف (١٢)، وهي كلمة تُشير إلىٰ تولي الإنسان المسؤولية والخلافة وتكليف الإنسان بأداء الأمانة والمسؤولية في الأرض. العبودية (٢٧١)، وهي أرقىٰ صلة تربط الإنسان بخالقه، فهي المنظور الذي تكون قيمته وحاله مصيره. التعمير (٧)، وهو نشاط إنساني مادي ومعنوي، فردي وجماعي يساعده علىٰ تحقيق شروط حياة ملائمة تمكّنه من تحقيق حاجاته الضرورية والكمالية والإصلاح (١٨٠)، وهو نشاط المراجعة والتصحيح، وتحسين الأداء في التفكير والعمل والتمكين (١٥) يكون نتيجة المنطقية لتحقيق المبادئ المذكورة، وهو معنىٰ يدلّ علىٰ حالة من النضج والرسوخ والقوة، والثبات، والهيمنة والظهور.

وليس الاستخلاف فقط تاريخاً دينياً لاستعمار الإنسان في الأرض (هود: ٦١)؛ بل نظامٌ عمليٌّ شاملٌ وضعه الله تعالىٰ لحياة الإنسان فوق الأرض؛ يوجهه وفق اختياراته الإرادية التي جعلها الله تعالىٰ سنَّة تكوينه وفطرته. فالاستخلاف نظامٌ إلهيٌّ يستند إليه التفكير وتوجيه الإرادة وإنجاز الأعمال والاستفادة مما منحه الله تعالىٰ الإنسان؛ ليحقق الأهداف التي من أجلها خلق، وهو بهذا المعنىٰ أصل لا ينفك عن الفعالية لدخوله في النشاط الإنساني كله. وفي هذا السياق يرىٰ النجار أن "...الخَلَفِية تقتضي أن يكون الهمّ الأكبر للخليفة تَرَقِّيه نحو مستخلِفه، واقترابه منه ليحقّق معنىٰ الاستخلاف علىٰ الوجه الأفضل، ولذلك فإنّ الإنسان الخليفة جوهر خلافته أن يحصر همّه وجهده في الاقتراب من الله

مستخلِفه، وذلك بالعمل الدائب والكدح المستديم؛ لترقية ذاته وتنميتها حتى يبلغ من الاكتمال الدرجة (الانشقاق، ٦)."[١]

ويمثل "الخليفة" الاسم الأول الذي سمّى به الله تعالى الإنسان في حوراه مع الملائكة في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠] فكيف يمكن تفسير هذه العلاقة التلازمية بين الاستخلاف والإتقان؟ إنّ اسم "الخلفة" أو فعل الاستخلاف لا يقتصر فقط على وصف لمكانة أو مقام محدد، بل ينطوي أيضاً على أداء وظائف محددة على أكمل الوجوه، مما يُعدّ الإخلال بها عيباً مشيناً، لأنّه يعني الإخلال بالأمانة، وهو "الخُلْفُ" أي نقيض الوفاء بالوعد. وفي حديث ابن عباس: أَنّ أَعرابيّاً سأَل أَبا بكر، رضي الله عنه، فقال له: أَنتَ خَلِيفَةُ رسولِ الله، ﷺ؟ فقال: لا، قال: فما أَنت؟ قال: أَنا الخالِفةُ بعدَه. قال ابنُ الأَثير: الخَلِيفةُ مَن يقوم مَقام الذاهب ويَسُدُّ مَسَدَّه"[٢] لقد تفطَّن أبو بكر -رضي الله عنه- إلى خصوصية النبوة، فهي لا تستخلف، رفض تسمية "خليفة الرسول" فصححها بـ"الخليفة بعده" ورعاً وتواضعاً. ففي الآية الكريمة: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢٦]، يتضح جلياً أنه تابع تنصيب الخليفة مباشرة الوصف الوظيفي، وهو الحكم بين الناس وتجنّب الهوى، مما يمثل الشرط الأساسي لتحقيق صفة الإتقان في الحكم. وهو الوضع نفسه في أمر رسول الله تعالى موسى مع أخيه هارون عليهما السلام،

---

(١) النجار، عبد المجيد. **خلافة الإنسان بين الوحي والعقل؛ بحث في جدلية النص والعقل والواقع**، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٣م، ص٦٢.

(٢) ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، مادة "خلف"، ج١٤، ص١٢٣٨.

بحيث عند استخلافه إياه في قومه، حدَّد له وظيفة ورسالة الاستخلاف بالإصلاح وتجنّب سبيل المفسدين، قال تعالى: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢﴾ [الأعراف: ١٤٢].

ويمكن هنا أن نلحظ أنّ في كلتي الحالتين لم يكتف بتحديد وظائف الاستخلاف بما يجب فعله فقط، بل أضيف إليها أيضاً ما لا ينبغي فعله والحذر من الوقوع فيه، مما يؤكد الحرص على تحقيق الكمال والإحكام والإتقان في أداء وظيفة الاستخلاف. ويدل على أن رسالة استخلاف الإنسان الأولى تقتضي رعاية الإتقان حتماً.

يفرز إدراج الإتقان في أصل الاستخلاف تأثيرات مختلفة توازي مراتب النفس الإنسانية التي تتقدمها مرتبة الأثر النفسي على الفعل الإنساني، فالاستخلاف في هذه المرتبة هو الذي يقدم جملة من الضمانات والتحفيزات المناسبة لفطرة الإنسان وفعله، وهو يمثّل بالنسبة للإنسان المجال الحيوي الذي تتجلّى فيه الفعالية وترقى، يعني أن الاستخلاف في هذه المرتبة يبدد الشعور بالكسل، ويزيل أوهام الفوضى، وتيه الحياة، وغموض المستقبل؛ فهو يمثل في أبسط معانيه ذاكرة وجدانية يشعر بها كل إنسان ذو فطرة حية وسليمة، تُضيء آفاق فعله وتوجه سعيه إلى الأصلح والخير. وبهذه المناسبة ذهب محمد زرمان إلى القول بأن "المشروع الاستخلافي يقوم على بعدين أساسين هما الإيمان والعمران؛"[1] فالأول يمثل جانب الترقي الروحي، والثاني الترقي المادي والمدني.

(١) زرمان، محمد. "وظيفة الاستخلاف في القرآن الكريم: دلالاتها وأبعادها الحضارية"، **المجلة العلمية لكلية جامعة الشارقة**، العدد: (١٦)، ١٩٩٨م، ص٢٠٥.

والآن، ما الإتقان من منظور القرآن؟ إنه كغيره من المفاهيم المركبة يصعب تعريفها بشكل محدد، لكن يمكن تبسيطه من خلال حقله الدلالي وعرض المعاني المختلفة ذات العلاقة المركبة له. إن الإتقان سنَّةٌ إلهيةٌ في الخلق والتدبير، ووصفٌ لتجربة إنسانية ممكنة بالكسب والاستثمار السليم والفعال للقدرات والملكات الفطرية المختلفة، وتطوير المهارات حسب الطاقة والحاجة، يعتمده الإنسان لجلب المنفعة الشرعية وتجنّب المشقة، وتخضع لمقاييس ذاتية وموضوعية، يحدد كيفياتها ومعانيها نظام القيم والشريعة، وله تجليات مختلفة تضرب بجذورها في أعماق النفس والجماعة والعمران.

الفصل الثاني:

أصول الإتقان النظرية

تمهيد:

يعتبر مفهوم الإتقان من الركائز الأساسية التي يقوم عليها المجتمع والحضارة الإسلامية، حيث يأمر الدين الإسلامي المسلمين بإتقان أعمالهم ويحفّزهم على ذلك باستخدام مختلف الوسائل المؤثرة كالترغيب والثناء والمكافأة. لكن أهم من ذلك كله هو تحديد وتقديم المجال النظري الكلي لهذا المفهوم وجذوره وشروطه، وسننه، وقيمه، ونماذجه المعنوية والمادية، التي تتجذّر في معنى الكون والطبيعة الإنسانية والحياة. فبدون معرفة الأصول القبلية النظرية الصحيحة للإتقان، يبقى الخوض فيه مجازفة خاسرة تؤدي إلى طغيان البعد المادي وتفشي الإسراف والترف الذي اعتبره بعضُ العلماء المسلمين أمثال ابن خلدون[1] مظهراً من مظاهر هرم العمران البشري، وعلامة نهاية دورته الحضارية.

في هذا الفصل تحاول هذه الدراسة استخراج أصول الإتقان النظرية من القرآن الكريم، وتسليط الضوء على تأثيرها في صياغة دلالات مفهوم الإتقان، وما يلزم عنه من القيم في التفكير والعمل.

أولاً: أصل مبدأ التوحيد

يشكّل توحيدُ الله تعالى أمّ الحقائق ومحور رسالة الإسلام وغايتها الأسمى، فشهادة أن لا إله إلا الله كما يصوِّرُها الفاروقي، "تحمل أعظم المعاني،

---

(١) الحضرمي، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق: عبد السلام الشدادي، الدار البيضاء: بيت الفنون والعلوم والآداب، ٢٠٠٥م، ج١، ص٣٩٤.

وأغناها في الفضاء المعرفي للإسلام كله. وقد يحدث أحياناً أن تُعبّر جملةٌ واحدةٌ عن جِماع ثقافة كاملة أو حضارة كاملة أم تاريخ كامل. وهذا بالقطع هو حال: الكلمة أو شهادة الإسلام. فكل ما يحتويه الإسلام من تنوع وثراء وثقافة وتعليم وحكمة وحضارة متضمّن في تلك العبارة بالغة الإيجاز: "لا إله إلا الله". فالتوحيدُ رؤيةٌ عامة للحقيقة، وللواقع، وللعلم، وللمكان وللزمان، ولتاريخ الإنسانية ومصيرها"[1] هذا وقد ذُكر اسمُ الجلالة "الله" تعالىٰ في القرآن الكريم في ٢٦٩٠ مناسبة، دون إدراج الألفاظ الأخرىٰ الدالة علىٰ الله تعالىٰ، كـ "الخالق" و"الرب" التي ذكرت بكثرة.

ويُعدّ علمُ التوحيد من العلوم الشريفة التي تُقَرر ما ينبغي تعليمه للمسلم منذ الصغر، وهو ما كانت تعلِّمُه المدرسة الإسلامية الأولاد في أيامهم الأولىٰ. ولأهمية العقيدة وتأثيرها في سلوك الإنسان وشؤونه كافة سمَّاه أبو حنيفة النعمان بالفقه الأكبر، وقد أُلِّفت حوله كتبٌ لا حصر لها تبين العقيدة وتشرح مباحثها للناس. وقد حدّدت قضاياها الكبرىٰ في الاعتقادات الخاصة بالإيمان بوجود الله تعالىٰ وصفاته وأسمائه وأفعاله، وحقيقة النبوة والميعاد، وغيرها من القضايا الأساسية. وقد سعت تلك المؤلفات من خلال الحجاج وإقامة البراهين إلىٰ الدفاع عن المعتقدات الإسلامية، وإبطال ما يناقضها من الزيغ والانحرافات والضلالات.

ثمَّة بُعد في علم العقيدة يحتاج إلىٰ مزيد من العناية، وهو ما يتعلق بتتبع فوائد العقائد في حياة الإنسان والعمران، وعدم الاكتفاء حصراً بجوانبه النظرية. وقد أصاب ابنُ خلدون حين أشار إلىٰ هذا الجانب بإثارة مسألة الانتقال من مجرّد

---

(١) الفاروقي، إسماعيل راجي. **التوحيد: ومضامينه في الفكر والحياة**، ترجمة: السيد عمر، القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر، ٢٠١٤م، ص٥٢.

حديث النفس إلى تشكُّل الحال والصفة في النفس، فالعقيدة ليست فلسفةً بالمفهوم التقليدي، بل حياة متعددة الأبعاد. يرى ابنُ خلدون أنّ "العلم الحاصل عن الاتصاف ضرورة، هو أوثق مبنى من العلم الحاصل قبل الاتصاف. وليس الاتصاف بحاصل عن مجرد العلم حتى يقع العمل ويتكرر مراراً غير منحصرة؛ فترسخ الملكة ويحصل الاتصاف والتحقيق، ويجيءُ العلم الثاني النافع في الآخرة. فإن العلم الأول المجرد عن الاتصاف قليل الجدوى والنفع."[1]

إنّ السير في هذا الاتجاه لا يُسبب عناءً كبيراً؛ لأن تتبع انعكاسات التوحيد العملية ليست إلا فروعاً وتفصيلات متضمنة في تلك المباحث الكبرى. فنقول: إنّ صفات الله تعالى الكمالية لا ينبغي حصر فهمها في دائرة العرض الكلامي الحجاجي، بل يوسع ذلك البيان لينتقل إلى مجال تجليات تلك الصفات في المخلوقات وعوالمها الطبيعية والإنسانية والحيوانية. فأفعال الله تعالى الواقعة على السماوات والأرض أو الكون، والتي ذكرها القرآن تفوق ستين فعلاً وشأناً ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن: ٢٩]، بدايتها "الخلق" و"التصوير"، و"الابداع" و"التنشئة"، والتي يقود تأملها وتدبرها والبحث في تجليتها وأسبابها من البواعث التي تستثير "ملكة الإتقان" وتؤسس الوعي بالإحكام في ضمير الإنسان. فقد حثّ القرآنُ الإنسان على استمرار النظر والتأمّل في خلق الله تعالى؛ أي الإنسان والمحيط والعالم، محرّضاً على تلبية الفضول الإنساني في معرفة أسرار الخلق بالسير والتحول من مكان لآخر، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت: ٢٠]. ولما كانت طبيعة الناس وتصوراتهم وعقائدهم ومللهم

(١) الحضرمي، **مقدمة ابن خلدون**، مرجع سابق، ج٥، ص٢١٦.

مختلفة، بلغ حد التحريض إلى مستوى التحدي: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ۝٤﴾ [الملك: ٣ – ٤].

والتوحيدُ يجيب عن كبرى الأسئلة التي تسكن العقل البشري مثل: لماذا خُلِق الإنسان؟ وما سِرُّ حياته ومعناها على وجه الأرض؟ وكيف ينبغي أن يزاول حياتَه؟ وما سبيل اكتساب الأخلاق وتحقيق الحياة السعيدة؟ إنّ أجوبة القرآن التفصيلية لمثل هذه الأسئلة لا تخلو من بصمات الإحسان والإتقان والحث عليهما في كل حال، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِى لِلَّتِى هِىَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ۝٩﴾ [الإسراء: ٩]، فـ"التي هي أقوم" عند المفسرين "أحسن الطرق"، وهي: أسدّها، وأعدلها وأصوبها.[1] وفي هذا السياق يصف ابن عاشور القرآن بقوله: "جاء بأسلوب من الإرشاد قويم ذي أفنان، لا يحول دونه ودون ولوجه إلى العقول حائلٌ، ولا يغادر مسلكاً إلى ناحية من نواحي الأخلاق والطبائع إلا سلكه إليها تحريضاً أو تحذيراً، بحيث لا يعدم المتدبر في معانيه اجتناء ثمار أفنانه."[2]

إنّ التوحيد يصوغ معنى حياة الإنسانية صياغة متميزة لما يحمل الإنسان من الاعتقادات والتصورات والالتزامات والقيم، ومن بين تلك الالتزامات اعتبار أخلاقيات العمل الملازمة للإتقان. فالتوحيد في نظر الفاروقي "يُلزِم الإنسان بأخلاقية للعمل، أي بأخلاقية يقاس في ظلها الاستحقاق من عدمه، بنسبة نجاح الفاعل الأخلاقي في تغيير المسار الزماني بالنسبة لنفسه ولمن حوله. لكن هذا لا ينفي أخلاقية النيّة حيث يطبق المقياس نفسه بمستوى القيم الشخصية المؤثرة على حالة وعي الفاعل الأخلاقي بمفرده. فالإسلام يتطلب أخلاقية النية،

(١) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مرجع سابق، ج١٣، ص٣٤.

(٢) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١٥، ص٤٠.

ويشترطها مسبقاً للدخول في ساحة الوفاء بمقتضيات أخلاقية العمل."[1]

ويُشبه الفعل الإنساني في نظام التوحيد البنيان الشاهق، الذي يضمن الالتزام المحكم بقوانينه الهندسية في البناء، العلو والثبات والاستقرار والإفادة العمرانية المستدامة، وبالمقابل يسبب فيها الجهل والإهمال والعشوائية إلى عدم السلامة، وربما الانهيار والإضرار. فالتوحيد يُعلِّم الإنسان خضوع أفعاله كلها للامتحان وللتقويم، فهي موضوع ابتلاء واختبار يوليان الإحسان والإحكام كل العناية اللازمة. ويتضمن الابتلاء مجموعة التدابير الاختبارية التي يستفاد منها في معرفة النضج العقلي والسلوكي، والقدرة على التصرّف وتدبير المال وسائر شؤون الحياة على وجه الرشاد والإحكام والإحسان، ولعله المعنى المستفاد من أمر الله تعالى في ابتلاء اليتامى لالتماس رشدهم ونضجهم في تدبير المال، قال الله تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْ﴾ [النساء: ٦]. وقد جعل الله تعالى من سنة الابتلاء نظاماً شاملاً لرفع الإنسان وتكوينه، وليستوي شعوره وتفكيره وأفعاله، وذلك من خلال موافقة العقيدة والعبادة والشريعة، وليعيش متناغماً مع مكوِّناته الفطرية والروحية والنفسية والذهنية والسلوكية المستقيمة، وعلى منهاج الحياة الطيبة، قال الله تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧﴾ [النحل: ٩٧]. سُئل رسولُ الله ﷺ: أي الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل؛ يبتلى الناس على قدر دينهم، فمن ثخن دينه اشتد بلاؤه، ومن ضعُف دينُه ضعُف بلاؤه، وإنّ الرجل ليصيبه البلاء حتى يمشي في الناس ما عليه خطيئة."[2] ولهذا

---

(١) الفاروقي، **التوحيد: مضامينه في الفكر والحياة**، مرجع سابق، ص٨٧.

(٢) الألباني، محمد ناصر الدين. **صحيح الترغيب والترهيب للمنذري**، بيروت: مكتبة المعارف، ط١، ١٤٢١هـ، رقم: ٣٤٠٢.

جعل الله حياة الإنسان ميدانها الحيوي "الكَبَد"؛ أي "الشدة، والمشقة، والضيق، والمعاناة، كل ذلك أو بعضه،"[1] كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ [البلد: ٤]. فالإنسان مضطرٌ إلى تحمّل مكابدة الشدائد والمشقات، وأنواع الضيق والمزعجات، وأن يكدح في كثير من أوقاته، ليحمي نفسه من المخاطر والآلام، وليجلب إليه أسباب العيش، وبعض اللّذّات، يدفعه حلو الأمل في أن يحقق لنفسه بالكدح الشديد مختلف لذات الحياة، وأنواع متاعها.[2]

لكن لا يتوقف النشاط الإنساني عند مستوى "الكَبَد"؛ أي الشدة، والنصب والعناء، بل يتعداه إلى حال "الكدح". يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ [الانشقاق: ٦]، ومعنى "الكدح" عند الزمخشري "جهد النفس في العمل والكدّ فيه حتى يؤثِّرَ فيها،"[3] ويقاربه في ذلك ابن عطية (توفي: ٥٤٢هـ) من أنّ الكدْح بالعمل بشدَّة وسرعة واجتهاد مؤثر،"[4] والإمام الرازي (توفي: ٦٠٦هـ) في قوله: "جهد الناس في العمل،"[5] والإمام الشوكاني (توفي ١٢٥٠هـ) بالسعي في الشيء بجهد من غير فرق بين أن يكون ذلك الشيء خيراً أو شرّاً.[6] وهناك أيضاً وصفٌ آخر للعمل الإنساني الذي لا ينبغي أن ينفلت من شروط الإتقان، ألا وهو

---

(١) الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، مرجع سابق، ج٣، ص١٨٢.

(٢) المرجع السابق، ج٣، ص١٨٢ وما بعدها.

(٣) الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر. **الكشاف عن حقائق غوامض التنـزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، تحقيق: عادل أحمد عبد موجود وعلي محمد معوّض، الرياض: مكتبة العبيكان، ١٩٩٨م، ج٦، ص٣٤٢.

(٤) ابن عطية، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، المرجع السابق، ج٥، ص٤٥٦-٤٥٧.

(٥) الرازي، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين. **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، بيروت: دار الفكر، ١٩٨١م، ج١١، ص٩٨.

(٦) الشوكاني، محمد بن علي بن محمد. **فتح القدير الجامع بين فنيّ الرواية والدراية من علم التفسير**، بيروت: عالم الكتاب، ط١، ٢٠٠٢م، ج٢، ص١٦٤٠.

"السعي"، يقول الله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٣٩ – ٤٢]. وتنسجم الرؤية الإسلامية التوحيدية للإنسان وإرادته وفعله مع مجموعة من المفاهيم القرآنية تصب كلها في تكريم الإنسان ورفع منزلته وشحذ مهاراته نحو مسار الإتقان في كلّ شيء. فمفاهيم السير والنظر والكدح والسعي والابتلاء مثلاً، تجعلنا نُدرك كيف يقدم التوحيد بين يدي الإنسان مصفاة أعمال في غاية الكمال والشمول والدقة، بحيث يسري مفعولها ليس على مجال الاعتقاد فحسب، بل على نشاط الإنسان وأدائه الاجتماعي والعمراني.

نخلُص من خلال هذا العرض التمهيدي إلى أنّ منظومة التوحيد توفّر المناعة الروحية والفكرية والسلوكية التي تحمي الإنسان من مختلف الآفات، وتفتح أمامه أبواب الخير والفضيلة والحكمة التي لا تغيب عنها فضيلة الإتقان، فكما قال ابن عاشور "إنّ الله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، قد أودع في فطرته قوة الفكر المصيب، فإذا نشأ على الاعتقاد المصيب ارتاض عقله بقوانين الفكر المصيب، وإذا نشأ على ضدّ ذلك سُخِّر عقله لاتِّباع طريق الخطأ في التفكير وقبول التعاليم الضالة، ثم اختراع تعاليم أخرى إلى أن تتراكم عليه الضلالات والخرافات."[1]

ثانياً: أصل الفطرة الإنسانية

انتبه علماء الإسلام إلى أهمية موضوع الفطرة، فحدَّدوا معناها وفسَّروا مبناها واستخدموها في مجالات علم الكلام، والفلسفة، والفقه، والدعوة والتعليم والتربية وغيرها. وتحوي أدبيات الرقائق الإسلامية التي تُعنى بأحوال النفس والطهارة الروحية إحالات مباشرة وغير مباشرة إلى هذا

(١) ابن عاشور، **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، مرجع سابق، ص٤٧.

المفهوم . كما تدلُّ الفطرة على "الخِلْقة" و"الهيئة"، وتحمل في طيّاتها أبعاداً متعدِّدة، مثل الدين، والسلوك، والعمل، والإدراك، والآداب.

وتتعلق التعريفات الأساسية التي عرضها القرآن بخاصيتي التسوية وحُسن التقويم، وحُسن التقويم كما يصفه ابنُ عاشور أكمله وأليق بنوع الإنسان؛ أي أحسن تقويم له، مما يقتضي أنه تقويم خاص بالإنسان لا يشاركه فيه غيره من المخلوقات، كما هو واضح في تعديل القوىٰ الظاهرة والباطنة بحيث لا تكون إحدىٰ قواه مُوقعةً له فيما يفسده ولا يعوق بعض قواه بعضه الآخر عن أداء وظيفته، فإن غيره من جنسه كان دونه في التقويم."[1] وبخصوص ذكر قوىٰ الإنسان الظاهرة والباطنة، فإن الإنسان كائنٌ بشريٌّ مركَّبٌ، ذو أبعاد متعددة، غير أن طبيعته ليست غامضة أو مجهولة، معقدة أو ناقصة مختلة كما تصوره كثيرٌ من الفلسفات الشرقية والغربية، قديماً وحديثاً. وقد عرض القرآنُ الكريم للحديث عن طبيعة النفس الإنسانية وبيان أبعادها المختلفة، فقد جمع الله تعالىٰ عجائب خلق الإنسان في القرآن في "فطرة الله". قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠].

والفطرة الإنسانية هيئةٌ شبيهةٌ بعلبة الوسائل متعددة الوظائف والخدمات، معدَّة ومهيَّأة، تشتغل وفق أنظمة نفسية وذهنية وسلوكية، لا تقلّ دقتها عن دقة ذلك العالم الطبيعي وأبعاده الكونية. فهي كما يرىٰ ابن عاشور: "النظام الذي أوجده الله تعالىٰ في كل مخلوق، والفطرة تخصّ نوع الإنسان، وما خلقه الله تعالىٰ عليه جسداً وعقلاً، فمشيُ الإنسان برجليه فطرةٌ جسديةٌ، ومحاولته أن يتناول الأشياء برجليه خلاف الفطرة الجسدية، واستنتاج

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٣٠، ص ٤٢٤.

المسببات من أسبابها والنتائج من مقدماتها فطرةٌ عقليةٌ، ومحاولة استنتاج أمر من غير سببه خلاف الفطرة العقلية، وهو المسمّى في علم الاستدلال بفساد الوضع، وجزمنا بأنّ ما نبصره من الأشياء هو حقائق ثابتة في الوجود ونفس الأمر فطرة عقلية، وإنكار السوفسطائية ثبوت المحسوسات في نفس الأمر خلاف الفطرة العقلية."[1]

ومن هنا ندرك أنّ أحد جذور الإتقان يعود إلى مقومات الإنسان الذاتية التي استودعها الله تعالى في الفطرة البشرية، وأن مجمل هذه المقومات تعبر عن الهيئة السوية التي خلق الله تعالى عليها الإنسان وسوّاه وكرَّمه بهباته الروحية والعقلية والسلوكية، وأصبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، فصبغة الله تعالى (البقرة: ١٣٨)، فالتسوية ونفخ الروح (الحجر: ٢٩)، والتقويم (التين: ٤)، والتعديل (الانفطار: ٧)، كلها صبغات الله تعالى في خلق الإنسان، وهو ما يلخَّصه القرآن الكريم في مصطلح "الفطرة".

ولتوضيح كيف ينبع الإتقان من المقومات الفطرية، فإنه ينبغي أن نتوقف قليلاً عند مهارات التفكير والفعل. ولتفسير هذه الجوانب الفطرية، استرسل علماء الكلام في مناقشة مسائل القدرة والاستطاعة، من حيث تعلُّقُها بنسبية الإنسان واعتقاده بمطلق إرادة الله تعالى ضمن مسألة القضاء والقدر. وبعد جدال طويل حول طبيعة أفعال الإنسان، انتهى المطاف بالفرق الكلامية الإسلامية إلى سقوط آرائهم وتأويلاتهم ونظرياتهم، التي أفرطت في استخدام المنهج الاحتجاجي والجدل الكلامي الذي يسعى دوماً إلى دحض حجج الخصوم ودعاواهم في بناء التصورات والاستدلال عليها في قضايا الدين والإنسان والحياة. وبسبب هذا السقوط والانتكاس الذي سبَّب

(١) المرجع السابق، ج٢١، ص٩٠.

وللأسف نتائج عكسية وخيمة في معرفة الإنسان المسلم وخدمة مجتمعه، حذَّر بعض العلماء من التسليم المطلق بمسائل التراث الكلامي أو إحياء قضاياه، والحاجة إلى قراءته قراءة نقدية، ومن هؤلاء عرفان عبد الحميد في قوله: "ينبغي الحذر الشديد عند قراءة مدوَّنات المتكلمين، وعدم التسليم بصحة ما جاء فيها، ومن غير نقد باطني جريء للنصوص؛ إذ المعلوم الثابت تاريخياً أنّ أغلب المؤلفات الكلامية دُوِّنت في عصر اتسم بالاستقطاب المذهبي الحادّ والصراعات الطائفية المقيتة، التي أنهكت قوى الأمة، وفرقت شملها وشتتت جماعتها."[1]

فقد كان الأولى بالمسلمين البحث في العمران، بوصفه المجال الحيوي لإرادة الإنسان، والبعد قدر الإمكان عن محيط السجالات المجردة التي تعزل المسلم عن واقعه الطبيعي متجاهلة معطياته العلمية وسننه ووقائعه. فالقدرة أو الاستطاعة الحيوية تمثل المصدر الإنشائي للفعل؛ والذي جمع الله تعالى فيه الشروط المادية والمعنوية التي تُحرِّكُ إرادة الإنسان تجاه تحقيق مقاصده الحياتية والعمرانية، يحدد كل منها حسب حاجته واضطراره ورغباته، وحاجات غيره كالأسرة والجماعة والأمة والإنسانية.

ولبيان دور "القدرة" الإنسانية في أداء الأمانة، ضرب الله تعالى مثلاً في القرآن، من خلال المقارنة بين "عبد مملوك" لا يقدر على شيء وحُرٍّ رزقه الله تعالى رزقاً حسناً. فالرجل الأول "لا يقدر على شيء" لأنه غير مكاتب ولا مأذون له، أما الثاني فيقدر على النفقة مما رزقه الله تعالى سرًّا وجهراً. يقول الله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا

(١) فتاح، عرفان عبد الحميد. "مناهج المتكلمين: دراسة وتقويم"، **مجلة إسلامية المعرفة**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، السنة (٢)، العدد (٨)، (١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م)، ص١٠٥.

حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [النحل: ٧٥]؛ و﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل: ٧٦]. ويدور مدلول الآيتين كما بيَّن ذلك المفسرون مثل ابن كثير وابن عطية والرازي حول مسألة العبودية؛ أي الفروق التي تفصل بين المؤمن والكافر أو كما وصفها سيد قطب بالحقيقة الكبرى أي "ليس لله مثال؛"[1] لكن ذلك لا يمنع من الاستشهاد بمضمونها لاستنباط الشروط الفطرية للفعل المتقن، والتي تضمن القدرة والنشاط الحر والفعالية في الأداء، والتي يقابلها العجز والفوضى وضعف التدبير والسلبية والاتكالية والكلالة والتخاذل والهوان والكسل والدَّين الحضاري. هذا ويمكن تحديد دور الفطرة الإنسانية في إتقان الفعل من زويا عدة، منها:

١ – الزاوية النفسية:

إنّ للأحوال النفسية من الأثر على التفكير بقدر تأثير التفكير على الفعل. ولبيان هذه العلاقة، نلجأ إلى إحدى القصص الإنسانية القديمة؛ قصة قابيل وهابيل في سورة المائدة (٢٧–٣١). فقد تنازع الأخوان حول موضوع الزواج، فقررا فصل نزاعهما عن طريق تقديم قربانيهما. وقد كان هابيل صاحبَ غنمٍ، فطلب أحسنَ شاة كانت في غنمه، بينما كان قابيل صاحبَ زرعٍ وطلب شرَّ وأردأ حنظلة. فتقبل الله تعالى من هابيل ولم يتقبل من أخيه قابيل.[2] والسبب التزام هابيل بشرط التقوى، مما حفَّزه على استيفاء لوازم الإحكام والإتقان

(١) قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، القاهرة: دار الشروق، ط٣٢، ٢٠٠٣م، ج١٤، ص٢١٨٣.

(٢) الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مرجع سابق، ج١١، ص٢٠٩.

كافّةً في تحضير قربانه. إنّ للتقوىٰ كما أشار الرازي أثراً في هابيل، وذلك من خلال أوجه ثلاثة: "جعله علىٰ خوف ووجلٍ من التقصير نفسه في تلك الطاعة، فيتقي بأقصىٰ ما يقدر عليه عن جهات التقصير، وثانياً: أن يكون في غاية الاتقاء من أن يأتي بتلك الطاعة لغرض سوىٰ طلب مرضاة الله تعالىٰ. وثالثها: أن يتّقي أن يكون لغير الله فيه شركة."[1] فالتقوىٰ هي التي تضمن تحقيق الإتقان مبعداً هابيل عن التقصير، وما قد يؤثر سلباً علىٰ نوع فعله.

عرض القرآن الكريم في مناسبات عدَّة للعلاقة العضوية بين أحوال النفس والإتقان، لكن حسبنا في هذا المبحث أن نقفَ علىٰ مثالٍ يتعلق بتحقيق الغلبة والنصر في القتال والحرب في قوله الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنفال: ٦٥ – ٦٦]. يلحظ الناظر في الآية أنها ضمت جملة من الأسماء (المؤمنون، الذين كفروا)، والأفعال (حرِّض، يُغلبون، يَفقهون، خَفَّف) والقيم (الصبر). فقد استهلّت الآية بالدعوة علىٰ التحريض، والذي يعني "المبالغة في الحثّ علىٰ الأمر"، "أن تحثّ الإنسان يعلم معه أنه حارض إن تخلف عنه."[2] نقل الرازي قول الزجاج في اشتقاقه "التحريض في اللغة، أن يحثّ الإنسان غيره علىٰ شيء حثّاً يعلم منه أنه إن تخلَّف عنه كان حرضاً، والحارض الذي قارب الهلاك."[3]

---

(١) المرجع السابق، ج١١، ص ٢١١.

(٢) ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، مج٢، ص٨٣٦، مادة: "حرض".

(٣) الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مرجع سابق، ج١٥، ص٥٠٤.

ولهذا يكون الإنسان تحت تأثير التحريض في غاية الاستعداد إلى بذل جميع طاقاته الروحية والذهنية والبدنية لأجل الإتيان بالأمر الذي حرض من أجله، وهي الحالة التي تمثّل فرصة جودة الفعل وإتقانه. لكن أضافت الآية عنصراً مهماً آخر، وهو روح الجماعة وتأثيرها في تحقيق الإتقان من خلال التعاون والتناصح والتبادل والمشاركة والتآزر، والتي تشكل أحد أسس الفلاح في الدنيا والآخرة. هذا ويحتاج الإحكام أيضاً إلى تراكم القدرات والخبرات وصقلها وتعاضدها، وتلاقح الرؤى والتصورات، وغيرها من الشروط والعوامل الأساسية التي يوفرها رصيد الجماعة.

لكن كيف يحول قوة الإيمان النشاط "العادي" إلى مراتب الإتقان كما تبينه الآية السابقة؟ تتطلب معرفة ذلك، أولاً: النظر إلى بعض الجوانب النفسية والسلوكية لهؤلاء الذين يخوضون مهمة "القتال" لحاجة هذه المهمة الشاقة إلى جملة من المواصفات النوعية، من بينها: جودة التكوين والاستعداد، وضمان القدرات الضرورية اللازمة، والتركيز على حسن التخطيط ودقته ومرونته، وجمع المعلومات المتواصلة، وتوفير الوسائل اللازمة، ودراسة الاحتمالات والسناريوهات المحتملة، واستشراف المآلات، وتهيئة الأجواء النفسية والمعنوية التي تساعد على التحكم، ورفع معنويات الجماعة. ثانياً: بذل الجهد الكافي الذي يضمن الفوز والغلبة، وهو ما لا يحدد قياساً على طرف واحد، بل يضاف إليه المجهود المقابل الذي يبذله الطرف الثاني؛ أي الخصم. ولهذا، يلزم أن يكون الجهد الذي يؤدي إلى الغلبة استباقياً تصاعدياً يزداد كمّاً وكيفاً بقدر مضاعفة جهد الخصم. ولما كان هذا شكل الاستعداد، اقتضى ذلك أن يكون طرفا المدافعة والمغالبة على أتم الاستعداد النفسي والعقلي والجسدي، مما يضمن شروط الغلبة والنصر. ويجد المتأمل في مضمون الآية أن العامل

الذي رفع مردود الفعل إلى الضعفين هما: قيمتا الإيمان والصبر الروحيتان، وهاتان القيمتان تشكلان فرقاً جوهرياً حاسماً بين الفريقين، بحيث أثمر -هذا الفرق- الفوز والظفر. ويمكن توسيع الدوائر التطبيقية لهذا المثال بخصوص الأنشطة الإنسانية المختلفة باعتبار ما تحدثه قوتا الإيمان والصبر من طاقات إضافية نوعية تحرك الإرادة نحو الإتيان بالفعل رغبة في تحقيق الثواب ورضا الله تعالى والسعادة المترتبة، وتحمُّل أنواع المشقات وتجاوز العراقيل المعنوية والمادية التي تقف أمامها بحسب الطاقة والاستطاعة المعنوية والمادية، يقول الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

إنّ الإيمان الصحيح يضع الإنسان على مسلكه الأصلي الذي خلق من أجله، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]. وهو الأمر الذي يضمن تحقيق توافق نفسي تجتمع على إثره قوى الإنسان وهمته، وتمنحه التركيز والثبات، وتستثير حوافزه، وتجعله حريصاً على الوفاء بلوازم الإتقان وشروطه. وقوة الإيمان كما تقربه إلى فعل الخير وإتيان شروطه وتبعده عمّا يقابلها من الأفعال والعادات السلبية من الاتكالية والكسل والعبثية والإهمال، والتهاون والاستسلام والتشاؤم والإحباط.

٢- الزاوية الذهنية:

كرَّم الله الإنسان وفضَّله تفضيلاً، وكرَّمه بقوة الفكر والتأمل والتعقل، فهو كما قال ابنُ خلدون: "مبدأ كماله ونهاية فضله على الكائنات وشرفه."[١] وقد زوَّد الله تعالى الإنسان بقدرات وآلات فكرية ووسائط ذهنية عديدة، لأجل سدّ حاجاته العمرانية والاستخلافية.

---

(١) الحضرمي، **مقدمة ابن خلدون**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٣٧.

يقول ابنُ القيم الجوزية: "أصل الخير والشر من قبل التفكر؛ فإن الفكر مبدأ الإرادة والطلب والزهد والترك والحُبّ والبغض. وأنفع الفكر الفكر في مصالح المعاد وفي طرق اجتلابها، وفي دفع مفاسد المعاد وفي طرق اجتنابها، فهذه أربعة أفكار هي أجل الأفكار. ويليها أربعة: فكر في مصالح الدنيا وطرق تحصيلها، وفكر في مفاسد الدنيا وطرق الاحتراز منها. فعلى هذه الأقسام الثمانية دارت أفكار العقلاء."[1]

ويؤكد القرآن الكريم تنوع وظائف التفكير ووسائله وأساليبه، فعلى سبيل الذكر وردت وظيفة التعقل باسم التعقّل، والتفكّر، والتدبّر، والتفقّه، والشعور، والتعرّف، والتوسّم، والإدراك، والتبصّر، والنظر، والاستنباط، والاعتبار، والتذكّر، والدراسة، والقراءة، والتيقّن، والتعلّم، والدراية ... وقد مدح القرآن الكريم الإنسان المفكّر بصفات مختلفة، منها: العلماء، والعالمون، والمستبصرون، وأولو الألباب، وأولو النهى، والراسخون في العلم، وأولو العلم، وأولو الأبصار. كما نعت الأعضاء الفيزيولوجية لوظيفة التعقّل والتفكير بمفاهيم متعددة منها: الحِجْر، والألباب، والأفئدة، والقلب، والنُّهى والأبصار، والبصر، والسمع. وقد استخرج الباحث محمد خازر المجالي ستّ عشرة اعتبارات منهجية في استخدام القرآن الكريم لمفهوم التفكّر منها: بداية الدعوة إلى التفكير في المرحلة المكية وهي مرحلة بناء العقيدة، عرض التفكر مقترناً بالآيات الكونية ودقائق مخلوقات الله تعالى، تعزيز التفكير بإثارة المشاهدات، على خلاف الغيبيات، فهي تتطلب من الإنسان الإيمان والتصديق بها، جعل الله تعالى الكون وآفاقه كله مجالاً للفكر والتفكير، عرض التفكير مقترناً بالأمثلة البديعية، طرح مسألة التفكير من زوايا مختلفة: صاحب الفكر،

(١) ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب. **الفوائد**، تحقيق: محمد عزيز الشمس، جدة: دار عالم الفوائد، ط١، ١٤٢٩هـ، ص٢٨٧.

والوسائل، وموضوع التفكير، مقابلة القرآن التفكير بأضداده ومعوِّقاته كالهوىٰ والتقليد، والاتباع الأعمىٰ للأكثرية، التعريف بأبنية التفكير كضرورة اعتماد الدليل والحجّة والبرهان والحق والصدق والإصلاح والمعروف، اتصال التفكير بكل قوىٰ النفس الإنسانية فلا يمكن فصله عن الملامح النفسية وأحوالها؛ كالإيمان والشعور والعاطفة، اتصال التفكير الإنساني بمجال القيم والأحكام التشريعية، تلازم التفكير وتغذيته بحرية الإرادة، فالإنسان المجبور لا يُحسن التفكير، ودعوة القرآن إلىٰ التفكّر والتنوّع في استخدام أساليبه بحسب الحاجة والمسائل التي تتعرض الإنسان في حياته.[1]

والعقل عند الغزالي من أعظم ما شرَّف الله به الإنسان وكرمه، يقول: "... فإنه ينظر في العقل كيف فيه التدبير وفنون العلم ومستمر المعرفة وبصائر الحكمة والتمييز بين النفع والضر، وهو مع القطع بوجوده لا يرىٰ له شخصاً ولا يسمع له حسّاً ولا يحس له مجلساً ولا يشم له ريحاً ولا يدرك له صورةً ولا طعماً، وهو مع ذلك آمر ومطاع زيادة وراج ومفكّر ومشاهد الغيوب ومتوهم للأمور اتسع له ما ضاق عن الأبصار ووسع له ما ضاقت عنه الأوعية يؤمن بما غيبته حجب اللهّ سبحانه مما بين سماواته وما فوقها وأرضه وما تحتها، حتىٰ كأنه شاهد أبين من رأي العين فهو موضع الحكمة ومعدن العلم كلما ازداد علماً ازداد سعة وقوة يأمر الجوارح بالتحرك فلا يكاد أن يميز بين الهمّة بالحركة، وبين التحرك بسرعة الطاعة أيهما أسبق."[2]

---

(١) انظر: (لخصتها بالتصرف):

- المجالي، محمد خازر. "مصطلح التفكر كما جاء في القرآن: دراسة موضوعية"، **مجلة الشريعة والقانون**، العدد (٢٣)، ٢٠٠٥م، ص(٢١-٩٤).

(٢) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الطوسي. **الحكمة في مخلوقات الله**، تحقيق: محمد رشيد القباني، بيروت: دار إحياء العلوم، ١٩٧٨م، ص٦٦-٦٨.

فقد أجاد علماء الإسلام دراسة جانب الإنسان العقلي، وتجلية فضله في تحصيل العلوم والمعارف، وترسيخ سلوك الإتقان في مختلف جوانب الحياة. وفي هذا السياق، وبعد تعريفه الفكر بأنه "التصرف في الصور التي ينتزعها الدماغ من المحسوسات وراء الحس وجولان الذهن فيها بالانتزاع والتركيب، يقدم ابنُ خلدون تحليلاً مفصلاً عن قوىٰ الفكر ووظائفه، فهو يرىٰ أنَّ الفكر يعني "الأفئدة" المذكورة في القرآن،[1] كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨]. كما أسند للتفكُّر الإنساني وظائف ثلاث أساسية، يتعلَّق أولُّها بـ"تعقُّل الأمور المرتبة ترتيباً طبيعياً أو وضعياً ليقصد إيقاعها بقدرته" وهو العقل التمييزي، في حين يقوم في الثانية "الفكر التجريبي"، وهو قوة "تفيد الآراء والآداب في معاملة (الإنسان) أبناء جنسه وسياستهم" وهي "أكثرها تصديقات تحصل بالتجربة شيئاً فشيئاً إلىٰ أن تتم الفائدة منها". أما الأخيرة، فتتمثل في الفكر النظري أو "عقلاً محضاً" وهي ما "تفيد العلم أو الظن بمطلوب وراء الحس لا يتعلق به عمل."[2]

أثبت العلمُ الحديث في مجالات التفكير الإنساني وظائف ديناميكية عدة "للعقل"؛ إذ تشكِّل مادةُ التفكير الإنساني موارد مختلفة منها الاعتقادات، والأخبار، والتساؤلات، والحقائق، والتأويلات، والمفاهيم، والنظريات، والمرجعيات، والتجارب، والقواعد، والمبادئ، والمثل، والنماذج، والافتراضات، والأهداف والمقاصد، واعتبار المآلات، ... تتحرك هذه وغيرها في اتجاهات ثلاثة أساسية: الفهم، والشعور، والرغبة أو بصيغة الغزالي: "العلم والحال

(١) الحضرمي، **مقدمة ابن خلدون**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٣٨.

(٢) المرجع السابق، ج٢، ص٣٣٨.

والعمل". وفي سبيل توليد التصورات والفهوم والمعارف والعلوم، يؤدي العقلُ الإنساني أدواراً عدة، حسب اختلاف المقاصد التي يسعى إليها الإنسان، ومنها: التدبّر والتأمّل، الفهم والاستيعاب، النطق والتعبير، تنظيم وترتيب المعلومات، البحث والتفتيش، التقويم، والنقد، والاستشراف، والإبداع.

وتبقى هذه الهبة الإلهية العجيبة ثمرة الفطرة التي تخدمه بشتى الطرق والوسائل، والتي من بينها أدوات التفكير وأساليبه، وقدرات شعورية أخرى تُعرِّف الإنسان وتقوده إلى تصور الإتقان ورسم سبله. وبهذا الاعتبار، تمثل الفطرة القاعدة الأساس للأعمال المُتْقنة؛ إذ يتناغم الأداء المحْكم مع نموذج الفطرة بوجه من الأوجه. فمثلاً، يعدّ التوجه إلى الكمال واتخاذ الوسائل والتدابير الممكنة كافة كالتخيل والتفكير والتصور، والعزم والإرادة والسعي الدؤوب والحرص والمتابعة من الخصائص النفسية الذاتية للفطر الإنسانية السليمة. ولهذا السبب أكَّدت الشريعةُ الإسلامية ضرورة إتقان الأهداف وجودة المقاصد، سواء باعتبار نواحي الواقعية، الشمول والتوازن أو استدامة التحسين، وهي كلها ميولاتٌ فطريةٌ وواجباتٌ دينيةٌ يستطيع الإنسان بها أن يتبصر في ملكوت الله تعالى بعد إثارة التفكير العلمي والبحث والاستقصاء..."[1] وتتمثّل هذه الخاصية أيضاً في المخزون المعرفي القَبْلي الذي تشكّله كالعقيدة والثواب والعقاب، والمنفعة، والميول الذاتية، والشعور بالمسؤولية، والتي تحفز على إحكام الأداء وإتقان الأعمال، وتؤثر في صياغة الأعمال الإنسانية بشكل عام.

لكن رغم هذه المعطيات والإمكانات، يظلُّ الفكر الإنساني عاجزاً عن بلوغ مقامات الإتقان والإحسان المنشودة، ما لم يهتدِ بالوحي الذي يزوده

---

(١) أبو العلا، ليلى محمد حسيني. **مفاهيم ورؤى في الإدارة والقيادة التربوية بين الأصالة والحداثة**، عمان: دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، ٢٠١٣م، ص٢٥٩.

بالوجهة وبالعلوم والمعارف، منها ما يتعلق بالغيب والمفاهيم الوجودية الكلية، والرؤية الكونية، وأخرىٰ بالقيم والمبادئ الحياتية والسلوكية. وعلىٰ هذا الأساس، اتصَّفَ المسلمون في غالب توجهاتهم الفكرية وتخصصاتهم العلمية بالرؤية التكاملية الإيجابية بهذه القوة؛ فلم ينجرُّوا لوحْل نظريات الشك المطلق والارتياب أو القول باختلال المدارك الحسية أو ادعاء الوهم وازدراء العقل أو فصل بعض وظائف العقل بعضها عن بعض، مما لا يزال يكرِّس أزمات حضارية حادة، تتعلق أساساً بفهم كنه الإنسان، وتفسير قواه النفسية والوجدانية والذهنية والسلوكية. هذا، وقد انصبت جهود المسلمين فيما يبدو علىٰ التأسيس الواضح لمقاربة وظيفية تكاملية مفتوحة، لكن مرتبطة بمصادر المعرفة العليا، المتمثلة في الوحي.

لكن لا يعني تعيين وظائف العقل البشري ومجالاته أبداً تحديد حركته أو تقليص نفوذه، فللفكر نوافذ كثيرة يحصل من خلالها علىٰ العلوم والمعارف والحكم أو ما اصطلح عليه بـ"الكشف" و"الإلهام" و"النور" و"الرؤىٰ"، وهي صور معرفية "لدُنية" يقذفها الله تعالىٰ في قلب الإنسان. وفي هذا السياق، نورد ما توصَّل إليه ابنُ خلدون من أنَّ نتيجةَ الفكر الإنساني وثمرته تكمن في تنظيم الأفعال والبعد عن الفساد،[1] مما يمثل عمدتا الإتقان وقاعدتاه، بحيث كلما راعىٰ التنظيم والترتيب ليستوفي مطلب الوظيفة، ويبتعد عن أعراض الفساد كان وصف ذلك الفعل بالإتقان محقّقاً.

٣- الزاوية الفيزيولوجية:

تضم هذه الزاوية قوىٰ تحريك البدن الإنساني قُدماً إلىٰ أداء أعمال جزئية وفق رؤىٰ ذهنية كلِّية. ولعل من بين الأمثلة القريبة التي تفسر وظيفة هذه

(١) الحضرمي، **مقدمة ابن خلدون**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٤١.

القوى القدرة على التكيف والتحوّل حسب الحاجة والوضع. إنّ الفطرة تتميز بالقدرة الذاتية على التكيف مع الظروف الخارجية والاستجابة لمتطلبات المحيط وتغيراته، كما تتجلّى حركتها في الأعمال غير الإرادية، مثل التكيف الفيزيولوجي الذي يؤهّل الأعضاء للتكيّف مع أساليب القيام بأدوارها الوظيفية، مثل ما يحدث خلال الانتقال إلى بيئات جغرافية ومناخية وثقافية مغايرة أو كالاستعداد الحاصل في الجسم لمقاومة الأمراض والأوبئة السائدة في البيئات الجديدة. ويحدث التكيّف وفق أعمال إرادية لموافقة متطلبات اجتماعية على أساس نفسي وذهني سلوكي، كتعلُّم الإنسان اللغات الأجنبية والمهارات والخبرات والتعوّد على أعراف جديدة والتكيّف تدريجياً معها، واكتساب الدراية المتجددة في التعامل مع أحوال العمران الطبيعي والبشري على السواء. لكن يُحدِث التكيف الإرادي تغييراً، قد يكون إيجابياً أو سلبياً؛ ذلك لأنّ الفطرة الإنسانية أبعد ما تكون عن نظام قدري وراثي مسدود، بل تتأثر وتتقوى وتضعف أيضاً، حسب أنماط التأثيرات الخارجية، وقد أشار حديث رسول ﷺ إلى هذه الخاصية حين قال: "مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ."[1]

---

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما. انظر:

- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**، تحقيق: محب الدين الخطيب، القاهرة: المكتبة السلفية، ط١، ١٤٠٠هـ، كتاب: تفسير القرآن، باب: لا تبديل لخلق الله، ج٣، ص٢٧٥، رقم الحديث (٤٧٧٥).

- القشيري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري. **صحيح مسلم**، الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦م، كتاب: القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، ج٢، ص١٢٢٦، رقم الحديث (٢٦٥٨).

خلق الله تعالى الفطرة في الصورة التي تمكِّن الإنسان من أداء محكم، متقن وحسن، ولعل أقرب مثال لذلك تعلم اللغات لدى الأطفال، فالتراكيب اللغوية مهما تعقَّدت لا تُعجِز قدرات الطفل الفطرية والمكتسبة عن إتقانها في ظرف وجيز يصعب تفسيره في سياق العوامل الاجتماعية والمادية. والتغيير الذي نعنيه هنا في سياق حديثنا عن الفطرة والإتقان لا يقصد به فقط ذلك النوع الذي يمكن تصنيفه من جملة الحتميات الخارجية التي لا يفقد الإنسان التحكم فيها والسيطرة على أسبابها أو كان تحكمه فيها محدداً، بل يضم هذا المفهوم أيضاً التغييرات الإرادية التي يُسَخِّر الإنسان لها قدراته وقواه وموارده لتحقيقها.

لا تقتصر الفطرة الإنسانية على ضمان هذه الأدوار وتعزيزها فحسب، بل تدفع الإنسان دوماً إلى مستويات أعلى من النشاط والحركة والتأثير في الذات وفي الآخرين وفي المجتمع وفي المحيط الطبيعي، وذلك من خلال ظاهرة التنافس التي ذكرها القرآن الكريم.

يستدعي الأداء المتقن بذل جهود منهجية واعية وذكية، نوعية كانت وكيفية. والأعمال المتقنة بطبيعتها مركَّبة غير بسيطة، يتمُّ إنجازها بفاعلية مع استنفاد الموارد والملكات والمهارات اللازمة. لكن تعدُّ المنافسة أحد العوامل التي تشدُّ على استدامة وازع الإتقان وتقوية دافعيته الذاتية، والذي هو في حقيقة الأمر جوٌّ نفسيٌّ وجماعيٌّ يطبع العمل الإنساني، ويستثير طاقات الفرد وقدراته ويوجهها إلى المنافسة. إنّ نظرة سريعة لموقع المنافسة في مجال العقيدة الإسلامية تُشير إلى الآثار النفسية والوجدانية والعقلية الإيجابية التي تولِّدها لدى المسلم. فقد أشار القرآنُ الكريم في مواضعَ عدّة إلى بعض خصوصيات هذا الجو التنافسي، فأطلق لفظ التنافس على أهل الخير، وسمَّاهم "المتنافسون"

كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٦]، وفي موضع آخر سمَّاهم "السابقين" كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠]، وفي آية أخرىٰ أمر تعالىٰ بالمسابقة والتنافس علىٰ الخير، قال تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

إنّ الأفق الذي وضعه القرآنُ للتنافس عرضه السماوات والأرض، فهو متصلٌ بالآخرة وكمالها (المطففين: ٢٧)؛ لأنه مهما اجتهد الإنسان المسلمُ، يبقىٰ أمامه آفاق رحبة واسعة تدعوه وتحفّزه علىٰ الاجتهاد والمثابرة والمزيد من الصبر والتضحية، وهو ما يجعل الإتقان سيولة لا تنفد إلا بموت الإنسان. هنا نلحظ مرة أخرىٰ أنّ القرآن يربط الإتقان ومسالكه بالآخرة وحياة الخلود، ويحلِّيه بقيم عُليا خالدة تتجاوز الحدود المادية الضيقة للإتقان في تصوراته المادية المعاصرة. هذا ويظل التنافس الدنيوي المادي لأجل الإتقان فيه هيناً حقيراً مقارنة مع ما يكسبه التنافس والإتقان الموجّه للحصول علىٰ نعيم الآخرة الخالد. وقد أحسن سيد قطب في هذا السياق صياغة المقارنة بين الاتجاهين المتنافسين، حين قال: "ومن عجب أنّ التنافس في أمر الآخرة يرتفع بأرواح المتنافسين جميعاً، بينما التنافس في أمر الدنيا ينحط بها جميعاً. والسعي لنعيم الآخرة يُصلِح الأرضَ ويعمرُها ويطهِّرها للجميع. والسعي لعرض الدنيا يدع الأرض مستنقعاً وبيئاً تأكل فيه الديدان بعضها البعض أو تنهش فيه الهوام والحشرات جلود الأبرار الطيبين! والتنافس في نعيم الآخرة لا يدع الأرض خراباً بلقعاً كما قد يتصور بعض المنحرفين. إنما يجعل الإسلام الدنيا مزرعة الآخرة، ويجعل القيام بخلافة الأرض بالإعمار مع الصلاح والتقوىٰ وظيفة

المؤمن الحق، ويجعل منها عبادة له تحقق غاية وجوده كما قررها الله سبحانه."[١]

ولا يكون التنافس إلا في إطار الجماعة والاجتماع الإنساني، وهو أمرٌ لا شك ضروريٌ، يقوم عليه العمران، وبدونه لا يستكمل الإنسان وجوده، وما أراد الله تعالى بهم من اعتمار الأرض واستخلافهم كما بيَّن ذلك ابنُ خلدون.[٢] والجماعة يتعدى تأثيرها مجرّد سد الحاجات المادية والاقتصادية والأمنية، التي تسمح بتداول المعرفة والخبرات الإنسانية ونموها وصقلها وثراءها في المجتمع الإنساني وفق منظومات الروابط البينية والعلاقات المختلفة في شؤون حياتهم وتعاملهم. والمحيط الجماعي هو الذي يدعم الاحتكاك والتفاعل والتخلق[٣] والتآزر من خلال توجيه نوازع الإنسان الفطرية وميوله ورغباته نحو إنجاز أعمال فردية وجماعية. إنّ الاجتماع في الإسلام مهّد إقامة الدين و"المساعدة على الحق، ابتغاء الأجر من الله تعالى."[٤]

وقد عَرَضَ الوحي مفهوم الجماعة في مناسبات عدة. فقد ذكر الفيروز آبادي أن لفظة "الجمع" وردت في القرآن على ثلاثين وجهاً باعتبار المعنى والدلالة التي تحملها.[٥] إنّ الوظيفة الأساسية التي تؤسس المعنى الحقيقي للجماعة هو التعاون على المعروف والأمر به، وجلب المصالح العامة، ودرء

---

(١) قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، ص٣٨٦٠.

(٢) الحضرمي، **مقدمة ابن خلدون**، مرجع سابق، ج١، ص٦٨.

(٣) ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب. **تهذيب الأخلاق**، دراسة وتحقيق: عماد هلالي، بيروت: منشورات الجمل، ٢٠١١م، ص٢٤٧.

(٤) منيار، محمد يحيى بلال. "مبادئ الجودة في السنة النبوية: تأصيلاً وتطبيقاً"، ندوة: صناعة التميز وتنمية المهارات في السنة النبوية، دبي، ١٣-١٥ جماد الآخر، ١٤٣٤هـ، ج٢، ص، ٣٣٩.

(٥) الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، بيروت: المكتبة العلمية، ١٩٨٤م، ج٢، ص٣٩٠.

المفاسد التي تلحق بالأفراد. ويتطلَّب القيام بهذا الأدوار توظيف قوى النفس المختلفة على درجة من الإتقان والإحكام في توظيف الملكات والمهارات، وبذل الجهد لأجل تراكم المعرفة والخبرة، والتي تنقل عبر الأجيال. ولضمان سلامة وجهة الجماعة وتعاونها وتعاضدها، سنَّ الله تعالى القيم الأخلاقية التي تؤطر المعاملات كلّها بين الناس والجماعات، وبذلك يضمن اللبنة الأولى الأساسية لعمليات الإتقان والإحكام المنشود في الجماعات الإنسانية الرشيدة. فقد خَّص القرآن الكريم ذلك في كلمة "البر"، والتي تعني "التوسع في فعل الخير إذا أُريد به ما يشمل الأفعال النفسية والأخلاق الحسنة باعتبار ما ينشأ عنهما من الأعمال. وقد قيل: إنه مشتقٌّ من البَر بالفتح، الذي هو مقابل البحر بتصور سعته."[1] يقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

هذا وتمثل الجماعة المهد الأساسي الذي يمارس في كنفه الإتقان من خلال الاحتكاك، والتواصل، والتفاعل، والتكامل، والتعاون، والنصح، والتكافل، والتنافس أو التدافع الذي يقع بين الجماعات غير المتجانسة دينياً أو ثقافياً أو حضارياً. وهي أيضاً المقياس المادي والمعنوي لتمييز الأفعال المتقنة من غيرها بتحديد أثر أفعال أفرادها ومساحة ذلك التأثير على حياتهم وعلى غيرهم من الناس. فالقيمة الحقيقية لسنَّة المسلم تكمن في مقدار ما عَمِل بها الآخرون، ففي الحديث النبوي الشريف: "من سنَّ في الإسلام سنَّةً حسنةً كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن سنَّ في الإسلام سنةً سيئةً كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً."[2]

---

(١) رضا، محمد رشيد. **تفسير المنار**، القاهرة: دار المنار، ط٢، ١٣٦٧هـ، ج٦، ص١٣٠.

(٢) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الزكاة، باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة إنها حجاب من النار، ج١، ص٤٥٢، رقم الحديث: (١٠١٧).

ثالثاً: مبدأ العالم والكون

لا ينحصر تحقيق الإتقان وتغذية ميوله في مكونات الفطرة الإنسانية فحسب، بل في أسباب أخرىٰ جعلها الله تعالىٰ دائرة معها حيث دارت. وسبب ذلك أن عالم الاستخلاف يمثل لوحات مشرقة لشعاع الإتقان، ولربما لذلك سمَّىٰ القرآن الكريم مظاهر العالم المادي بالآيات؛ لأنها تحمل رسائل مشعَّة، تؤثر باستمرار عليه عبر وسائط الحسية والذهنية. وبذلك لا يبقىٰ للإنسان الذي عطَّل قدراته الذاتية في تحري مسالك الإتقان أي عذر، فالمنبهات الخارجية الواردة من العالم الخارجي المحيط لا يمكن أبداً تجنبها أو تجاهلها.

١ - التصوير والآيات الكونية:

الإتقان ظاهرةٌ كونيةٌ محيطة بالإنسان، ملازمة له ولاصقة به؛ يشاهد آياتها فيما خلق الله تعالىٰ من حوله، ويجد تجلياتها أينما ولّىٰ وجهه. ففي مناسبات عدة، يحثُّ القرآن الكريم الإنسان علىٰ النظر ويذكِّرُه ويدعوه لتأمل تلك الآيات التي تتجلّىٰ في أبهىٰ صور الإبداع والإتقان والجمال. وأقرب آية من آيات الإتقان المادية والمعنوية، التي تطل علىٰ الإنسان هي ذاته وشخصيته؛ ولذا نجد في القرآن الكريم دعوةً خاصةً للإنسان لأن يتأمل في ذاته وأصل خلقه، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾ [الطارق: ٥]، ففي المخلوقات الكونية آياتٌ وعلاماتٌ دالة علىٰ إبداع الخالق وعظمته، وهي دلالةٌ مبنيةٌ علىٰ دقة السنن وانضباطها وشموليتها، تنفي عنها خلل الفطور والفروج، وهذه الآيات تمثل الفضاء الاحتكاكي الشامل الذي يستثير الإنسان علىٰ محاكاته في مختلف حركاته وأنشطته، وهذا الفضاء الكوني يمكن تحديد زوايا ونوافذ عدة للتأمل في مجالات الإبداع الإلهي والإتقان، ومن عينات هذه النوافذ ما يلي:

أ- التصوير الفني:

استخدم القرآن الكريم في دعوته الإنسان إلى الإيمان بالله الواحد مناهج كثيرة ووسائل متعددة تلائم اختلاف الناس وطبائعهم، ومستويات مداركهم، وتفكيرهم وأحوال أخرى تنطبع عليها الطبيعة البشرية. ومن بين هذا أساليب القرآن العديدة في كشف حقيقة حياة الإنسانية والكون الذي تسبح فيه التصوير الفني الذي يستلهم مادته الأساسية من آيات العالم الطبيعي، لينبِّه الإنسان على ضرورة الملاحظة والتفكّر في السماوات والأرض وعجائبها الكثيرة لقوة تأثيره في نفسية الإنسان. يمثل التصوير الفني حسب سيد قطب الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهذا الأسلوب يعتمد على جملة من الأدوات البيانية، يقول قطب: "فهو يعبر بالتصوير المحسة المتخلية عن المعنى الذهني، والحالة النفسية؛ وعن الحادث المحسوس؛ والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة؛ وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد؛ وإذا النموذج الإنساني شاخص حي؛ وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية."[1]

استخدم القرآنُ أسلوب التصوير الفني بكثرة لتحريك الوعي الإنساني ووضعه في مسار الإتقان والإحسان في كل ما يفكر فيه أو يقوم به، ومن أمثلة ذلك البارزة قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤]. ففي عرضه لهذه الآيات

(١) قطب، سيد. **التصوير الفني في القرآن**، القاهرة: دار الشروق، ط١٧، ٢٠٠٤م، ص٣٦.

الباهرات، يركِّزُ القرآن الكريم على إبراز زوايا عدَّة تعطي تصوره للحقيقة، إنها حياة وحركة تأثيرية هائلة. ومن بين هذه الزوايا المهمة التذكير بتعدد الوظيفة، وتقديم بعض التفاصيل عنها، ومثال ذلك بيان وظيفة الرَّواسي والجبال والأنهار (النحل: ١٥)، والرياح وتصريفها (الجاثية: ٥). ويعرض القرآن كذلك تفسيراً مركزاً على العلاقات التي تجمع الآيات الكونية وارتباط بعضها ببعض، كما هو الحال في بيان العلاقة بين الماء والحياة أو الشجر والنار أو الليل والنهار أو الشمس والقمر، وغيرها من الأمثلة الكثيرة الظاهرة، التي يدركها الإنسان العادي أو مخفية يحتاج لمعرفتها إلى اكتساب العلوم الخاصة واستخدام أدوات للوصول إليها. وقد جمع القرآن هذه العلاقات في عوالم ومراتب تكوينية نظامية كلية تشمل مقام الأمر، والخلق، والتصريف، والتسخير، قال الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣﴾ [الجاثية: ١٣].

وقد تجاوز القرآن الكريم وظيفة الوصف التصويري إلى مستوى التقدير ووضع الميزان. والتقدير من "قدَّر"، وقد وردت معاني كلمة "ق د ر" على أوجه متعددة مثل: عَرَفَ، صيَّر، قدَّر، مقدار، يضيق أو ينقص المقدار، قضي، حُكْم، وقت مقدر، هيَّأَه لما يصلح له به، قضاء مقضياً، أحْكِم، جعله على مراحل، تدبير، تعظيم، تقدير محكم، قدّر السعادة والشقاوة، والعظمة والشرف.[1] و"التقدير" في لسان العرب على وجوه من المعاني: مثل التروية، والتفكير في تسوية أَمر وتهيئته، وتقديره بعلامات يقطعه عليها، وأَن تَنْوِيَ أَمراً بِعَقْدِك، تقول: "قَدَّرْتُ أَمر كذا وكذا؛ أَي نويتُه وعَقَدْتُ عليه". ويقال: "قَدَرْتُ لأَمْرِ كذا أَقْدِرُ له، وأَقْدُرُ قَدْراً إِذا نظرت فيه ودَبَّرْتَه وقايستَه"؛ ومنه

(١) ابن منظور.، **لسان العرب**، مرجع سابق، مادة: "قدر".

قول عائشة، رضوان الله عليها: "فاقْدُرُوا قَدْرَ الجاريةِ الحديثة السِّنِّ المستهيئة للنظر"؛ أَي قَدِّرُوا وقايسوا وانظروه وافْكِرُوا فيه."[1]

وقد ورد جذر كلمة "قدر" في القرآن الكريم في مائة واثنين وثلاثين مناسبة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ٨﴾ [الرعد: ٨]. كما وردت أيضاً مفردات أخرىٰ تندرج ضمن هذه الدلالات، مثل الإحصاء، والذي يعني "العَدُّ والحِفْظ. وأَحْصَىٰ الشيءَ؛ أي أَحاطَ به"[2] كما في قول الله تعالىٰ: ﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ٢٨﴾ [الجن: ٢٨]، وقوله: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبَۢا ٢٩﴾ [النبأ: ٢٩]، و"الميزان" كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩﴾ [الرحمن: ٧ – ٩]؛ وكلمتي "الحساب"، و"فَصَّلَ" كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ١٢﴾ [الإسراء: ١٢].

والتقدير كما عرضه القرآن الكريم نظامٌ واسعٌ يضمُّ تحديد مقادير الأحقاب والأزمنة وأعمار المخلوقات والكائنات، بدءاً وامتداداً ونشأةً واستقراءً وانتهاءً، وتحديد الأمكنة وأشكالها، وتحديد القوىٰ والطاقات، إلىٰ كل شيء تدرِك العقول قابليته للتجزئة، كل جزء فيها يمثّل أصغر جزء آخر إلىٰ أصغر وحداته. فكل شيء في المخلوقات ذو أجزاء، والله تعالىٰ هو الذي يحدد مقادير هذه الأجزاء، ومقادير أفعالها وآثارها والغاية منها."[3] يرىٰ

(١) المرجع السابق، مادة: "قدر".

(٢) المرجع السابق، مادة: "حصي".

(٣) الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، مرجع سابق، ج١، ص٤٤٨.

الرازي معنى التقدير في الآية بقوله: "أنه تعالى يعلم كمية كل شيء وكيفيته على الوجه المفصل المبين، ومتى كان الأمر كذلك امتنع وقوع التغيير في تلك المعلومات، ويحتمل أن يكون المراد من العندية أنه تعالى خصَّصَ كل حادث بوقت معين وحالة معينة بمشيئته الأزلية وإرادته السرمدية."[1] ويستدعي معرفة أهمية اكتساب مهارات الإتقان إلى طرح السؤال التالي: "هل يكون الإتقان ممكن بدون استيعاب الكمي للظواهر والأنشطة الإنسانية؟" لا شك أن الجواب يكون بالنفي؛ لأنّ الطبيعة الكمية للأشياء تساعد الإنسان من خلال ما أودعه الله تعالى فيه من قدرات وطاقات نفسية وذهنية وإدراكية، لاستكشاف أوجه استخدام الموارد الطبيعية وتمييز بعضها من بعض، والاستفادة منها وفق ما تتطلبه حاجته. تأمل على سبيل المثال مستوى الإتقان الذي حققه الجهد البشري في صناعة العطور، وكيف كان سرّ ذلك كله متوقف على التركيب الكمي لمستخلصات الزهور.

وتعدُّ معرفة نظام المقادير والتقدير وإدراك وزن تأثيرها في مختلف الأنشطة من المؤثرات النفسية الإيجابية التي تصوب التفكير والسلوك الإنساني، كما تنمو معهما الرغبة في إحكام الأعمال وإتقان الصنائع كلما ازداد معها الإحساس بالبعد الكمي للأشياء. وبهذا يمكن القول: إن الذين يكرسُّون رداءةَ الأعمال يعانون هم أنفسهم من فوضى في تصور العلاقات التسخيرية الوظيفية بين الموجودات والنظام الذي يجمعها، ولعلها العلاقة الطَّردية التي تنبَّه إليها ابن عاشور (توفي: ١٩٧٣م)؛ أي حسن الاعتقاد وإتقان الأعمال، وسوء المعتقد ورداءة المنتج. قال رحمه الله تعالى بعد أن بيَّن آثار الانحراف العقدي على إتقان الأعمال: "فالاعتقاد الصحيح أن لنا كسبًا واستطاعةً بهما نجد الميل إلى الفعل

(١) الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مرجع سابق، ج١٩، ص١٥.

والانكفاف عنه، وأن وراءنا تيسيراً بالتوفيق أو الخذلان تخفّ به الأعمال الصالحة على النفس تارة وتثقل أخرى، فذلك هو أثر إرادة الله فينا، وهذا الفكر يروِّض أصحابه على الاعتداد بمقدرتهم، ويعلمهم الافتقار إلى الله في طلب التوفيق والعصمة من الخذلان، فينشأ في نفوس أهل الاعتقاد عاملان لا بد منهما في استقامة أعمال الإنسان، هما: السعي للكمال بقواه وأفعاله، وتطلب الكمال فيما يتجاوز قوته من واهب القوى ومفيض السعادة سبحانه، فيكون صاحب هذا الاعتقاد مقبلاً على دنياه، ساعياً لأخراه، متذللاً للذي سواه، ولذلك كان هذا الاعتقاد متضمناً في فاتحة الكتاب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٥ – ٦] وعندي أنّ تحريف المسلمين فيه هو الذي وَرَّطهم فيما يعسر تلافيه."[1]

لكن للأسف! إهمال المسلمين للبعد العمراني والكوني (أي الطبيعي) للسنّة العددية التي أشار إليها القرآن الكريم في دراسة وبحث معاني مفهوم التقدير أخذهم إلى الافراط في تغليب الجانب الكلامي الذي كان عاملاً في تغذية الاختلافات التي حدثت بين الفرق الإسلامية الكلامية. وتسبَّب معه في ضياع جهد كبير في إثارة مباحث طابعها فلسفي أكثر منه عقائدي في مبحث "القضاء والقدر" أو ما سمَّاه محمد عبده بـ "قواعد الجبر".[2]

أدَّى هذا التوجّه ببعض الفرق الإسلامية الكلامية انتهاج طريق غير طريق الحكمة الإلهية والبيان النبوي، وظهور تفكير سلبي اختزالي شلَّ حيوية التفكير والإبداع، وهجران منابع الحكمة ومسالك الإتقان والإحكام،

(١) ابن عاشور، **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، مرجع سابق، ص٦٧-٦٨.

(٢) عبده، محمد. **الإسلام بين العلم والمدنية**، تحقيق: طاهر الطناحي، القاهرة: دار الهلال للنشر والتوزيع، كتاب الهلال العدد (١١٤)، ١٩٦٠م، ص٢٥.

وتكريس ثقافة التوَاكُل والتكاسل والإهمال واللامبالاة والعجز والتخاذل، مما يناقض مستقيم الفطرة الإنسانية ويعطل الملكات البشرية وقدراتهم الجبارة في الإحكام والإتقان.[1] وبعبارة محمد عبده، أخطأ المسلم في فهم معنى التوكل والقدر فمال إلى الكسل، وقعد عن العمل، ووكَّل الأمر إلى الحوادث تصرفه حيث تهبّ ريحها، ويظن أنه بذلك يرضي ربه ويوافي رغائب دينه."[2] وقد سلب هذا التفسير السلبي من أتباع الفرق الكلامية الإنسان إرادتَه، وأخمدَ نشاطه بسبب القراءات الاستقطابية التجزيئية لنصوص الوحي الإلهي، وسوء إدراك العلاقة بين القدر والمقدار والقدرة، إضافة إلى تغليب الجانب الفلسفي المجرد والغامض للمسألة على جوانب العبودية والتعمير ورسالة الإنسان الاستخلافية في الأرض، كما يؤسس لذلك القرآن المجيد.

ب- نظام التسخير:

التسخير لغة "سياقة إلى الغرض المختص قهرًا،"[3] ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ٣٣﴾ [إبراهيم: ٣٣]. قال ابنُ عاشور: "والتسخير حقيقته تذليل كلّ عمل شاق أو شاغل بقهر وتخويف أو بتعليم وسياسة بدون عوض ... ويستعمل مجازاً في تصريف الشيء غير ذي الإرادة في عمل عجيب أو عظيم من شأنه أن يصعب استعماله فيه،

---

(١) راجع مثلاً ما نقله الغرناطي (توفي: ٨٥٨هـ) عن مصيبة الجراد التي اجتاحت الأندلس سنة ٨٥٠هـ، وكيف فُسرت تفسيراً عقدياً سلبياً خاطئاً، وأثر ذلك في حياة المسلم، انظر:

- الغرناطي أبو يحيى محمد بن عاصم. **جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وارتضى**، تحقيق: صلاح جرار، عمان: دار البشير للنشر والتوزيع، ١٩٨٩م، ج١، ص٢١٨-٢٢٠.

(٢) عبده، **الإسلام بين العلم والمدنية**، مرجع سابق، ص٩٩-١٠٠.

(٣) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد. **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دمشق: دار القلم، ط٤، ٢٠٠٩م، ص٤٠٢، مادة: "سخر".

بحيلة أو إلهام تصريفاً يصيره من خصائصه وشؤونه كتسخير الفلك للمخر في البحر بالريح أو بالجدف."[1] والتسخير نظامٌ كونيٌّ شاملٌ يدخله تحته الظواهر الطبيعية، وقد أشار القرآن إلى تسخير السموات والأرض كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان: ٢٠]. ويمتد التسخير كذلك إلى مجال العمران البشري في أركانه وأسسه وقيامه وانهياره ومختلف الأنشطة الإنسانية التي تشكِّل مضمونه وصورته وتاريخه، يقول الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف: ٣٢]. ويعني التسخير "التصميم" الإلهي الذي قام عليه العمران البشري والجماعات الإنسانية المختلفة، وهو كذلك المبدأ الذي مكّن الإنسان لتحقيق رسالته وأداء الأمانة والتكاليف الشرعية التي أمر بها. فالنظام يوازي نظام المناعة في جسم الإنسان وبغيره تنعدم الحياة. وللتسخير في القرآن مقاصد عديدة يمكن تلخيصها في ثلاث كلية:

- **المقصد العقائدي:**

يدلُّ نظام التسخير على قوة الربوبية؛ لأنه يطَّرد وينفي من ذهن الإنسان ورؤيته للعالم المعتقدات الفاسدة كاعتقاد في العبثية والصدفة والمادية والتطورية، ويبثُّ فيه حسًّاً إيجابياً يلتمس من خلاله قضايا وجود الصانع؛ أي الخالق، والترتيب والقصد والحكمة والتنظيم والدقة والمصلحة والاستقرار واليقين والإيمان. فقد جاءت إحالاتٌ كثيرةٌ في القرآن إلى هذا النظام مقترنة بإبراز وحدانية الخالق، وتذكير الإنسان بالنعم التي جعلها تحت تصرفه، بما في ذلك الموجودات الكونية الكبرى. وقد استعمل القرآن عدة

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٨، ص١٦٨.

أساليب لاستثارة نفسية الإنسان وجذبه لرحاب التفكر والاعتبار والإيمان.

ومن بين هذه الأساليب أسلوب الاستفهام، كما في سورة الرحمن التي ابتدأت بمسألة الاعتقاد في كون الخالق "الرحمن"، ومعلِّم "للقرآن"، وخالق "للإنسان"، وهو الذي علَّمه البيان؛ أي قوى الفهم والمنطق والتعبير، ثم انتقلت السورة مباشرة إلى شد انتباه الإنسان إلى التأمل في النعم الإلهية في خلق الشمس والقمر، النجم، والشجر، والسماء، والأرض، والفاكهة، والحب، وهي آيات كونية ساطعة، ومعروفات في حياة الإنسان. وقد ازدادت قوةُ الإثارة بالاقتران والتركيب الذي عرضت من خلاله الذي جمع بين الصور المادية والأحوال الروحية معا بذكر السجود والميزان الذي يجمع بين أفعال الإنسان وبنية الكون. هذا إضافة إلى استخدام الأسلوب الاستفهامي ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن: ١٣]، والذي تكرَّر ثلاث عشرة مرة لإحداث الوقفات الذهنية التي تقود صاحب الفطرة السلمية إلى وحدانية الله والتسليم بوجود إرادة واحدة مدبرة لكل شيء.

- المقصد العلمي:

المقصد العلمي فهمٌ مستنبطٌ من جعل مخلوقات الكون بنوعيها، الحية والجامدة، كتاباً مفتوحاً يستطيع الإنسان بفطرته وقواه الذهنية أن يُدرك طبيعتها وعلائقها الداخلية. يشعر الإنسان دوماً وكأنه يسبح في كون شاسع، ينظر إلى ذاته أنه أقل من حجم ذرة، لكن الأمل في معرفة تلك الأجزاء لا ينفك عن أمله وفكره. فالاكتشافات في نمو وازدياد في كمها ونوعها، وذلك بفضل ما جعله الله تعالى في نظام الأسباب والمسببات أو ما يصطلح عليه بالاقتران السببي المشاهد بين ظواهر الكون الطبيعي والعمران البشري باختلاف أنواعه، على سريان نظام تفاعلي حيوي دقيق ومتنوع يربط بين

الأشياء والأفعال وفق السنن الإلهية في الكون. وقد استفاض القرآن الكريم في بيان ترتيب القوانين الكونية والأحكام الشرعية والسنن العمرانية بطرق مختلفة، منها استعمال الباء واللام السببيتين والوصف المقتضي للحكم.[1]

إنّ تقدم الأسباب والمسببات للإنسان لوحات كشفية تُعينه على توجيه إرادته وصياغة أفعاله وفق صور ذهنية سليمة لنظام الأشياء الذي يعود عليه بالصلاح والثواب بعيداً عن النقاشات العريضة التي جرت بين العلماء المسلمين حول تفسير مفهومها وطبيعة العلاقة التي تكونها، ضرورية هي أم مجرد عادة.[2] إن خلق الأسباب عمودٌ من أعمدة النظام الكوني، ونافذة كبيرة أنعم الله تعالى بها على البشر للإيمان بخالقهم ولفهم العلاقات التي تنظم وجودهم بالمحيط الخارجي. ولنظام السببية تأثيرٌ عجيبٌ على تطور قدرات البشر ومهاراتهم وملكاتهم، فهو يعمل على ثلاثة أوجه: الأول منها: نفسيٌّ يضمن تحفيز الإرادة وتقوية الأمل على إنجاز الأعمال وتحقيق الحاجات، والثاني: التأثير الذهني يتمثل بتنمية الملكات والقدرات التي تحسن ربط الظواهر بعضها ببعض، وكشف تلك الروابط الخفية وفق نظم التفكير والإدراكات الحسية والاستدلالات الدقيقة التي توسع مجال الاستفادة، ونمو الخبرة وتصحيح الأخطاء وتذليل المشقّة، في حين يتمثل الثالث في التأثير السلوكي، مما يتحقق ببسط وتصريف المعرفة المكتسبة لتحسين أحوال الإنسان الحاضرة والمستقبلة.

---

(١) زيدان، عبد الكريم. **السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية**، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣م، ص٢٢.

(٢) لمعرفة نمط من هذه النقاشات. انظر:

- المرزوقي، أبو يعرب. **مفهوم السببية عند الغزالي**، تونس: دار بو سلامة للطباعة والنشر، ط١، (د. ت.).

- **المقصد العمراني:**

وهي الإشارات التي من خلالها نبّه القرآن الإنسان إلى وظائف تلك الموجودات، وحفزه على استخراج المنافع الحيوية. وفي هذا السياق يُشير القرآن إلى مجموعة من الأحكام التفصيلية الخاصة بعلاقة الإنسان بالمسخرات، مثل حق الملكية، والاستخدام والاستفادة، والمحافظة عليها، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧١ – ٧٣]. يقول ابن عطية (توفي: ٥٤٢هـ): "إنها تنبيه على أنّ النعمة في أنّ هذه الأنعام ليست بعاتية ولا مبتورة، بل تقتنى وتقرب منافعها."[١] وإذا انتفت أو ضعُفَت علاقة "التسخير" التي توفّر للناس حوائجهم، وتنظم علاقات التعاون بينهم، ظهرت أسباب الخلل والصراع المؤدي إلى خراب العمران الإنساني الذي يحقق المصالح المادية والمعنوية للإنسان، ضرورية كانت أم حاجية أو تحسينية. وأضاف الزمخشري معانيَ أخرى قائلاً: "أي خلقناها لأجلهم فملَّكناها إياهم، فهم متصرفون فيها تصرف الملاك، مختصون بالانتفاع فيها لا يزاحَمُون أو فهم لها ضابطون، قاهرون."[٢] لكن يجمع هذا الترتيب للنعم، حق التَمَلُك، ومناسبة الوضع، والملاءمة، والتذلل والانقياد، نظام إلهي تسخيري أودعه الله تعالى في العمران الطبيعي والبشري للحفاظ على المقاصد الكلية مثل مقصد الخلق، والذي يندرج في طبيعة التصميم الإلهي للكون وكل من فيه، ومقصد المحافظة والقيومية، والذي لو تعطَّل نظام التسخير لأنهار الكون وانعدمت الحياة فيه،

---

(١) ابن عطية، **المحرر الوجيز في تفسير كتاب العزيز**، مرجع سابق، ج٤، ص٤٦٣.

(٢) الزمخشري، **الكشاف عن حقائق غوامض التنـزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، مرجع سابق، ج٥، ص١٩١.

ومقصد المناسبة التي من خلالها تكون حياة الإنسان وحياة غيره من المخلوقات ممكنة، ومقصد المعرفة أو العلم، الذي يسمح للإنسان بالولوج إلى عالم قراءة وفهم طبائع المخلوقات التي تعيش حوله.[1] وقد أشار الرازي في تفسيره الآية إلى تلك المقاصد الأربعة، فقال: "وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾، إشارةٌ إلى إتمام الإنعام في خلق الأنعام، فإنه تعالى لو خلقها ولم يملِّكْها الإنسان ما كان ينتفع بها.[2] وقوله: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾، زيادة إنعام، فإن المملوك إذا كان آبياً متمرداً لا ينفع، فلو كان الإنسان يملك الأنعام وهي نادة صادة، لما تمَّ الإنعام الذي في الركوب، وإن كان يحصل الأكل كما في الحيوانات الوحشية، بل ما كان يكمل نعمة الأكل أيضاً إلا بالتعب الذي في الاصطياد، ولعلّ ذلك لا يتهيأ [إلا] للبعض وفي البعض. وقوله تعالى: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ بيانٌ لمنفعة التذليل؛ إذ لولا التذليل لما وجدت إحدى المنفعتين، وكانت الأخرى قليلة الوجود."[3]

ولم يكن التسخير العمراني أحادي الاتجاه، مقتصرا فقط على العلاقة بين الإنسان والموجودات حوله، بل شمل كذلك علاقته بأخيه الإنسان، وهو نوع من التسخير الذي يمكن تسميته بـ "التسخير البيني"، والذي أشارت إليه الآية الكريمة ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف: ٣٢]. وقد ذكرت الآية التسخير في سياق بيان طبيعة المعيشة وتوابعها من السعي

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن نظام التسخير. انظر:

- شحادة، محمد أمين. **إدارة الوقت بين التراث والمعاصرة**، الرياض: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥م، ص١٧٤- ١٩٢.

(٢) الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مرجع سابق، ج٢٦، ص١٠٦.

(٣) المرجع السابق، ج٢٦، ص ١٠٦.

والكسب مما يتفاوت فيه الناس غالباً. فالتسخير هو النظام الرباني الشامل الذي ينظِّم ذلك التفاوت، ويحول إلى بناء عمراني شامخ في قيام الأمم، باعتبار قيم التكامل والتعاون وتحقيق المصالح التي تعود على المجتمع. وهكذا يشير التسخير في العمران البشري إلى النظام المطيع الذي يحفِّزُه على تفعيل الحس الأخلاقي والتزام نظامه؛[1] أي أن يجعل الإنسان "قادراً على تغيير نفسه وأمثاله من البشر؛ أي المجتمع والطبيعة، ومحيطه، لكي يتحقق النَّسق [النظام] أو الأمر الإلهي، في نفسه كما في تلك جميعاً."[2] وسبب ذلك في نظر سيد قطب أنّ الحياة الإنسانية قائمةٌ على أساس ذلك التفاوت، يقول قطب: "التفاوت في مواهب الأفراد، والتفاوت فيما يمكن أن يؤدّيه كلُّ فرد من عمل، والتفاوت في مدى إتقان هذا العمل. وهذا التفاوت ضروري لتنوع الأدوار المطلوبة للخلافة في الأرض. ولو كان جميع الناس نُسخاً مكرورة ما أمكن أن تقوم الحياة في هذه الأرض بهذه الصورة. ولبقيت أعمال كثيرة جداً لا تجد لها مقابلاً من الكفايات ولا تجد من يقوم بها- والذي خلق الحياة وأراد لها البقاء والنمو، خلق الكفايات والاستعدادات متفاوتة تفاوت الأدوار المطلوب أداؤها."[3]

ومن تجليات التسخير الإلهي الكوني المحافظة عليه الذي يمثل جزءاً أساسياً من النظام الإلهي البديع، الذي أودعه في الكون الطبيعي والعمران البشري. فإن التأمل في أسماء الله تبرز وبجلاء أوامر الله تعالى وشأنه سبحانه في الكون، والتي يدلّ بعضُها على الخصائص التكوينية للكون، مثل خاصية

---

(١) الفاروقي، **التوحيد: مضامينه في الفكر والحياة**، مرجع سابق، ص٤٨.

(٢) الفاروقي، إسماعيل راجي. والفاروقي، لويس لمياء. **أطلس الحضارة الإسلامية**، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، الرياض: مكتبة العبيكان، ط١، ١٩٩٨م، ص١٣٣.

(٣) قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، ج٢٥، ص٣١٨٧.

الحفظ، فالله عزّ وجلّ يخلق ما يشاء ويختار ويحفظ ما يخلق؛ فهو الحافظ والقيوم على كل شيء، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ۝٥٧﴾ [هود: ٥٧]، وقال أيضاً: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝١٢﴾ [فصلت: ١٢]. والحفظ كما فسَّره الغزالي رحمه الله (توفي: ٥٠٥هـ) على وجهين اثنين: "أحدهما إدامة الموجودات على إبقائها، ويضاده الإعدام، ... والوجه الثاني، وهو أظهر المعنيين، أنّ الحفظ صيانة المتعاديات لمتضادات بعضها عن بعض ... وهذه الأسباب هي التي تحفظ الإنسان من الداخل."[(١)]

أما الشيخ السعدي فقد ذكر معنيين للحفظ الإلهي وتجلياته، "أحدهما: أنه قد حفظ على عباده ما عملوه من خير وشر، طاعة ومعصية ... والمعنى الثاني: من معنيي الحفيظ: أنه تعالى الحافظ لعباده من جميع ما يكرهون، وحفظه لخلقه نوعان عام وخاص: حفظُه لجميع المخلوقات بتيسيره لها ما يقيها ويحفظ وجودها، وتسعى إلى مصالحها بإرشاده، وهدايته العامة التي قال عنها: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: ٥٠] وفي الحديث: "احفظ الله يحفظك؛"[(٢)] أي احفظ أوامره بالامتثال ونواهيه بالاجتناب، وحدوده بعدم تعديها، يحفظك في نفسك ودينك ومالك وولدك، وفي جميع ما آتاك الله تعالى من فضله."[(٣)]

---

(١) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الطوسي. **المقصد الأسنى في شرح معاني الأسماء الحسنى**، قبرص: الجفان والجابي للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٧م، ص١١٠-١١١.

(٢) الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى. **الجامع الكبير**، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٦م، كتاب: صفة القيامة والرقائق وورع عن رسول الله ﷺ، ج٤، ص٢٨٤-٢٨٥، الحديث رقم: (٢٥١٦)، وقال: حسن صحيح.

(٣) العبيد، عبيد بن علي. "تفسير أسماء الله الحسنى للشيخ عبد الرحمن السعدي؛ جمعاً ودراسة"، **مجلة الجامعة الإسلامية**، المدينة المنورة، السنة (٣٣)، العدد (١١٢)، بتاريخ ١٤٢١هـ، ص١٨٤.

هناك علاقة متينة بين نظام الكون ومنازله وقوانينه وسلوك الإنسان، فالذي يعي مظاهر التسخير وكيفياته ويتدبرها ويعتبرها يحصل على دافعية قوية للتفكير، وهو الغذاء الأساسي للإتقان. ولعله لهذا الاعتبار، نجد القرآن يختم إشارته إلى نظام التسخير بالتحفيز على استثمار المهارات الذهنية مثل التفكُّر، في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الجاثية: ١٢]، والتعقُّل، في قوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤]، هذا إضافة إلى تغذية الأحوال الإيمانية، مثل الشكر، في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل: ١٤]، والتيقُّن، في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ [الرعد: ٢]. أما في أحوال أخرى، فإنه يستنكر مستفهماً موبِّخاً الأفاكين الذين يصرفون عنه، ممن لا يعتبر ولا يتأثر ولا يتعلم الحق بدليل النظام الكوني الإلهي البديع ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت: ٦١].

٢- مستويات الإتقان:

يختلف الناسُ في تصوّر معنى الإتقان وطبيعته باختلاف التوجهات الإنسانية الحياتية، ورؤاهم الكونية، والمعاني التي يضفونها عليها، وذلك بسبب تأثير المعتقدات الدينية، والعادات والتقاليد والثقافة، والانتماءات

الحضارية والجغرافية، مما يسهم في صياغة معنى الإتقان نفسه، والدافعية نحوه، وتشكيل صوره النهائية المثلى. ولمثل هذه الاعتبارات، ينبغي التعرض لبعض صور الإتقان وتصنيفاته، وذلك لإبراز خصوصياته في سياق الرؤية الإسلامية. ونكتفي في هذا المقام بالتطرق لتصنيف أساسي يوازي الفطرة الإنسانية في أبعادها النفسية والذهنية والسلوكية.

ولعل أهم تصور إسلامي للفعل الإنساني يستلزم أنّ قيمة الإتقان الحقيقية تبدأ أولاً في الوجدان، ذلك الجانب الإنساني الخفي، الذي يطلع عليه خالقه تعالى، ويعلم أسراره وخفاياه. وبهذا يكون الإتقان على هذا المستوى، من جنس أفعال القلب وأحوال النفس. فالنّية على سبيل المثال أحد أركان الإتقان الركينة؛ ففسادها فساد لثمرات الفعل وثوابه، ولذلك يمكن توقع كافة أنواع التناقض والخلط والتشويش كافة، التي تنتج بسبب فساد النيّة. ويشمل هذا النوع من الإتقان مراحل التفكير الإنساني كلها، وكذلك الأساليب المتبعة في استخلاص القناعات وبناء الإرادات التي تدفع دوماً نحو الحركة والفعل والعطاء، واتخاذ مختلف القرارات. فكثيراً ما يقود رداءة الأفعال وعواقبها إلى رداءة التفكير، ومن وراء التفكير الشعور النفسي وأحواله. ولهذا كان الروح الذي أودعه الله جميع شرائعه كما أشار إلى ذلك الشيخ محمد عبده في قوله: "... تصحيح الفكر، وتسديد النظر، وتأديب الأهواء، وتحديد مطامح الشهوات، والدخول إلى كلّ أمر من بابه، وطلب كل رغبة من أسبابها، وحفظ الأمانة، واستشعار الأخوة، والتعاون على البرّ، والتناصح في الخير والشرّ، وغير ذلك من أصول الفضائل، ذلك الروح هو مصدر حياة الأمم ومشرق سعادتها في الدنيا قبل الآخرة."[1]

(١) عبده، محمد. **رسالة التوحيد**، القاهرة: تحقيق: محمد عمارة، القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٤م، ص ١٥٥.

وقد بيّن القرآن الكريم في مناسبات عديدة تلك الأبعاد الروحية التي تؤهّل الإنسان للقيام بالأفعال الحسنة المتقنة، ففي سورة النمل مثلاً، يذكر القرآن العفريت الذي عرض لأداء مهمة إحضار عرش ملكة سبأ بلقيس، وهو ما يُبرز العلم بتفاصيل الأداء وحيثياته، وقوته الذاتية وثقته بعمليات الإنجاز، وسرعة المبادرة، واستجابته للأمر مع أمانته في عملية الأداء، كما ورد في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ [النمل: ٣٩]. لكن نافس هذا العرض، شخص آخر (مؤمن صديق)، مضيفاً إليه مهارة أخرىٰ، وهي العلم النمي بنمو فضيلة شكر الله والبعد عن رذيلة كفران النعمة، ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٤٠]. فكان هو الذي ظفر بالمهمة وحقّقها بنجاح.

وفي موضع آخر، في قصة موسىٰ عليه السلام مع بنات شعيب عليه السلام أو ابن أخيه علىٰ خلاف في ذلك، يبيِّن القرآن الكريم قيمة الأمانة في كمال الوظائف الكسبية والمهنية؛ إذ عَرَضَتْ إحدىٰ ابنتي شعيب علىٰ أبيها استئجار موسىٰ -عليه السلام- بعد ملاحظتها خصلت القوة والأمانة في موسىٰ أثناء عملية السقي لهما: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص: ٢٦]. يقول الزمخشري في سياق حديثه عن تعليل اختيار البنت لهاتين الخصلتين: "كلامٌ حكيمٌ جامعٌ لا يزاد عليه؛ لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان، أعني الكفاية والأمانة في القائم بأمرك، فقد فرغ بالك وتم مرادك."[1] ولقد تساءل الرازي عن مدىٰ كفاية الخصْلَتين

(١) الزمخشري، **الكشاف**، مرجع سابق، ج٤، ص٤٩٣.

لأداء العمل على أحسن وجه، فقال: "القوة والأمانة لا يكفيان في حصول المقصود ما لم ينضم إليهما الفطنة والكياسة، فلِمَ أهمل أمر الكياسة؟" لكنه استدرك وقال: "يمكن أن يقال إنها داخلة في الأمانة"، واستشهد بما قاله ابن مسعود -رضي الله عنه- في أن "أفرس الناس ثلاثةٌ: بنت شعيب وصاحب يوسف [الذي اشتراه، في قوله: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ [يوسف: ٢١]، وأبو بكر في [اختيار] عمر [كليفة]."[١]

واعتبار هذه الشروط الذاتية القبلية جزء من الإتقان يفسر عناية القرآن الكريم الخاصة بالتفكير الإنساني، وما يسبقه من الأحوال الروحية وذلك ببيان قيمة التفكير، ووسائله، وأساليبه، وطرق استخدامه ومجالاته، وكليات التفكير وقواعده الأساسية، ونماذجه الصورية والواقعية، وطرق التعلم والتعليم، وأساليب التفكير، وعلاقات التفكير بأبعاد الفطرة النفسية والذهنية والسلوكية ونظامها القيمي، وعرض نماذج التفكير السقيم، وتوظيف نظاماً تحفيزياً في غاية التوازن والمناسبة، مع بيان عواقب اهمال التفكير في الحياة الدنيوية والأخروية.

إلى جانب هذا التصور القيمي للإتقان، يعرض القرآن كذلك تصورات أخرى تعبر عن حالات الاختلال، تبث الفساد في الأرض وتدمر الفطرة والحياة الإنسانية. ولعلّ أقرب مثال توضيحي لهذه الحالة، تلك المحاورات الواردة في قصة قارون. إنّ فقدان التصور القيمي لفعل الإنسان وإتقانه مما يتأسس على الإيمان والشكر قد أفسد تفكيره (اعتقاد باطل) وسبل جمعه الثروة وتكديسها (البغي على قومه)، وطريقة التصرف فيها (الإسراف والتفاخر). وقد استحدث قارون تبريراً لرؤيته وسياسته المالية، قائمة على

(١) الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مرجع سابق، ج٢٤، ص٥٩١.

قناعة خاطئة لم يطلب لها دليلاً في نفسه، لا سيما حين ظنَّ أن الثروة والزينة التي يتمتع بها لم تكن إلا استحقاقاً لا منة، فحين تمَّ نصحه بأن لا يستعجل في إظهار "الفرح" الكاذب؛ أي إبداء مظاهر البطر والازدهاء بالدنيا والعزوف عن الآخرة، دافع عن نفسه متوهماً، بادّعاء حب الله تعالى وتأييده له بناء على النعم المادية التي سيقت إليه. غير أن قارون لم يكلِّف نفسه عناء البحث ومحاسبة الذات أو التثبت في أحواله وتصرفاته، بل استعجل إلى رفع قدر نفسه تكبراً، وابتعد بتصرفه هذا عن الفطرة السليمة والتفكير المستقيم، فجاء ردُّه كما في الآية: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]. و"العلم القاروني" غير محدد الطبيعة، ولهذا أورد المفسرون مثل الرازي، عدة أقوال، منها ما يراد به علم التوراة، وعلم الكيمياء أو وجوه المكاسب والتجارات.[١] والعندية التي نسبها إليه تدل كما أشار ابن عاشور على "تمكّنه وشهرته به،"[٢] وهو الادعاء الذي دحضه القرآن في حينه في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص: ٧٨].

وقد نبَّه قارونَ ووعظه فئة يقولون: إنهم علماء، إذ أرشدوه إلى صحيح التفكير والسلوك المتوازن، وهو ما ذكرته الآية: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: ٧٧] وهي الموعظة التي جمعت عوامل الفلاح وأساسيات الإتقان في الدنيا والآخرة؛ إذ اكّدت أن عمران الآخرة يجب أن يكون الهدف الأسمى من ابتغاء الأرزاق، وأن مراعاة شرط

---

(١) المرجع السابق، ج٢٥، ص١٨.

(٢) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢٠، ص١٨١.

الاحسان في كل ذلك واجب، مع الابتعاد عن ألوان الفساد التي تسببهما نوازع الكسل والجد معاً.

لكن لم تكن قصة قارون حالة يتيمة للتصورات الخاطئة فيما يتعلق بقيمة الفعل الإنساني، فهناك فئات أخرىٰ ذكرها القرآن، ممن كانت تتمنىٰ الوصول إلىٰ مقام قارون في جمع الثروة. فقد ذكر القرآن الكريم أنه في يوم استعراض قارون ثروته وزينته المفرطة، أبدىٰ آخرون طموحهم فيما حقَّقه بسبب نظرتهم المادية المتمثلة في "حب الدنيا ومتاعها"، وهو أساس النظرة الاختزالية للإتقان واهدار قيمة الفعل البشري، قال الله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [القصص: ٧٩]. لكن بمقابل هؤلاء جميعاً، كانت هناك فئة أخرىٰ أدركت عن حق القيمة الحقيقية للفعل الإنساني؛ إذ جمعت بين الإيمان والقيم والمنفعة المادية، وكانت بذلك صاحبة المعرفة الحقيقية المقرِّبة إلى الله تعالىٰ، وإلىٰ مقامات الصلاح والإحسان، والاحتساب والصبر، ذكرهم الله في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص: ٨٠].

وبسبب تفشّي الفلسفات المادية وأصناف مختلفة من المظالم، لا يزال الناس يعتقدون أن حساب الإتقان يكون من الوجهة المادية المحسوسة فحسب، بل إن سياسات الإدارية والتسيير المعاصرة وتقويمها للعمل، يركز أساس علىٰ المؤشرات المادية التي يمكن رصدها في نشاط الأسواق الاقتصاديات. فحسب هذه النظرة، كلما كان المردود المادي أكبر عبر عن درجة الجودة وإتقان العمل. وهذا التركيز لم يترك مجالاً كافياً للقيم الأخرىٰ التي تشكل مفهوم الإتقان بمفهومه الصحيح الذي تندرج تحته القيم الروحية

والنفسية من الفطرة الإنسانية، ومعاني نبيلة مثل التضحية، والاحتساب، والأمانة، والعفة، واستئثار المصلحة العامة، وكبح الهوى، واجتناب المفاسد، والزهد في الماديات، واعتبار قيم الدين في العمران، وغيرها مما لا يزال يعدّ من جنس المعوقات، التي تكبح الإتقان وتقتل الإبداع. ولعل أقرب مثال على هذا القول توجه كثير من البرامج التربوية والتعليمية التكوينية بشكل بارز إلى تطوير الملكات والمهارات التي تعين على الأرباح المادية المحسوسة، وتذكير الطلاب بقيمة المنجزات المادية. إنّ انفصال العلم عن الأخلاق جذّر الأزمة التي يعاني منها التعليم في وقتنا الراهن. وبهذه المناسبة، انتقد أحدُ رؤساء جامعة هارفارد وجهة هذه المؤسسة في التعليم، قائلاً:

"أصبحت أطراف أصابع جامعة هارفارد اليوم بعيدة عن التربية الأخلاقية ... وأنا محرج في أن أعترف أنها لا ترغب في القيام بذلك. فإن تقريرها العام عن استعراض سير مراجعة المناهج نص بشكل رائع على ما يلي: نحن لا نزال ندرك مسؤوليتنا لتكوين أخلاقيات المواطنين المسؤولين والقادة. ولكن معظم قواعد السلوك الأخلاقي التي يستخدمها زملاؤنا في التعليم قد أزيلت من قبل المجالس. فعلى العموم، لا يوجد توافق في الآراء بشأن ما يهم في بناء الشخصية الجيدة، بحيث نجد أن الزملاء يترددون في مساعدة الطلاب على أن يصبحوا أفضل الناس."[1]

إنه برغم الحصار الشديد الذي تمارسه الاتجاهات المادية في تنمية وإدارة الموارد الإنسانية والتسيير والشغل والتعليم، إلا أن هناك حركة إحياء وصحوة جديدة تتجه نحو استرجاع الاعتبار للملكات الناعمة، متمثلة في تحقيق

(1) Lewis, Harry R. *Excellence without a soul: does liberal education have a future?,* New York: Public Affairs, 2007, p.96-97.

التواصل الفعال، وروح الفريق، والأمانة، والثقة في النفس، وغيرها من القيم الإيجابية الحسنة الضرورية لتطوير قدرات الإنسان، ونمط حياته على العموم. لكن تبقى التحديات مطروحة في نشر القيم الخُلُقيِّة في نسختها المفصولة عن الإيمان بالله تعالى والتوحيد، وما يترتب عله من الالتزامات الأخلاقية وقواعد الاستقامة، والطهارة الروحية والنفسية، والسداد الذهني والسلوكي.

٢- نماذج الإتقان وثمرتها:

استخدم القرآن الكريم وسائط تعليمة كثيرة لتوجيه الإنسان إلى الحق والحياة الطيبة والسعادة الأخروية. ومن بين هذه الوسائط ضرب الأمثلة وإجراء المقارنات، وعرض الحالات لتقريب المعقول من المحسوس والعكس أو بتقريب أحد المحسوسين من الآخر[١] حتى يمثل المعنى في وعي السامع وقدرته، ويذلل بذلك العقبات التي يحتمل أن تقف دون استيعاب المعنى. وهو الأمر الذي نجده فيما يخص دعوة القرآن إلى مبدأ الإتقان والإحكام، بحيث لم يكتف بالتعليم "النظري" أو "التأملي" فحسب، بل تعدى إلى استخدام مسالك التقريب ببعض نماذج وحالات واقعية حية يتجلى فيها الإتقان. إنّ التنوّع المميز لهذه الأمثلة يسمح بتصنيفها على الأقل إلى ثلاث حالات بارزة، هي: الأسوة النبوية، والتجربة الإنسانية، والحصيلة الغريزية.

أ- الإتقان عند الأنبياء:

لعل أول نموذج يجب أن يتصدر العرض هو التركيز على دراسة الأسوة الحسنة، التي قدمها الأنبياء عليهم السلام في الإحكام والإتقان والإحسان، والذي لا يناهزه مثال في التبليغ وتسيس وإدارة حياة الناس المختلفة

(١) ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب. **الأمثال في القرآن**، تحقيق: سعيد محمد نمر الخطيب، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٩٨١م، ص١٧٤.

وعمرانهم. وقد سلّط القرآن الكريم الضوء على كثير من ملامح هذا النوع من الإحكام الذي نسميه بـ"الإتقان النبوي" لتمييزه من التجارب الإنسانية العادية التي تختلف عنها في شروطها الذاتية والموضوعية.

كانت البداية التي جعلت هذه النماذج في الإحكام ممكنة هو الأمر الإلهي القدري في الاصطفاء والاجتباء، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ...﴾ [الحج: ٧٥]؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣﴾ [آل عمران: ٣٣] فكان هؤلاء الرسل من أحسن المخلوقات؛ اختارهم الله لأداء أعظم أمانة حملها البشر، وهي تبليغ رسالة التوحيد. لم يقتصر الاصطفاء في الاختيار فحسب، بل امتد إلى العناية والنشأة والعصمة، والاصطناع، والتعداد كما أشار إلى ذلك القرآن في أمر موسى -عليه السلام- حين قال تعال: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ٤١﴾ [طه: ٤١] والاصطناع كما فسّره ابن عاشور يعني "صنع الشيء باعتناء... والكلام -الآية- تمثيل لهيئة الإطفاء لتبليغ الشريعة بهيئة من يصطنع شيئاً لفائدة نفسه فيصرف في غاية إتقان صنع."[1] وقد اشتركت جذور الإتقان عند الرسل في العديد من الخصال والخصائص منها: الرسالة، والحكمة، والعلم، والأمانة، والقوة، والصبر، والاحتساب. وإن التدبر لقصص الأنبياء في القرآن يطلعنا على أنّ كل هذه المميزات وغيرها تجري كجريان النهر في حياتهم الدعوية، بحيث لا تخلو لحظة من لحظات حياته من الإتيان بسمات الإتقان والإحسان على أعلى مستوياته.

تأمل مثلاً سِمات الحوار الذي قاده الأنبياء مع أقوامهم كيف كان اختيار الكلمات ودقتها وقوتها وتأثيرها في النفس والتفكير، ومراعاتها لطبائع الناس وأحوالهم. هنا يمكن أن تقارن بين حوار وجدال إبراهيم -عليه السلام- مع

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١٦، ص٢٢٣.

أبيه آزر وقومه، ونوح مع ابنه، وحوار موسىٰ مع فرعون، وكيف صاغ لقمان الحكيم وصيته الوعظية لابنه التي جمع له كل الخير، ونفّره من كل شر في بعض كلمات لا يجد المتأملون فيه حداً يقفون عنده في استخراج معاني العلم والحكمة والفضيلة والفلاح. وقد تضمنت الوصية ضمان حقوق الله، وحقوق النفسن وحقوق الناس؛ وعماد كل ذلك هو التوحيد، والعباد والمسؤولية، والصبر. (لقمان: ١٣-١٩).

إنّ نماذج الإتقان في التجربة النبوية التي أشار إليها القرآن لم تكن مقتصرة فقط علىٰ الدعوة، بل شملت كذلك أعمال حرفية، ومهام تدبير العمران وتسييس حياة الناس وحل مشكلاتهم. وهذا يأخذنا إلىٰ ذكر ثلاثة أمثله؛ أولها سفينة نوح عليه السلام التي تقف بوصفها نموذجاً معاكساً تماماً لسفينة تايتانيك (Titanic) البريطانية التي عبّر من خلالها الإنسان الغربي ببرهان علىٰ قوته الإبداعية، لكن من غير نور الهداية والرشاد، ومن غير هدف حياتي أخلاقي، بل بروح الاستعلاء والتكبر والغرور يفوح في ادعائهم الكاذب علىٰ أن سفينتهم غير قابلة للغرق، فكانت النتيجة الوقوع في الخطأ التافه، وحدوث الكارثة الكبيرة التي سجلها التاريخ في دفتره الأسود للتجارب الإنسانية الفاشلة. بينما المتأمل في عرض القرآن لواقعة بناء سفينة الإيمان والسلام والنصر التي صنعها نوح وقادها بوحي من ربه، ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ [المؤمنون: ٢٧] فسيجد نفسه في عالم للإبداع مختلف؛ يرشده الوحي. لكن مع ذلك، فالواقف أمام هذه السفينة، تنهال عليه أسئلة عديدة تخص الكيفية التي تم إنجاز هذه الوسيلة بالجودة والفعالية التي حققتها في تحقيق الهدف، وهو إنقاذ أرواح المؤمنين والحيوانات معاً من الطوفان الذي وصف القرآن حجم أمواجه بالجبال (هود: ٤٢). والأعجب من ذلك أن القرآن ذكر أن نوح لم يستخدم وسائل ووسائط

عالية التحكم تخدمه في صناعة تلك السفينة العجيبة، بل كل ما ذكره هو المواد الأولية البسيطة، التي لا تتعدى قائمتها مادتين فحسب، فقد جاء وصفها ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣﴾ [القمر: ١٣]. ولم يدرج المفسرون سفينة نوح عليه السلام في إطار المعجزات المعروفة التي ذكرها القرآن؛ لأنها تُعدّ إنجازاً في مجال الممكن بالنسبة للإنسان، فإتقان الصنعة والتصميم بالاتباع خطوات فنية عملية محددة أوحاها الله له هي التي كانت وراء هذا الإنجاز الهائل، ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٥﴾ [القمر: ١٥]. فهي آية في كل أبعادها. وهذا يدل على أنّ الإتقان يرقى بالتفكير والعمل إلى مستويات عالية تجعله يتجلّى في مظهر من مظاهر المعجزة المحققة.

أما المثال الثالث فتمثل في تجربة يوسف في إدارة محنة القحط والجفاف الذي أصاب القوم لسبع سنين. وقصة إتقانه التي سماها القرآن (أحسن القصص) بدأت بتأويل رؤية الملك كما قصها القرآن بنوع من التفصيل (يوسف: ٤٣). لم يكن الإتقان الذي أبداه يوسف عليه السلام جهداً فكرياً وعلمياً ومهارة وحنكة حسية بحتة، لكن ثمرة التكامل لصفات كمالية مركزها التوحيد الخالص الذي ظهر جلياً في حواره مع رفقائه في السجن (يوسف: ٣٧-٤٠) والأمانة والصبر والتوكل والتوبة في نفسه الكريمة. لم يتردّد يوسف من طلب الملك تولى خزائن الأرض (يوسف: ٥٥)، بعد أن عرفه بكفاءته التي لخصها في كلمتين (حفيظ عليم)، حتى ينفذ خطته، ليضع أمامهم حلاً ومخرجاً لم يعهدوه من قبل، ينقذ به العباد والمُلْك من نهاية مأساوية لا حياد عنها وفق ما ينذر به مضمون الرؤية.

نختم عرض هذه النماذج بمثال آخر يعكس تطبيقات الإتقان في تدبير الملك والقيادة في قصة سليمان -عليه السلام- وملكة بلقيس. يذكر القرآن

أن سليمان عليه السلام قد أوتي من الله الملك والعلم، وسخر بين أيديه الرياح والجن والحيوانات. وعلِّم مهارات أخرىٰ تمكنه من حسن التدبير كمعرفة لغات الطير (النمل: ١٦). وفي معرض لجزء من قصته مع ملكة بلقيس يمكن استخلاص مبادئ التدبير المحكم منها: الإيمان بالله، واعتماد شريعته، والرؤية الواضحة، والصرامة في اتخاذ القرارات، والتزام المبادئ وعدم الانحراف عنها بسبب مغريات النفس، وسيالة التقارير التي لا تتعطل وتمحيصها، والمعرفة الجيدة بأحوال "أعضاء الفريق" أو الجماعة، والتغذية الروحية والنفسية للأعضاء (ممارسة التحفيز)، واعتماد الشورىٰ، وإدارة الوقت وسرعة التنفيذ القرارات، والتفقد، وحساب التوقعات، وتوظيف خبرات الأعضاء، واعتبار المنافسة الإيجابية (السرعة في الخيرات) ونمو قدرات الأعضاء، وإتمام المهمات، وتحقيق النجاح فيها، وإعمال الشكر. لم يكن نجاح سليمان عليه السلام بسبب القوة فحسب؛ لأنّ الحرب ضدّ بلقيس لم تحدث، وإنّما كان ذلك نتيجة الترتيبات المتقنة التي التزمها النبيّ سليمان لتحقيق الهدف الذي هو ليس الاستلاء علىٰ ملك ملكة بلقيس، بل دعوتها وقومها إلىٰ توحيد الله بعدما كانوا يعبدون الشمس. وهي الرؤية التي كانت واضحة جيداً في ذهن الهدهد الذي كان استطلاعه وإحاطته لا تغطي "الجغرافية المادية" فحسب، بل كذلك "الجغرافية الروحية". وهذا يستفاد من قول الهدهد في وصف الله ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النمل: ٢٥] فالهدهد يعرف بحكم التجربة أنّ منقاره يساعده علىٰ استخراج الحب في الأرض ... لكنه لم ينسبه إلىٰ الوسيلة، بل إلىٰ خالق تلك الوسيلة الله.[١] هذا

(١) الخالدي، صلاح عبد الفتاح. **مع قصص السابقين في القرآن**، دمشق: دار القلم، ط٥، ٢٠٠٧م، ص٦٣٦.

الرصيد الإيماني كانت ثمرته رفعه لتقرير ينذر بخطر يواجهه قوم ضلوا الطريق، وعبدوا الشمس بدلاً من عبادة الله الواحد الأحد.

ب- الإتقان في التجربة الإنسانية:

لا يكتفي القرآنُ بعرض كمال الأفعال والإتقان عند الأنبياء والرسل فحسب، حتىٰ يكون ذريعة يستخدمها المتهاونون بعدم القدرة علىٰ محاكات الأنبياء والرسل في جِدّهم، بل ألحق التجربة الإنسانية العادية بفضيلة الإتقان، وذكر المعروف الذي أنجزه العبد الصالح ذو القرنين في بناء السد وحماية أرواح وممتلكات الناس كما ذكرت في سورة الكهف. لم يكن فعل ذي القرنين مجرد محاولة عفوية دعت إليها الحاجة الملحة والضرورة، بل هو تفكير وإرادة وتصميم "علمي"، ووعي يستشعر ضرورة الإتقان والإخلاص في العمل ما أدىٰ إلىٰ رفع بناء محكم أدىٰ وظيفته علىٰ أحسن وجه. فقد كانت نتيجة هذا الوعي "إبداع" طريقة عمل جديدة في تركيب المواد، وتصميم حواجز غير قابلة للاختراق.

لم يكن حذق ذي القرنين وإتقانه في تعامل مع المادة الصلبة (الجبال، والحديد والنحاس) ولكن المتأمل سيجد مجالاً آخر لا يقل أهمية وهو تدبير رأس "المال البشري" في أصعب الحالات (أزمة) وأعتىٰ العراقيل (ضعف التواصل)، وهي المؤشرات التي ذكرها القرآن حول القصة؛ فأما الأزمة فكانت الهجمات التي شنّها يأجوج ومأجوج علىٰ القوم أو أهل القرية ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الكهف: ٩٤] أما العراقيل فتتصدرها مشكلة التواصل اللغوي الطبيعي والمهني المحتاج إليه في إتمام بناء السد وفق التصميم المراد تطبيقه ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ٩٣﴾ [الكهف: ٩٣] بل يرىٰ بعضهم أنّ الصعوبات المعنوية غير منحصرة في

التواصل اللغوي، بل تتعدى إلى ضعف الرشد الذهني. وهنا يجد ذو القرنين نفسه أمام تحديات أقوى "لا لصعوبة لغتهم فحسب، بل يظهر لعدم رشدهم وقلة حيلتهم، ... يظهر أنّ القوم لم يكونوا على مبلغ من العلم، ولم يكن لهم قسط من الحصافة والحكمة، لكن القوم لم يكن ينقصهم المال."[1]

إنّ الإتقان مشروع يُساهم فيه أنواعٌ شتى من القدرات والمعارف والتجارب، وإسهاماتٌ فكرية وعقلية وروحية وأخلاقية ومادية وفنية ... مهما تعقّدت ومهما بدت بسيطة. إنّ العلم والأسباب التي أيّد الله بها ذا القرنين لم تجعله يستغني عن العون المادي البسيط في شكله الذي طلبه من القوم أن يقدموه له، وأعقبه بقوة إضافية ضرورية لإنجاز المشروع العملاق ككل ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾ [الكهف: ٩٥]، ولكنه استغنى عن الربح المادي الذي يلهف إلى تحقيقه المتقنون في عصرنا بوصفه ثمرة لقيمة الاحتساب التي سكنت قلبه السليم. هذا دليل يرد على من جعل المحفزات المادية أساس السلوك المتقن في الإنسان، بل من تعمق النظر يجد الأمر غير صحيح. فالمشاريع الكبرى التي غيرت مجرى الإنسانية كان منها الإيمان والاحتساب كما دلنا القرآن في قصص الأنبياء.

إنّ من المعاني الخالدة التي نستخرجها في هذا الحالة تداخل صفاء النفس وحذق الأيدي لدى ذي القرنين. بحيث فرغ من إنجاز السد ووقف أمامه، وهو ينظر إلى عظمته وفعاليته، ولم يتجه إلى ذاته ليرفعها بحجم عظمة إنجازه كما يفعل أغلب المهرة في وقتنا الحالي، بل تذكر رحمة الله في عباده حين سخّره وسخّر له كل الأسباب التي جعلت بناء هذا السد ممكناً كما ذكرته الآية ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ [الكهف: ٩٨] قال الإمام الطبري:

---

(١) عباس، فضل حسن. **قصص القرآن الكريم**، عمان: دار النفائس، ط٣، ٢٠١٠م، ص٧٥٢.

"فلما رأى ذو القرنين أنّ يأجوج ومأجوج لا يستطيعون أن يظهروا ما بُني من الردم، ولا يقدرون على نقبه، قال: هذا الذي بنيته وسويته حاجزاً بين هذه الأمة، ومن دون الردم -رحمة من ربي، رحم بها من دون الردم من الناس، فأعانني برحمته لهم حتى بنيته وسوّيته؛ ليكفّ بذلك غائلة هذه الأمة عنهم."[1]

تبوأ السدّ صدارة في الروايات التاريخية إلى درجة أنه أثار فضول الناس بمشاهدته. فقد نقل ابنُ كثير في تفسيره أنّ الخليفة الواثق أرسل بعضَ أمرائه ليعينوه، ففعلوا وصوروه له على أن بناءه من الحديد والنحاس "فيه باب عظيم، وعليه أقفال عظيمة، ورأوا بقية اللبن والعمل في برج هناك، وأن عنده حرساً من الملوك المتاخمة له، وأنه عال، منيف، شاهق، لا يستطاع ولا ما حوله من الجبال."[2] فكانت هذه التجربة المحكمة في بناء السد إحدى لوحات العرض التي اختارها الله ليتعرف الناس من هو ذو القرنين. وقد ذكرت الآيات المتعلقة بقصته مفاهيم مفتاحية تفسر بذور ونتائج فضيلة الإتقان التي تحلى به ذو القرنين منها: التمكين في الأرض، وسبباً (علم يتوصل به إلى المراد) والصرامة في احقاق الحق، والإحسان، والتيسير، والإيمان، والاحتساب، والشكر، والرحمة.

عمد القرآن في عدم ذكر جنود ذي القرنين وأصحابه، وتصغير صورة الحدث حتى يتحقق التركيز الذهني ويقل الالتفات والذهول عن المقاصد؛ ذلك لأنّ لكلّ كلمة تخرج من فيّ ذي القرنين حكمة يجب دراستها واعتبارها، وكل حركة وفعل يصدر منه يمثل أسوة يقتدى بها. فالإتقان أساس للحياة

---

(١) الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، مرجع سابق، ج١٥، ص٤١٢.

(٢) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر. **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي بن محمد السلامة. الرياض: دار الطيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٩٩م، ج٥، ص١٩٥.

يقوم ولو بشخص واحد، ويزداد مردوده كلما كثر التفكير وتضاعفت الأيدي. وهذا يقطع الطريق أمام الذي يعتذرون بالضعف الوهمي في العدد، يبررون فشلهم في اعتماد الإتقان بوصفه أسلوباً وثقافة في الحياة. فجاءت قصة ذي القرنين لوحةً فنيةً في غاية الإتقان تعرض رجلاً واحداً في جهة وأمة مستضعفة تستغيث في جهة والعدو من الخلف. فالمشاهِد الذي يطل على اللوحة يسأل: ما هو المصير الذي ينتظر هؤلاء المساكين؟ لكن المشهد يكون أروع عندما يبرز ذلك الرجل المؤمن الصالح المتقن الحاذق، ليقلب الكفة عجيب يجذب انتباه الإنسان، ولا يقاومه أيّ حاجز. الجبال هي الكلمة التي ويجعل النهاية لصالح المستضعفين.

ت- الإتقان في الهيئة الغريزية:

قبل أن نُنهي هذا العنصر تجدر الإشارة إلى نوع آخر من الإتقان الذي نعينه لدى الكائنات الحية الأخرى. وهذا النوع من الإتقان يتميز بقيامه على الغريزة لا على جهد التعليم والتدريب كما هول الحال عند النحل. وهو المثال الذي سماه القرآن آية؛ أي علامة لأمر مهم يقف عند ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٩]. لقد ضمَّ مثالُ النحل مفاتيح الإثارة والحث على الإتقان شديدة التأثير لمن يتأمل ويعتبر. ولتحقيق مقصد هذه الدعوة والتحضيض عرضت المسألة باستعمال مفاهيم تناسب هذا الغرض .... وبدأ بذكر خبر وفعل الوحي؛ أي "التكوين الخفي الذي أودعه الله في النحل"[1] وقد اعتاد الناس أنّ الوحي يتنزل على الرسل من البشر، ولكن عندما يتعلق الأمر بالحشرة فهذا أمر توحي إلى ذهن الإنسان مجال الاستكشاف ...؛ لأنها مناطق دائماً تُخفي أشياء، ثم جاءت كلمة "البيت" فهي كذلك تحمل مضمون التعجب؛ لأنّ كلمة

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١٤، ص٢٠٥.

"بيت" تثير أسئلةً كثيرة حول البناء والتصميم والشكل الذي يتخذه مع الحشرات التي لا تملك وسيلة اليدين المناسبة للقيام بهذه الوظيفة. أو كما قال ابن عاشور: "أول مراتب الصنع الدقيق الذي أودعه الله في النحل، فإنها تبني بيوتاً بنظام دقيق، ثم تقسم أجزاءها أقساما متساوية بأشكال مسدسة الأضلاع، بحيث لا يتخلل بينها فراغ تنساب منه الحشرات"[1] وتأتي بعدها ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾ وهي كذلك نعم لم يعرض تفاصيلها... فهي كلها وسائل بحاجة إلى الاستقراء والبحث والدراسة لمعرفة معانيها. وبعدها ذكر القرآن ثمرة هذا العمل مع إثباته لحصول التنوّع في المنتوج ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ﴾ (وهي الميزة الأولى التي يتباهى بها أصحاب الصناعات اليوم) مع وحدة الغاية ﴿شِفَآءٌ﴾ وشمولية التأثير الإيجابي على صحة الناس مع اعتبار حاجاتهم وأمزجتهم الخاصة في الاستشفاء.

قد يقول القائل: "الإتقان في الهيئة الغريزية" لا يقوم على جهد التعليم والتدريب ... إلخ، لكن ما علاقته بالإتقان الإنساني المحتاج إلى الجهد والتدريب؟ إنّ الفائدة الأساسية لهذا المثال القرآني هو العبرة، والتقاط الفكرة من خلال وسائط تعليمية مرئية، تسهل على الإنسان فهمها والاستفادة منها عملياً. فكثير من الإنجازات الإبداعية التي حققها الإنسان في وقتنا الحاضر، ليست إلا محاكات للطبيعة أو الكائنات التي تعيش فيها.

٤- الجذور النفسية والذهنية لمعوقات الإتقان:

يعرض القرآنُ الكريم نفسَه أنه كتاب هداية وشفاء، والدلالة إلى الخير والفلاح والصلاح، فهو يحذّر من الشرّ والفساد والبغي والطغيان. وفي ضوء هذه الحقيقة، يتجّه البحث عن الإتقان في القرآن إلى الاستفسار عن العوامل

(١) المرجع السابق، ج١٤، ص٢٠٦.

التي تمكّن من صنع الإتقان، وما العقبات الحائلة دونه، وما الأسباب التي تقود الإنسان إلى التلوث السلوكي وعدوى الإهمال واللامبالاة بجودة الأفعال، وهو ما يدعو لفهم الخلل الذي أصاب المسلم في أحوال النفس وأساليب التفكير والسلوك.

أ- أحوال النفس وتقلباتها:

استعملت كلمة "النفس" في القرآن لتدلّ على معانٍ عدة، منها: الروح، في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: ٤٢]، وقوة الفكر والقلب، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: ١١٦]، ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقوة الإحساس الأخلاقي والقيمي، في قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس: ٧ – ٨]، الشخصية الإنسانية أو الإنسان كوحدة كلية ، في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [البقرة: ٤٨]، وجماعة، في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾

[آل عمران: ١٦٤]. وقد ذكر القرآن النفس بثلاث أوصاف رئيسة، هي الطمأنينة (النفس المطمئنة) ، في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾ [الفجر: ٢٧]، وذلك لسكونها للحق واطمئنانها به إذا حقَّقَت قطع الخواطر والأفعال المذمومة، وعمرت دار الآخرة، والأمر بالسوء (النفس الأمارة) ، في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف: ٥٣] باعتبار "ما يأتيها من المقتضيات الطبيعية الشهوانية للانهماك في اللذات الحيوانية وعدم المبالاة بالأوامر والنواهي"، واللوم (النفس اللوامة)، في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ [القيامة: ٢] باعتبار "أخذها في الرجوع والإقلاع، فكأنَّها تلوم نفسها عن الخوض في تلك المهالك."[١] وبناء علىٰ هذه المعاني المختلفة، حاول العلماء في تعريفهم للنفس أن يجمعوا بين ثلاث اعتبارات، هي: القوة، والصورة أو الهيئة، والكمال.[٢]

يخبرنا القرآن أن النفس الإنسانية ترد عليها أحوالٌ وخواطر، منها ما هو ملهمٌ لفعل الخير، ومنها غير ذلك مما يدفع للسوء والشرّ. وهذا ما يجعل الجهل بأحوال النفس ونظامها الداخلي، وما يسبب مشقّات حياتية كبرىٰ قد تنتهي بصاحبها إلىٰ الحيرة والشقاء والعذاب. وعلىٰ هذا الأساس، يلزم البحث عن أولىٰ معوقات الإتقان النفسية الباطنية قبل الانتقال إلىٰ الدوائر الخارجية. ولبيان ذلك، نبحث في القرآن الكريم عن صور إعاقة أحوال النفس السلبية للإتقان والإحكام.

أولا يرد علىٰ النفس الإنسانية أحوال الخير الإيجابية، مثل التقوىٰ، واليقين، والتوبة، والإنابة، والتذكر، والورع، والاستقامة، والمحاسبة، والجد،

---

(١) التهانوي، **كشاف اصطلاحات الفنون**، مرجع سابق، ج٢، ص١٧١٨.

(٢) المرجع السابق، ج٢، ص١٧١٧.

والخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، والمراقبة، والاحتساب والتوكل، والشكر والرضا، والصبر، والعزم، والإرادة، والإحسان، والسكينة، والمحبة، والرضا، والطمأنينة، والهمة العالية، وهي مسالك للإتقان والإحسان تعمل باعتبار أن معنى الحياة يُنشِئُه النشاط الإنساني، وأنَّ مقصد الحياة الأسمى هو عبادة الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]. فالله لا يقبل من عمل الإنسان إلا ما كان طيِّبًا. وبالمقابل، حين تتحول النفس الإنسانية إلى مرعى الأحوال السلبية الفاسدة كالهوى، والجهل، والكفر، والشكّ، والشهوة، والعناد والمكابرة، والطغيان، والأنانية، والاستهزاء، والنفاق، والكذب، والكسل، والغفلة، والخمول، والتيه، فإنها عندئذ لا تجد لها طريقاً إلى نور الإحسان والإتقان بمفهومه الإسلامي الشامل، وموجباته في الوجدان والفكر والفعل. وسبب ذلك أنّ اضطراب النفس يؤدي لاضطراب آخر على مستوى الشعور والتفكير والفعل، وقد ضرب الله تعالى للسنّة النفسية مثلاً: رجل متشاكس فيه، وآخر سلَماً، قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر: ٢٩]. فالحالة الأولى في التشاكس يسودها الصراع والاختلاف، أما الثاني في السلم فيعمّها التوافق والائتلاف. إنّ الأحوالَ الفاسدة للنفس الإنسانية تسبب فقدان الأمن والاستقرار وإن حاولت خلق أوهام ووعود كاذبة، وسبب ذلك أن الجوانب السليمة من فطرة الإنسان لا تلبث تقاومها وأن شرع صاحبها بتنفيذ تلك الأعمال الفاسدة حتى أصبحت جزءاً من حياته.

ب- أساليب التفكير وفعاليتها:

إنّ تفكير الإنسان وسلوكه ثمرة طبيعية لما قبله من أحوال النفس، وما يخطر عليها من المشاعر والأحاسيس، بحيث كلما كانت هذه الأخيرة سليمة،

كان السلوك أقوم وأصوب. وإن كثيراً من الناس ممن يحاول عبثاً تعديل التفكير والسلوك من دون العودة إلى مراجعة مصادره الأولى في النفس، وهم بذلك لا يجنون من جهدهم إلا العناء؛ لأنّ التغيير الفعلي كما دلَّ عليه القرآنُ يبدأ أولاً من بوابة النفس، لينتقل بعدها إلى الفكر، ثم فضاءات السلوك العام. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

والتفكير أحدُ أكبر النعم والمواهب الإلهية، وملكةٌ تؤثِّر على الفعل الإنساني. إنه كلَّما كانت العناية بالتفكير وقواعده وأساليبه، كانت الرؤية أوضح والمردود أفضل، والقرارات أصوب، والفعل أحكم، وحصول المنفعة أمكن. قال ابن القيم (توفي: ٥٩٧هـ): "من أعمل فكرَه الصافي دلّه على أشرف المقامات، ونهاه عن الرضا بالنقص في كل حال."[1] ولأهميته البالغة في تحديد مسار الحياة الإنسانية أولى الإسلام كل الاهتمام لوظيفة التفكير والتفكر، كما يشهد بذلك القرآن الكريم بقوة من عدة أوجه. فقد ذكر القرآن عديداً من هذه المعوقات والموانع منها: أكنَّة (الأنعام: ٢٥)، أقْفال (محمد: ٢٤)، الوقرة (الكهف: ٥٧)، الغمرة (المؤمنون: ٦٣)، الران (المطففين: ١٤)، العسر، الجهل، الغفلة، السفاهة (البقرة: ١٣٠)، الغشاوة (البقرة: ٧)، الختم، الطغيان، الطبع (الأعراف: ١٠٠)، الكبت (المجادلة: ٥)، العمى، الإعراض، الزيغ (آل عمران: ٧)، الانصراف (التوبة: ١٢٧)، العمه، الإنكار (النحل: ٢٢)، الاقتداء الخاطئ، الشعور المعطل أو البلادة (البقرة: ٩)، اتباع الألفة الضارة (البقرة: ١٧٠)، الغيّ والظن؛ أي الاعتقاد الخاطئ (يونس: ٣٦، ٦٦)، الخرص (الأنعام: ١١٦)، الهوى، والكسل، العجلة (الإسراء: ١١)، الوهن (آل عمران: ١٣٩)، الركون (الميل

(١) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، **صيد الخاطر**، دمشق: دار القلم، ط٣، ٢٠١٢م، ص١٣٨.

الخاطئ) (هود: ١١٣)، الغرور (الانفطار: ٦)، الارتياب (التوبة: ١١٠)، الأضغان (محمد: ٢٩)، والتشتت (الحشر: ١٤).

إنّ معظم هذه المعوقات عبارة عن نوازع الشرّ تتجه أول ما تتحرك إلى إفساد المدارك القلبية. عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: "أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ."[1] إن معرفة أصناف هذه المعوقات تسهل صياغة الحلول ووسائل تجاوزها، فالحل يتطلب تحديد الوسائل المناسبة وفق تعقيدات المشكلة والعلل والعوامل التي تحدثها، وهي بمثابة المسار الطبيعي لتحقيق الإتقان واستكمال الخطوات التفصيلية الأخرى. لقد استخدم القرآن الكريم مختلف وسائل البيان والتبليغ والهداية لطرق التفكير السليم، وإبعاده عن الأنماط الفاسدة، من بينها ضرب الأمثال وتصوير مآلات الأفعال، وعقد المقارنة، والاحتجاج بالفطرة، والاستفهام، وتقديم البديل السليم، والترغيب والترهيب، وغيرها.

إنّ أُميَّةَ التفكير وهيمنة السقيم منه تسبب تشويش صور النظام والترتيب والسنن والقواعد، والمبادئ، والمعروفات المشتركة، كما أنه يضعف الدافعية والرغبة ويزهد في الأجر الأخروي، ويضعف الشعور بالمسؤولية، وتوابع الأفعال في العاجل والآجل، مما ينتج عنه غلبة الحيوانية المتمثلة في الهوى والشهوانية والأنانية، وتعطيل التفكير في الأداء الجيد. وقد أصاب ابن

---

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما. انظر:

- البخاري. **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب: الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه، ج١، ص٥٢، حديث رقم: (٢٨).
- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: البيوع، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات، ج٣، ص١٥٩٩، حديث رقم: (١٢١٩).

القيم حين وصف الخلل الذهني أو ضعف التعقل بأنه أسوأ حال من اتباع الهوىٰ؛ يقول: "إذا رأيت قليلَ العقل في أصل الوضع؛ فلا ترج خيره! فأما إنْ كان وافر العقل، لكنه يغلب عليه الهوىٰ، فارجه! وعلامة ذلك أنه يدبر أمره في جهله، فيستتر من الناس إذا أتىٰ فاحشة، ويراقب في بعض الأحوال، ويبكي عند الموعظة، ويحترم أهل الدين؛ فهذا عاقل مغلوب بالهوىٰ، فإذا انتبه بالندم، خنس شيطان الهوىٰ، وجاء ملك العقل. فأما إذا كان قليل العقل في الوضع، وعلامته ألاّ ينظر في عاقبة عاجلة ولا آجلة، ولا يستحي من الناس أن يروه علىٰ فاحشة، ولا يدبر أمر دنياه: فذاك بعيد الرجاء، وقد يندر من هؤلاء من يفلح. ويكون السبب فيه خميرةً من العقل غطّىٰ عليها الهوىٰ، ثم تكشف قليلاً ليعود، فمثلهم كمثل مصروع أفاق."[1]

وفي الختام يمكن استنتاج أن القرآن الكريم يُحمِّل الإنسان مسؤولية تزكية قدراته واستثمار إمكاناته ومواهبه، ومحاكاة سُنن الله تعالىٰ في إحسان الخلق، والاجتهاد في عمل الخير، وتحرّي الأداء المتقن. والإتقان في القرآن ميل فطري يتحول إلىٰ سلوك وصناعة عن طريق التعلّم والتدريب، وهو أيضاً خلقة إنسانية بارزة تتعلق بكل عناصر الشخصية المتكاملة. والإتقان مفهوم كلي أوسع وأشمل من أن يحصر في أطر ومقاييس المادة المختزلة الضيقة، وهو نمط حياة يتجلّىٰ في أبعاد الإنسان النفسية والذهنية والسلوكية علىٰ مستوىٰ الفرد وعلاقاته، وعلىٰ صعيد المجتمع والعمران. ولضرورته للحياة الإنسانية، استخدم القرآن أساليب عدة تحث علىٰ اعتماد الإتقان أسلوب حياة، مثل: التذكير بأن الإتقان من صفات الله تعالىٰ وكماله كما وصف نفسه تعالىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ

(١) ابن الجوزي، **صيد الخاطر**، مرجع سابق، ص٤٣٧-٤٣٨.

ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧﴾ [السجدة: ٧]. إنّ الإتقان ميل فطري وملكة مكتسبة، ينمو بقدر ممارسته في باطن الأعمال وظاهرها. واستعمل القرآن الكريم لغرس الإتقان في الإنسان أسلوب التعليم والتأديب، كما يظهر في مجال العبودية والعبادات. فالعبودية هي المقصد الأعلى للخلق، تقوم على تحري الإتقان والإحكام في أداء التكاليف. فقد جاء أمر الله تعالى بالصلاة باستعمال فعل "أقيموا"، وهو ما يستلزم استيفاء الشروط والتزام الأحوال واتباع خطوات الأداء. وفي المقابل وبّخ الله تعالى المنافقين، وردّ صلاتهم وصدقاتهم الخالية من الإحسان والنضج الروحي والسلوكي، ومن الإخلاص والآداب الضرورية، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ۝٥٤﴾ [التوبة: ٥٤]. إنّ كلّ المناسك والتكاليف التعبدية الإسلامية يستلزم أداؤها تحرّي حدٍّ معين من حدود الإتقان. ودعماً لهذا المسلك، عرض القرآن نماذج أسوة مختلفة للإتقان، عند الأنبياء، وفي التجربة الإنسانية، والغريزة الحيوانية. كما يعُدّ القرآن الكريم الإخلال بالإتقان عائقاً محبطاً للعمل، ومسقطاً له في الفساد الروحي والسلوكي والأخلاقي. إنّ مفاسد إهمال تحري الإتقان لا تنعكس على الأفراد فحسب، بل تعمّ الجماعة والعمران.

الفصل الثالث:

مفهوم الإتقان عند العلماء والمفكرين

تمهيد:

أدرك المسلمون الأوائل الرسائل التي يوجّهها الوحي (القرآن والسنة النبوية) في بيان أهمية الإتقان للحياة الإنسان. كما استوعبوا أيضاً أنّ الإتقان من المبادئ الأساسية والمستلزمات البدهية اللازمة في تحقيق إنجازاتهم العلمية الرائدة في سياق الحضارة الإسلامية. وهو الأمر الذي دفعهم إلى تتبع ظاهرة الإتقان وأشكاله ومقاييسه في مختلف المجالات، والتعريف به في مستوى الإمكان المعنوي والمادي. وبالرغم من إسهاماتهم في هذا الباب، فإنه يمكن رصد النقص الشديد في المؤلفات الخاصة بموضوع الإتقان، وقد يكون سببه الانشغال الكبير بالممارسة العملية للإتقان بدلاً من الخوض النظري فيه، والاكتفاء بالتطرق إلى مسألة الإتقان في سياقاتها الجزئية حسب متطلبات علوم التخصص، سواء ما تعلق منها بالعلوم النقلية أو علوم العمران البشري أو العلوم الطبيعية.

لا شك أنّ ندرة التصانيف المستقلة بموضوع الإتقان، سواء كان عند المتقدمين أو المتأخرين، قد ترتبت عنه بعض الإشكالات، لا سيما فيما يتعلق بجمع المادة العلمية وبناء الأطر النظرية الكلية للمفهوم. وفي الوقت نفسه، يستدعي غنى التراث الفكري الإسلامي بالموضوع كل الانتباه والدراسة. فالإتقان عند المسلم سجية فطرية، واعتقاد ديني، وأسلوب حياة مكتسب، وتجربة عمرانية قامت عليها حضارة إسلامية عالمية شهد لها التاريخ العالمي بالقوة والريادة التميز. ولهذا لم يكن اهتمام علماء الإسلام بالإتقان مجرد نقلٍ لروايات وأخبار وتجارب غيرهم من الحضارات والإنجازات النوعية، بل جسّد أسلوب حياة ومنهج بحث في الحقائق والأشياء، واعتقاداً دينياً راسخاً،

ورؤية في التفكير والسلوك، وتوظيفاً للملكات وتنمية للمهارات. فقد نظروا إلى الإتقان بوصفه شرطاً عضوياً في بناء الجماعة والأمة على السواء، وقد دفعتهم رؤيتهم تلك إلى البحث في العناصر التكوينية للطبيعة الإنسانية والفطرية، لتعزيز دوافع الإتقان واستدامة ثقافته، كما استوعبوا مثلاً حقائق النعم النفسية والذهنية والإدراكية التي أودعها الله تعالى في الفطرة، كما هو جلي في أدبيات التصوف الإسلامي والرقائق التي أفاضت في الحديث عن النفس البشرية وكيمياء سعادتها ودافعيتها.[1]

أولاً: اهتمام العلماء بمسألة الإتقان

لم يأخذ البحث في موضوع "الإتقان" منحاه العلمي المعرفي المستقل إلا مع تطور التفرعات الكثيرة للعلوم والفنون الخاصة بالإنسان والعمران. ولهذا، يكون البحث في التراث الإسلامي عن المؤلفات مستقلة للإتقان في المراحل المبكرة مضيعة للوقت والجهد. غير أن هذا لا يعني أنّ علماء الإسلام قد غابت عنهم حقائق الإتقان وموقعها في تشكيل الفكر والسلوك وأسلوب الحضارة، والسبب في ذلك أنّ تشكيل الوعي الإسلامي العام بأهمية الإتقان يعود إلى الوحي والهدي النبوي، وما يشع من السيرة النيرة ومنهج الدعوة والأداء، وبناء العلاقات الإنسانية وتشكيل المجتمع والدولة، والذي ألهم المادة الخام للتشكيل النظري الأصيل والتجربة العملية الضافية للإتقان، والذي استلهمه المسلمون في بناء حضارتهم العمرانية الرشيدة.

---

(١) ألَّف العلماء المسلمون كثيراً من الكتب في دراسة النفس البشرية ورياضتها، ومعاينة مشكلاتها. انظر على سبيل المثال: "أدب النفس" للحكيم الترمذي (توفي: ٣٢٠هـ)، "أدب الدنيا والدين" للماوردي (توفي: ٤٥٠هـ)، "إحياء علوم الدين" للغزالي (توفي: ٥٠٥هـ)، "منهاج القاصدين" لابن قدامة المقدسي (توفي: ٦٢٠هـ)، "فصل في تزكية النفس" لابن تيمية (توفي: ٧٢٨هـ)، ... ومؤلفات أخرى كثيرة خاصة عند العلماء التصوف.

ومن ملامح ومؤشرات ذلك الوعي استعمال بعض علماء المسلمين كلمة "الإتقان" لتمييز إنجازاتهم العلمية، كما ضمَّن تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي (توفي: ٨٣٢هـ) مثلاً كلمة "الإتقان" في عنوان كتابه الموسوم بـ"الإتقان والإحكام في شرح تحفة الحكَّام"، وجلال الدين السيوطي (توفي: ٩١١هـ) في كتابه المشهور "الإتقان في علوم القرآن"، وطاهر الجزائري (توفي: ١٣٣٨هـ) في كتابه "التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريق الإتقان". كما استخدم علماء الإسلام أيضاً كلمة "الإحكام" دلالة على الإتقان، كما هو الحال مع كتاب أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي (توفي: ٤٧٤هـ) الموسوم بـ"إحكام الفصول في أحكام الأصول"، و"الإحكام لبيان ما في القرآن من الإبهام" لشهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (توفي: ٨٥٢هـ)"، والعنوان المشترك "الإحكام في أصول الأحكام" بين علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (توفي: ٤٥٦هـ) وعلي بن محمد الآمدي (توفي: ٦٣١هـ). وقد بيَّن ابن حزم قصده من الإحكام بقوله: "وجعلنا هذا الكتاب بتأييد خالقنا عزّ وجلّ لنا، مستوعباً للحكم فيما اختلف فيه الناس من أصول الأحكام في الديانة... مستوفي، مستقصي، محذوف الفضول، محكم الفصول."[1]

ويبدو أنّ "الإتقان" من المصطلحات العلمية المفضَّلة الاستخدام لدى علماء الإسلام؛ غير أنه أكثر رواجاً عند المحدثين، لا سيما في مجالات بيان كفاءة الرواة ودرجة أدائهم العلمي؛ إذ كانوا يسمُّون من استوفى هذ الشرط من الرواة بـأهل الإتقان، تليها صفاتٌ أخرى مثل الثقات والأثبات. يدعم مثل هذا الاستعمال الحديثي تعريفُ الجرجاني للإتقان: "الإتقان معرفة الأدلة بعللها، وضبط القواعد

(١) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي. **الإحكام في أصول الأحكام**، تحقيق: الشيخ أحمد محمد شاكر، بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٣م، ص٨.

الكلية بجزئياتها [...] الإتقان معرفة الشيء بيقين."[1]

وقد كان تحرّي الإتقان أيضاً مقياس اعتبار في دوائر علمية استكشافية للعالم الطبيعي أو العمران البشري، مما يستلزم حسن القيام بالوظائف والحرف وجودة الخدمات. ففي تاريخ الحضارة الإسلامية مثلاً، شملت وظيفة الحسبة قيم الإتقان من خلال متابعة معاييره ومقاييسه، ووصله جوانبه الإدارية التنفيذية بأسسها الثقافية الدينية. وقد اجتهد العلماء في تأصيل الأحكام والترتيبات الوظيفية لهذه الخطة، وضبط حدودها ومعاييرها وشروطها من خلال مؤلفات الحسبة واجباتها وآدابها الأخلاقية، والتي سعت في مجملها لتنزيل الهداية القرآنية في إتقان الأعمال على مختلف الوظائف والأعمال والمهن والحرف والخدمات.[2] غير أنّ هناك من المؤلفات ما يبدو على عنوانه أنه أقرب إلى فقه الأحكام منه إلى الحسبة والسياسة الشرعية، كما هو الحال مع كتاب "أحكام السوق" ليحي بن عمر الأندلسي (توفي: ٢٨٩هـ)،[3] و"الإعلان بأحكام البنيان" لابن الرامي البناء (توفي: ١٣٣٤هـ).[4] تتضمن مثل هذه الكتب قواعد الإحكام والإتقان وضوابط إحسان الصنائع والوظائف والمعاملات الإنسانية، إضافة إلى كونها مدونات شاهدةً على أحوال

---

(١) الشريف الجرجاني، علي بن محمد بن علي الحسيني. **كتاب التعريفات**، بيروت: مكتبة لبنان، طبعة جديدة، ١٩٨٥م، ص٧.

(٢) انظر على سبيل المثال: علي بن محمد بن حبيب الماوردي (توفي: ٤٥٠هـ)، في "الرتبة في طلب الحسبة"، و"الأحكام السلطانية والولاية الدينية". وأبو حامد محمد بن محمد الغزالي (توفي: ٥٠٥هـ)، في "إحياء علوم الدين". وعبد الرحمن بن نصر الشيزري (توفي: ٥٨٩هـ)، في "نهاية الرتبة في طلب الحسبة". ومحمد بن محمد الأخوة (توفي: ٧٢٩هـ)، في "معالم القربة في أحكام الحسبة".

(٣) الكناني، يحيى بن عمر بن يوسف. **أحكام السوق**، تحقيق: محمود علي مكي، مدريد: صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، المجلد (٤)، العدد: (١+٢)، ١٩٥٦م.

(٤) اللخمي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم. **الإعلان بأحكام البنيان**، تحقيق ودراسة: فريد بن سليمان. تونس: مركز النشر الجامعي، ١٩٩٩م.

الناس الدينية والسوسيولوجيا، لا سيما في كيفية أداء الأعمال ومدى الالتزام الديني، وتجسيد قيم الإتقان وحسن الأداء، ففي كتاب "أحكام السوق" مثلاً، يذكر المؤلف المسألة التالية: "رجلٌ اشترى خبزةً فكسرها، وحين أكل منها لقمة وجد فيها حجرًا"، فأفتى بتطبيق قواعد الإتقان المتعلقة بتحضير الخبز، ومنها إلزام صاحب الفرن غربلة القمح الذي يطحن منه.[١]

وفي السياق نفسه، يُحَدِّثنا ابن الرامي البنَّاء في معرض حديثه في كتابه "الإعلان بأحكام البنيان" عن عرض مجموعة واسعة عن تفاصيل عصره، لما ينبغي أن تقوم عليه أحكام البنيان، فيقول: "فإنَّ هذا الكتاب جمعتُ فيه مسائل الأبنية في الجدار، ونفي [الضرر]، والغروس والأرحية، من أمَّهات الدواوين وكتب المؤرخين، ونوازل القضاة ومسائل المفتين."[٢] أما مؤلفات "أحكام المعلِّمين والمتعلِّمين" لأبي محمد بن أبي زيد القيرواني (توفي: ٣٨٦هـ) و"الرسالة المفصَّلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين"[٣] لأبي الحسن علي القابسي (توفي: ٤٠٤هـ)، و"القانون في أحكام العلم والعالم والمتعلم" لنور الدين أبي سعيد بن مسعود بن محمد اليوسي المغربي (توفي: ١١٠٢هـ)، و"بلوغ أقصى المرام في شرف العلم وما يتعلق به من الأحكام" لأبي عبد الله الطرنباطي الفاسي (توفي: ١٢١٤هـ)، هذه الكتب وغيرها تتجه إلى معالجة أساليب الإحكام ووسائله في السياقات العلمية المعرفية والتربوية والتعليمية. فقد ذكر القنوجي (توفي: ١٣٠٧هـ) مثلاً في موسوعته العلمية

---

(١) الكناني، **أحكام السوق**، مرجع سابق، ص١١١.

(٢) اللخمي، **الإعلان بأحكام البنيان**، مرجع سابق، ص٣٣.

(٣) القابسي، أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري. **الرسالة المفصَّلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين**، تحقيق: أحمد خالد، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، ط١، ١٩٨٦م.

الموسومة "أبجد العلوم" أمثلة عدة تتجلّى فيها مظاهر الإتقان والإحكام في العقلية العلمية عند المسلمين، ويكفي في هذا المقام أن نُشير منها إلى مثال واحد يتعلق بعلم عقود الأبنية، وهو في الحقيقة لا يخصّ العقود كما يوحي بذلك الاسم، بل ينظر في موافقة البنَّائين لمقاييس الإحكام في تشييد البنايات، ولذلك عرَّفه على النحو الآتي: "علمٌ يُتعرَّف منه على أحوال أوضاع الأبنية وكيفية إحكامها وطرق حسنها،"[1] وأشار المؤلف إلى إسهامات ابن الهيثم (توفي: ٤٣٠هـ) و[أبو بكر محمد بن الحسن] الكرخي (توفي: ٤١٠هـ).

ويمكن أن نضيف إلى جانب هذه النماذج العلمية التي اسهمت في بناء نظرية الإحكام والإتقان عند المسلمين، ذلك التراث الهائل من المؤلفات التي تحمل في عناوينها مصطلح "آداب"، وهي كلمةٌ جامعةٌ ذات دلالات عدة، منها الإتيان بضوابط الإحكام في مجال التعليم. فقد أضاف صاحب "كشف الظنون" كلمة "العلم" إلى "آداب"؛ لأنها تُخرِج الكلمة من مجال تداولها العام إلى رحاب الدقة والضبط؛ لأن "العلم" في منظور الإسلام درجة من الإحكام في ابتكار الأفكار وتنظيمها، وتفسيرها وشرحها والعمل بها، ونقلها وفق مناهج منضبطة، مما يجعل أي اختلال لهذه الشروط والضوابط ضعفاً في سلامتها المنهجية وصحتها العلمية.

وذكر حاجي خليفة مجموعةً من تلك المعلومات في مجالات مختلفة، مثل: علم آداب البحث،[2] علم آداب الدرس،[1] وعلم آداب الملوك،[2] وعلم

---

(١)القنوجي، صديق بن حسن. **أبجد العلوم: الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم**، أعده: عبد الجبار زكار، دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٧٨م، ج٢، ص٣٨٤.

(٢) حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله. **كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت.)، ج١، ص ٣٨.

آداب الوزارة.[٣] لكن جاءت بعض الكتب من دون كلمة "العلم"، كما في "آداب السياسة" لعز الدين ابن الأثير (توفي: ٦٣٠هـ)،[٤] و"آداب الصوفية" للشيخ أبي عبد الرحمن حسين بن محمد السلمي النيسابوري (توفي: ٤١٢هـ)، و"آدابُ المحدثين" للحافظ عبد الغني بن سعيد الأزدي (توفي: ٤٠٩هـ)،[٥] و"أدبُ الطبيب" لإسحاق بن علي الرهاوي (عاش في القرن الثالث الهجري)، و"أدبُ الدنيا والدين" للإمام الماوردي (توفي: ٤٥٠هـ).[٦] وفيما ذكره الخطيب البغدادي (توفي: ٤٦٣هـ) في كتابه "الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع"[٧] أبرز مثال على التفاصيل الدقيقة التي تبرز تصوّر الإتقان أمام الراغبين في طلب العلم أو الحديث وروايته.

وقد جمعت تلك التفاصيل الحديث عن الأحوال النفسية والقدرات الذهنية، والمهارات، والأخلاق، والعلاقات العلمية والاجتماعية الواسعة، وهيئة طلاب العلم، والمنافسة، والرحلة، والصعاب كالتصحيف، ومشاكل الملل والسآمة، ومحدودية نمو القدرات والملكات... وهي كلها قضايا مهمة تسهم في إعداد عقلية إبداعية وصياغة مسالك عملية تطبيقية تعين على تطوير الملكات الضرورية للأداء المحكم.

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٤٢.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٤٣.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص٤٣.

(٤) المرجع السابق، ج١، ص٤٢.

(٥) المرجع السابق، ج١، ص٤٣.

(٦) المرجع السابق، ج١، ص٤٥.

(٧) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت. **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، تحقيق: محمد عجاج الخطيب، دمشق: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٩م.

تبين هذه الأمثلة حضور مفهوم الإتقان عند المسلمين في مختلف أنشطتهم العلمية والاجتماعية، وتشكيله الوعي الجماعي العام لتصور المسلمين ورؤيتهم العامة للحياة، وارتباط هذا المفهوم بعقيدة الإسلام، مما يؤكّد أنّ استجلاء هذه الرابطة يقود إلى معرفة التصورات الأساسية الخاصة بالرؤية الإسلامية للإتقان. وللوقوف على مزيد من تصوّر الإتقان، واستكشاف جوانبه النظرية الأخرى، وفهم جذوره ومعاييره النفسية والاجتماعية والحضارية، فقد تم اختيار دراسة مفهوم الإتقان في إطاره التاريخي السابق، واخترنا عبد الرحمن ابن خلدون (توفي: ١٤٠٦م) له تمثيلاً، أما من المعاصرين ففيلسوف الحضارة المسلم، مالك بن نبي (توفي: ١٩٧٣م)، وإسماعيل راجي الفاروقي (توفي: ١٩٨٦م).

١ - مفهوم الإتقان عند ابن خلدون:

لعل ما يؤهل ابن خلدون ولوج عالم دراسات الإتقان إنجازاته المختلفة في التأليف والإدارة الإسلامية، ومناهج التعليم، والقضاء، والسياسة.[١] لم يكن اهتمام ابن خلدون بظاهرة الإتقان استجابة لرغبة استكشافية نظرية مجردة، بل سعياً منها إلى اكتسابها وتبنيها بصفها أسلوب أداء في مجالات الفكر والعمل، وهو ما يمكن ملاحظته في سيرته التعليمية الأولى، التي نقل معالمها في كتابه المشهور "رحلة ابن خلدون شرقاً وغرباً". إنّ البحث في نظرية الإتقان في التراث العلمي الخلدوني يتطلب دراسة المركَّب الثلاثي الذي يشكل ثقل فكره: الفطرة، والملكة، والعمران، وما يحوم حولها من المفاهيم

(١) راجع بعض ما أُلِف حول حياة ابن خلدون المهنية على سبيل المثال:

- Fischel, Walter J. *Ibn Khaldun in Egypt: his public function and his historical research*, California : University of California Press, 1967.

الفرعية. وقد وُفِّقَ ابن خلدون في اعتماده مفهوم الفطرة، وهو مفهوم قرآنيٌّ خالصٌ لماهية النفس الإنسانية، والتي عدّها ابن خلدون خزانة العلوم البشرية، يقول: "... بما جعلَ اللهُ فيها من الإدراك الذي يفيدها ذلك الفكر المحصّل لها ذلك بالتصوّر للحقائق أوَّلاً، ثم بإثبات العوارض الذاتية لها أو نفيها عنها ثانياً، إما بغير وسط أو بوسط، حتىٰ يستنتج الفكرُ بذلك مطالبه التي يعنىٰ بإثباتها أو نفيها. فإذا استقرَّت من ذلك صورةٌ علميةٌ في الضمير، فلا بُدّ من بيانها لآخر، إما علىٰ وجه التعليم أو علىٰ وجه المفاوضة، تصقل الأفكار في تصحيحها."[1]

إنّ هذا المنطلق يعيدنا إلىٰ المسلك العقدي في تفسير الإتقان، والذي يؤكد أنه ظاهرةٌ متجذرةٌ في الطبيعة الإنسانية، التي زوّدها الله تعالىٰ بوسائل وقدرات كامنة تظهر بمجرد توافر شروط الإثارات الخارجية والحوافز الوجدانية والميول العاطفية اللازمة، إضافة لاستثمار الجهد المنظم والتكرار الواعي. ويعدُّ الاتجاه الخلدوني مهماً في تفسير ظاهرة الإتقان؛ لأنه يحاول تجاوز التفسيرات العامِّية أو كما سمَّاها "مذهب عامي" مما يسيطر كثيرٌ منه علىٰ عقول المسلمين إلىٰ اليوم، والذي يرىٰ أن سبب الإنجازات المتْقنة لبعض الناس أو الأمم والأجناس، إنما كان لخصائص في ذواتهم وطبائعهم، إذ يواجه الآخرون صعوبات كبيرة لبلوغ مستوىٰ أندادهم في العلم، وإتقان الصناعات وحسن التنظيم، وهو المبدأ نفسه الذي اعتمده ابنُ خلدون في رفضه التفاوت والفوارق في الكمال بين أهل المغرب والمشرق، كما كان يعتقد ذلك رحَّالةُ أهل المغرب إلىٰ المشرق.[2] وقد فسَّر ابنُ خلدون ذلك التفاضل

(١) الحضرمي، **مقدمة ابن خلدون**، مرجع سابق، ج٣، ص٢٠٤.

(٢) المرجع السابق، ج٢، ص٣٥٣.

في الاستحكام بما يحصل في نفس من أثار الحضارة وتشكيل ما سماه بـ"العقل المزيد". يرى ابنُ خلدون أن "للحضر آداب وأحوال في المعاش والمسكن والبناء وأمور الدين والدنيا، وكذا سائر أعمالهم وعاداتهم ومعاملاتهم وتصرّفاتهم. إن لهم آداباً يقفون عندها في جميع ما يتناولونه ويتلبّسون به فيما يأخذون أو يتركون. وهي مع ذلك صنائع يتلقّاها آخرهم عن أولهم. ولا شك أن كل صناعة مترتّبة يرجع منها إلى النفس أثر يكسبها عقلاً جديداً تستعد به لقبول صناعة أخرى، ويتهيأ بها العقل لسرعة إدراك المعارف."[1]

وهكذا يبرز الإبداع خلدوني في تصوّر الإتقان، في إثارته عاملين أساسين في عملية التعقل والأداء، وهما: الزيادة والجدة، فالإحكام كما يتصوره هو "عقلٌ مزيدٌ" و"عقلٌ جديدٌ". وعلى هذا الأساس، حاول ابنُ خلدون جاهداً تذليل العوائق الذهنية السالبة للإرادة في توخي مسالك الإتقان، مُخرِجاً القدرة على الإتقان من مجال الاحتكار والوراثة إلى مجال الكسب والتعليم والتعلم.

يرى ابنُ خلدون أيضاً أنّ الإتقان كغيره من المهارات التي تخضع إلى التعليم والاكتساب، وتبدأ أولاً بالمحاكاة، ثم نظر المعلم وتقييمه، لتتحقق الإجادة في النهاية. كما لا يتصوّر حصول كمال الإنسان المطلق، فطبيعته لا تطيقه. فلكل إنسان وجهته الخاصة في الإتقان البارز والمخصوص تنمِّيه الحاجة وأسبابُ المعاش والتعاون. يقول ابنُ خلدون: "والكمال في الصنائع إضافيٌّ وليس بكمال مطلق؛ إذ لا يعود نقصه على الذات في الدين ولا في الخلال، وإنما يعود على أسباب المعاش وبحسب العمران والتعاون عليه؛ لأجل دلالته على ما في النفوس."[2] وقد قدَّم ابنُ خلدون تعلُّم الخط العربي

(١) المرجع السابق، ج٢، ص٣٥٤.

(٢) المرجع السابق، ج٥، ص ١٦٨.

نموذجاً يوضّح الانتقال في اكتساب خصلة الإتقان والحدَّة والإجادة، وهي تجربة يمكن تطبيقها على جميع أصناف المهارات والصنائع اللازمة للعمران البشري. وذكر أنّ معلمي الخط يمهدون للطلبة إتقان الخط بتعلم قوانينه وأحكامه أولاً، ثم مباشرة التعليم، يقول: "فتعتضد لديه رتبة العلم والحسّ في التعليم، وتأتي ملكته على أتمِّ الوجوه، وإنما أتى هذا من كمال الصنائع، ووفورها بكثرة العمران وانفساح الأعمال."[١]

انتبه ابنُ خلدون إلى خطأ من يحاول تنزيه الصحابة من الأخطاء التي وقعوا فيها في رسم الخط، وطلب تعليم ما خالف الإجادة في رسومهم الخطية المتقدمة. فالخط كما قال: "ليس بكمالٍ في حقِّهم، إنَّ الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية."[٢] ويعكس تحديد ابن خلدون لأبعاد مكونات الأداء المتقن قدرته على علاج المسألة بنَفَسٍ علمي جديد. فعلى سبيل المثال، يصوِّرُ الملكة بأنها: "كيفيةٌ راسخةٌ في المحلِّ؛ أي متعسّرة الزوال أو متعذّرة ويقابلها الحالة ... وتطلق على مقابل العَدَم أيضاً،"[٣] وأنها "صفةٌ راسخةٌ تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد مرة أخرى حتى ترسخ صورته. وعلى نسبة الأصل تكون الملكة."[٤] كما يضرب لذلك بعضَ الأمثلة، ففي مجال نقل الأخبار مثلاً، يرى أن المَلَكَةَ الناشئة عن المعاينة أكمل من تلك التي تقوم على العلم المجرد، يقول بهذه المناسبة: "ونقلُ المعاينة أوعبُ وأتمُّ من نقل الخبر والعلم، فالملكة الحاصلة عنه أكمل وأرسخ من الملكة الحاصلة عن الخبر."[٥] أمَّا "الصناعة"

---

(١) المرجع السابق، ج٥، ص١٦٦ -١٦٧.

(٢) المرجع السابق، ج٥، ص ١٦٦.

(٣) التهانوي، **موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، مرجع سابق، ج٢، ص ٥٩٩.

(٤) الحضرمي، **مقدمة ابن خلدون**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٨٠.

(٥) المرجع السابق، ج٢، ص٢٨٠.

فليست إلا صورةً من الصور المعنوية والمادية للملكة، وهي مَلَكَةٌ في أمر عملي فكري."[1] وفي هذا السياق، يفسّر ابنُ خلدون قولَ عليّ رضي الله عنه: "قيمة كل امرئ ما يُحسن"، بقوله: "صناعته هي قيمته، أي قيمة عمله الذي هو معاشه."[2] وكذلك تحديده درجة جودة التعليم بحصول الملكة، يقول ابنُ خلدون: "وعلى قدر جودة التعليم وملكة المعلم يكون حذق المتعلم في الصناعة وحصول ملكته."[3] فالذي يمكن استنتاجه من خلال تتبع هذه المفاهيم هو اعتبار الطرح الخلدوني لمفهوم الإتقان نظريةً شاملةً، ونظاماً تحليلياً وتفسيراً قوياً يربط أجزاء نظريته بعضها ببعض انطلاقاً من مفهومه للإنسان، وطبيعة الصنائع وخصوصياتها، والقدرات اللازمة لتحصيلها.

تناول ابنُ خلدون أيضاً العوامل التي تحولُ دون تحقيق الإتقان في ظروف العمران البشري وشروطه المتغيرة، وفيها لجأ إلى تبنّي المنظور المقاصدي، واستعارة مفهوم الضرورة،[4] ليرى أنّ من أسباب تردِّي الجودة اكتفاء الإنسان بالضروري والبسيط، وتقييد الفكر والسلوك وتعويدهما على ذلك النمط من الحوائج والمكتسبات، وما هي في الحقيقة إلا مستويات بسيطة في الإتقان. أما العنصر الثاني في التفسير الخلدوني للإتقان فهو عامل الزمن؛ إذ تتطلب الصناعات البسيطة في الأمصار الصغيرة زمناً وتحولاً كاملاً في العمران، كي تنتقل إلى الصنف المركَّب من الصناعات، وهي الصناعات التي تنتقل من دوْر الضرورة إلى التحسين والإحكام والإتقان. وقد وُفِّق ابنُ خلدون في صياغة فرضيته بشكل علميّ دقيق حين أكّد على أنّ الصنائعَ

(١) المرجع السابق، ج٢، ص٢٨٠.

(٢) المرجع السابق، ج٢، ص٢٨٦.

(٣) المرجع السابق، ج٢، ص٢٨٠.

(٤) المرجع السابق، ج٢، ص٢٨٠- ٢٨١.

والعلوم، إنما تكتمل بكمال العمران الحضري وكثرته، ويعود سببُ ذلك إلى أنّ أنشطة الناس تحصرها الضرورات من المعاش ما لم يستوِ العمران الحضري، وتتمدّن المدن بحيث تتزايد فيه الأعمال وتظهر الحاجات والسعي إلى الكمالات من المعاش.[1] وقد أشار في موضع آخر إلى أنه "إذا زخر بحرُ العمران وطُلِبت فيه الكمالات، كان من جملتها التأنق في الصنائع واستجادتها. فكملت بجميع متمِّماتها، وتزيّدت صنائع أخرى معها ممَّا تدعو إليه عوائد الترف وأحواله من خرّاز، ودبّاغ، وجزّار، وصائغ، وأمثال ذلك. وقد تنتهي هذه الأصناف إذا استبحر العمران أن يوجد منها كثيرٌ من الكمالات ويُتأنَّق فيها في الغاية، وتكون من وجوه المعاش في المصر لمنتحليها، بل تكون فائدتها من أعظم فوائد الأعمال لما يدعو إليه الترف في المدينة مثل الدهّان، والصفَّار، والحمّامي، والطبّاخ، والسفّاج، والهرّاس، ومعلّم الغناء والرقص، والنفخ في البوق وقرع الطبول على التوقيع. ومثل الورّاقين الذين يعانون صناعة انتساخ الكتب وتجليدها وتصحيحها، فإنَّ هذه الصناعة إنما يدعو إليها الترف في المدينة من الاشتغال بالأمور الفكرية وأمثال ذلك."[2]

وبهذا التفسير، يَعُدّ ابنُ خلدون الأحوال السلبية "السكونية" للمحيط الاجتماعي تعليلاً لضعف نوازع الإتقان ودوافع الإبداع؛ وأنّ العمران البدوي أو القليل أحد أسباب عدم اكتمال الصنائع. فالمجتمع البدوي في رأي ابن خلدون لا يقوم إلا على "البسيط خاصة المستعمل في الضروريات من نجَّار أو حدَّاد أو خيَّاط،أو جزَّار أو حائك، وحتى إن وُجِدَت هذه، فلا توجد فيه كاملة ولا مستجادة، وإنما يوجد منها بمقدار الضرورة؛ إذ هي كلها وسائل إلى غيرها

(١) المرجع السابق، ج٢، ص٢٨٢.

(٢) المرجع السابق، ج٢، ص٢٨٢-٢٨٣.

وليست مقصودة لذاتها."[1] وفي الوقت نفسه، يقدم ابنُ خلدون في تفسيره لظاهرة الإتقان رؤية شاملة تتعدى الجزئيات الظاهرة على مستوى السلوك الفردي في مجال الصنائع والأعمال؛ إذ قاده بحثه وتحليله إلى مراحل متقدمة تتحقق فيها صفة "الرسوخ"، لتصبح أسلوب حياة وثقافة اجتماعية عامة. يرى ابنُ خلدون توقّف رسوخ الإتقان في الذهنية الفردية إلى حدّ كبيرٍ على رسوخ الحضارة وظهورها الشامل الذي تعكسه الخطط والوظائف والمؤسسات المختلفة. ويعلّل ابنُ خلدون ذلك بأنّ العوائد ترسخ بكثرة التكرار وطول الأمد الذي يجعل صبغة تلك العوائد مستحكمة وترسخ في الأجيال القادمة؛ وهو الأمر الذي يجعل من الأمصار المستبحرة في العمران تبقي بعض آثارها ولو بعد تراجع عمرانه وتناقصه، وهذا على عكس ما يحدث للأمصار المستحدثة العمران الذي تغيب آثاره بسرعة بعد تراجعه. وما ذاك -حسب ابن خلدون- "إلّا لأنَّ أحوالَ تلك القديمة العمران مستحكمةٌ راسخةٌ بطول الأحقاب وتداول الأحوال وتكرُّرها، وهذه لم تبلغ الغاية بعد."[2]

كما أدرج ابنُ خلدون أيضاً في تحليله للإتقان الأبعاد الأخلاقية والمعايير القيمية التي ترفع منجزات الإتقان إلى أعلى مستوياتها، مما يتحقق من خلال اجتناب نواقض الكمال والمحاسن في المجتمعات التي بلغت مستويات فوق الحاجات؛ أي إلى الكماليات أو ما سمَّاها ابن خلدون بـ"أحوال عادية زائدة على الضروري". تظهر على إثر ذلك ألوانٌ أخرى سلبية تخدش صور الإتقان الملتزم بالقيم الأخلاقية. وأثار ابن خلدون سلبيات ظهور ألوان الترف والرفاه ودواعيهما التي يفرزها العمران البشري الحضري المتقدم، مما يمثل

(١) المرجع السابق، ج٢، ص٢٨٢.

(٢) المرجع السابق، ج٢، ص٢٨٤.

أعراضاً للانهيار والخراب، وأحوال ارتدَّت عن ضوابط الإتقان والإحكام في تدبير العمران، ويحدث بسببها كما يقول، "الخروج عن الحد الطبيعي".

يمكن بعد هذا العرض المختصر لتصوّر ابن خلدون للإتقان أن نقول: إنّ الإتقان عنده كالمهارات الأخرى، وعيٌ وسلوكٌ، وأسلوب حياة يقوم على التعليم والجد، ويخضع لقوانينها. والإتقان ليس مسألةً فنيةً وحسب، بل قضيةٌ قيميةٌ، يقع عليها السؤال الأخلاقي. والإتقان مكسبٌ يتأثر بالعمران الاجتماعي ووجهته ومراحل نموه وطبيعته، وهو ما يبشّر بأن ضعف ثقافة الإتقان في الأمة الإسلامية، ليست إلا حالة عرضية يمكن علاجها وفق مناهج وقوانين التغيير الإيجابي.

٢- مفهوم الإتقان عند مالك بن نبي:

إنّ اختيار مالك بن نبي لدراسة مسألة الإتقان له مسوغاته الموضوعية، فهو صاحب التجربة الثرية، لا سيما في مقاومة مشكلتي الاستعمار الفرنسي الغاشم للجزائر لمدة مائة وثلاثين سنة، وأسباب التخلّف. تنقّل بنُ نبي كثيراً في بقاع العالم الإسلامي، ليعايش أوضاعه السياسية والثقافية، وناقش حركات الإصلاح المختلفة، وألّف أكثر من عشرين كتاباً متميزاً؛ عالية الموضوعية والدقة والتحليل المنهجي. إنّ استثمار تصورات بن نبي للإتقان لا شكّ مفيد، لا سيما فيما يمكن الاصطلاح عليه بـمركَّب الإتقان، والذي يعني أن سبب ضعف تجليات الإتقان في المجتمع المسلم التفكك الذي أصاب ذلك المركب، وأشدها التفكّك الذي يخرم علاقة العمل بالعقيدة الإسلامية. وهو القائل في تشخيص الأوضاع السلبية التي يعيشها المجتمع المسلم: "إننا نرى في حياتنا اليومية جانباً كبيراً من (اللافاعلية) في أعمالنا؛ إذ يذهب جزء كبير منها في العبث، والمحاولات الهازلة. وإذا ما أردنا حصرا لهذه القضية فإننا

نرىٰ سببها الأصيل في افتقادها الضابط الذي يربط بين عمل وهدفه، وبين سياسة ووسائلها، بين ثقافة ومثلها، وبين فكرة وتحقيقها: فسياستنا تجهل وسائلها، وثقافتنا لا تعرف مُثلها العليا، وإن ذلك كله ليتكرر في كل عمله نعمله وفي كل خطوة نخطوها."[١]

كانت بداية تصور ماهية الإتقان عند بن نبي في تحديد جوهر الفطرة الإنسانية التي تزوِّدُها الطاقة والحيوية، وهو العقيدة الإسلامية بمفهومها الكامل والصحيح؛ بعيداً عن التأثر باختزالات المؤلفات الكلامية. ويرىٰ بنُ نبي دور العقيدة الإسلامية في تحديد مفهوم الفعل الإنساني، وأنها من ركائز الإتقان ومكوناته، والذي يقوم علىٰ الالتزام بصفاء العقيدة والنظر فيما تؤول إليها أفعال المؤمنين بها في الحياة الاجتماعية، وهذا يعني أن مهمة المصلح الاجتماعي، هي ربط العقيدة بسلوك الإنسان المسلم في جميع جوانب الحياة. يقول بنُ نبي بهذا الصدد: "فليست المشكلة أن نعلّم المسلم عقيدة هو يملكها، وإنما المهم أن نردّ إلىٰ هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الإيجابية، وتأثيرها الاجتماعي، وفي كلمة واحدة: إنّ مشكلتنا ليست في أن (نبرهن) للمسلم علىٰ وجود الله، بقدر ما هي في أن تشعره بوجوده، ونملأ به نفسه باعتباره مصدراً للطاقة."[٢]

ثم تأتي مسألة تصور ماهية الفعل الإنساني وطبيعته، ففي فصل بعنوان "الطفل والأفكار" في كتابه "مشكلة الأفكار"، يحدِّدُ بنُ نبي دائرة الفعل الإنساني منذ الطفولة في ثلاثة أنماط من العلاقات، وهي: العلاقة بالأشياء،

---

(١) بن نبي، مالك. **شروط النهضة**، ترجمة: عبد الصبور شاهين. دمشق: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٦م، ص٩٦.

(٢) بن نبي، مالك. **وجهة العالم الإسلامي**، ترجمة: عبد الصبور شاهين. بيروت ودمشق: دار الفكر المعاصر ودار الفكر، ط١، ١٩٨٦م، ص٥٤.

والأشخاص، والأفكار، والتي تُمثِّل المكونات الأساسية التي يتعامل معها الإنسان في اتجاهه إلى الاندماج الاجتماعي، والانتقال إلى "عالم التكليف". يقوم العمل الحِرَفي في أبسط أشكاله على الإنسان والآلة؛ لكن بن نبي يستدرك على هذا التحديد الناقص للأداء المادي، يقول: "لكن هذين العنصرين يحتاجان حقيقة أخرى أكثر تعقيداً، ذلك أن العمل لا يتم فعلياً إلّا في ظروف تتوافق بالضرورة مع سؤال (كيف) و(لماذا). فنحن لا نعمل كيفما اتفق حتى يصبح العمل مستحيلاً، ولا نعمل بغير سبب حتى لا نمارس عملاً عبثاً."[1]

ولما كان الفعل الإنساني بما في ذلك "الإتقان والإبداع" ظاهرةً مركَّبةً، ما يعني أن الاستيعاب أو التثاقف يتطلب معرفة جملة من مكوناته ومقوماته الأساسية، وسعياً في هذا الاتجاه، قام بنُ نبي بدراسة مجموعة من عناصر الفعل الإنساني وتحليلها، والتي تشمل الآتي:

أ- الإرادة الفردية:

تمثل الإرادة الفردية الدافع الأساسي ومحطة الانبعاث الأولى التي تظل تنمو وتتسّع وتؤثر على الجماعة، غير أنّ هذا البُعد الكمّي لا يمثّل وحده قيمة الأداء المتقن؛ لأنَّ هناك قيماً معنوية وصورية تُسهم في تشكليه. لذا؛ لا ينحصر الإتقان فقط في التقدير المادي الكمي، بل يكون أعمق من مجرد التركيز على الإمكانات الشيئية، ولهذا؛ يرى بنُ نبي أن المجتمع المتخلِّف الذي يعاني من تراجع خاصيِّة الإتقان والإحكام في التدبير: "ليس موْسوماً حتماً بنقص في الوسائل المادية (الأشياء)، وإنما بافتقار للأفكار، يتجلّى بصفة خاصة في طريقة استخدامه للوسائل المتوفرة لديه، بقدر متفاوت من الفعالية، وفي عجزه عن

(١) بن نبي، مالك. **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، ترجمة: بسام بركة وأحمد شعبو، بيروت ودمشق: دار الفكر المعاصر ودار الفكر، ط١، ٢٠٠٢م، ص٢٧.

إيجاد غيرها، وعلى الأخصّ في أسلوبه في طرح مشاكله أو عدم طرحها على الإطلاق؛ عندما يتخلّى عن أي رغبة؛ ولو مترددة بالتصدي لها."[1]

وبهذا المعنى، تمثّل الإرادة الفردية والجماعية عنصراً أساسياً من الأفعال المتقنة، ليس فقط بتحويل عالم الأشياء، بل أيضاً باستحداث الأفكار الأصيلة وابتكار الحلول الإبداعية. لكن تستدعي الإرادة التي تُنتِجُ الأداء المتقنَ شروطاً موضوعية، منها مثلاً: تشكيل المهارات المختلفة الممكنة الناتجة بسبب التعلم المستمر، والممارسة، والتفاعل، ونسج العلاقات وفهم طبيعتها وتراكيبها. ويتصدَّر هذه العناصر، علاقات الأشخاص أو كما سمَّاه بن نبي "الشرط الأول"، والذي استدل على أهميته بقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال: ٦٣]. يقول بنُ نبي: "فأساس كلّ ثقافة هو بالضرورة (تركيبٌ) و(تأليفٌ) لعالم الأشخاص، وهو تأليفٌ يَحدث طبقاً لمنهج تربوي يأخذ صورة فلسفية أخلاقية."[2] لقد أولى الوحي الأهمية البالغة لتكوين الجماعة ووظيفتها الحيوية، وذكر منها القرآن الكريم أكثر من ستة عشر صنفاً، وبيّن بعض خصوصياتها في سياق الدين والعمران البشري.[3] فالجماعات الفطرية التي تتشكل بحكم الأنشطة الفطرية الإيجابية في المجتمع، تقوم بدور بالغ الأهمية في تنمية قدرات الإنسان وتحسين أعماله.

ويمكن تلمّس قيمة الجماعة عندما نُدرك توقف الأعمال المركبة أو المعقدة في إطار نظم الاحتكاك التفاعلية الإيجابية على طبيعة الروابط التعاونية بين

---

(١) المرجع السابق، ص٣٦.

(٢) المرجع السابق، ص٨١.

(٣) مشوش، صالح بن طاهر. "معالم الجماعة الدعوية الفعَّالة على ضوء أحوال العمران البشري وسننه عند ابن خلدون"، **مجلة "التجديد"**، المجلد (٢٦)، العدد (٣١)، ١٤٣٣هـ.

الأفراد أو الجماعات والمؤسسات. ولأهمية هذا العنصر في تحقيق الإتقان، نلاحظ اشتداد المنافسة بين المؤسسات والشركات في استقطاب الأفراد المقتدرين الذين يتمتّعون بهذا النوع من المهارات المعزّزة لعمل الفريق والتحلّي بروح الجماعة، إضافة إلى قدْرات واستعدادات ذهنية تقدر بالمعرفة والمعلومات الضرورية للأداء الجيد للوظائف والمهن والصنائع.

ب- الثقافة المجتمعية:

الثقافة في رأي بن نبي أسلوب حياة، تخلق [تشكّل] الإنسان الذي يراقب، ويراقب ذاته في بادئ الأمر،[1] وتمثِّل الإطار الفكري الثاني الذي يحكم نشوء الأفعال المتقنة وتحديد مقاييسها الذاتية والموضوعية. ولمعرفة هذا التأثير أكثر، استهل بنُ نبي دراسة الثقافة بإشارته إلى ضرورة التحقق من المشكلة اللغوية، التي تُعنى بالبحث بمعنى المصطلح، والمشكلة التاريخية التي يفرزها البحث عن استعمال ذلك المصطلح في المجتمع.[2] وقد انطلق بنُ نبي في تحديد دلالة مفهوم الثقافة من المصادر الأصلية مثل لسان العرب، الذي جاء فيه "ثقف الشيء وهو سرعة التعلم،"[3] وجاء في وصف عبد الله بن أبي بكر في حديث الهجرة الذي روته أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- "وهو غلامٌ شابٌّ لقنٌ ثقفٌ؛"[4] أي ذو فطنة وذكاء، والمراد "أنه ثابت المعرفة بما

---

(١) بن نبي، مالك. **من أجل التغيير**، بيروت ودمشق: دار الفكر المعاصر ودار الفكر، ٢٠٠٥م، ص٥٥.

(٢) بن نبي، مالك. **مشكلة الثقافة**، ترجمة: عبد الصبور شاهين، بيروت ودمشق: دار الفكر المعاصر ودار الفكر، ط٤، ٢٠٠٠م، ص١٩.

(٣) جاء معنى مادة "ثَقُفَ": "صار حاذقاً، خفيفاً فطِناً... وثقَّفَهُ تثْقِيفاً: سوَّاه". انظر:
- الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، مرجع سابق، ص٧٩٥.

(٤) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ص٥٨٠٧.

يحتاج إليه."[1] وقد استنتج بنُ نبي أنّ الثقافة: "مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لاشعورياً العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحـ اة في الوسط الذي ولد فيه، فهي... المحيط الذي يشكله طباعه وشخصيته."[2]

كما نبَّه بنُ نبي أيضاً إلى ضرورة اعتبار المسألة من أوجه ثلاثة؛ النفسي والاجتماعي، وما يترتب عليهما من علاقات، وتأثيرها واتجاه ذلك التأثير. ومن أهم المداخل عند بن نبي مسألة المقاييس الذاتية للثقافة، التي تتمثل كما يقول: "في قولنا (هذا جميلٌ)، و(ذاك قبيحٌ) أو (هذا خيرٌ) و(ذلك شرٌّ)، وهذه المقاييس هي التي تحدد سلوكنا الاجتماعي في عمومه، كما تحدد موقفنا أمام المشكلات قبل أن تتدخل عقولنا. إنها تحدد دور العقل ذاته إلى درجة معينة، وهي مع ذلك درجةٌ كافيةٌ تسمح لنا بتمييز فاعليته الاجتماعية في مجتمع معين بالنسبة لمجتمع آخر."[3]

ومع هذا لم يحصر بنُ نبي "المقاييس الذاتية للثقافة" داخل الدوائر النفسية والروحية للفرد، والتي تضم عالم الأشخاص والأفكار، بل يرى أنها تمتد خارجه لتشمل "حواراً آخر مع الطبيعة التي تنقل إلينا رسالتها، مكتوبة بأبجدية ملغزة أيضاً، وهي أبجدية الألوان والأصوات والروائح والحركات والظِلال والأضواء والأشكال والصور؛ هذه العناصر الطبيعية ذاتها تتجمع في نفسيتها، ثم تذوب وتهضم في صورة عناصر ثقافية، تندمج في وجودنا الأخلاقي وفي بنائنا الأساسي."[4] وليست الثقافة في منظوره ميراثاً إنسانياً

(١) بن نبي، **مشكلة الثقافة**، مرجع سابق، ص١٩.

(٢) المرجع السابق، ص٧٤.

(٣) المرجع السابق، ص٥٣-٥٤.

(٤) المرجع السابق، ص٥٦.

عفوياً لا يخضع لمقاييس خارجية، بل على العكس، فعلٌ واعٍ يعبر عن مستوى المجتمع ودرجته في استيعاب جملة من العلاقات والتعبير عنها بأشكال مختارة، تضم العلم والإتقان، وما يترتب عنهما من آثار في الحياة العمرانية.

ت- المنطق العملي:

يستمد التصوّر والتفكير قيمته المعنوية والمادية من نوعية الأعمال وأشكالها، والذي يمثل فيه الجهد الإنساني جانباً من طبيعة الإنسان "الكَبَدِية".[1] ولهذا لم يسر "الفكر المجرد" على وتيرة الفلسفة اليونانية الهندية مناسباً لطابع العمران والاستخلاف الإسلامي، وهو ما وعاه بنُ نبي عند تناوله الطبيعة الذاتية للفكر الإسلامي، وتأكيده مفهوم "العمل" تدعمه الوسائل وتنظمه المقاصد. يقول بن نبي في هذا السياق: "لسنا نعني بالمنطق ذلك الشيء الذي دُوِّنت أصوله ووُضعت قواعده منذ أرسطو، وإنما نعني به كيفية ارتباط العمل بوسائله ومقاصده، وذلك حتى لا نسهل أو نستصعب شيئاً دون مقياس، يستمد معاييره من الوسط الاجتماعي وما يشمل من إمكانيات؛ وليس من الصعب على الفرد أن يصوغ مقياساً نظرياً يستخرج به نتائج من مقدمات محددة، غير أنه من النادر جداً أن يعرف المنطق العملي، أي استخراج أقصى ما يمكن من الفائدة من وسائل معينة."[2]

يتساءل بنُ نبي عن الطريقة التي يستغل به المسلم أربعاً وعشرين ساعة من يومه، وما نصيبه من النَّصَب والعلم والمال، وكيف ينفق ماله، ويستغل عمله، ليرى أن هناك جانباً كبيراً من اللافاعلية في حياة المسلم الراهنة يتجلّى في "العبث والمحاولات الهازلة."[3] إنّ الذي يفتقد إليه المسلم اليوم في حياة

---

(١) قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ [البلد: ٤].

(٢) بن نبي، **مشكلة الثقافة**، مرجع سابق، ص٨٥.

(٣) المرجع السابق، ص٨٥.

المسلم الراهنة في منظور بن نبي "... ليس منطق الفكرة، ولكن منطق العمل والحركة، وهو لا يفكر ليعمل، بل ليقول كلاماً مجرداً، بل إنه أكثر من ذلك يبغض أولئك الذين يفكرون تفكيراً مؤثراً، ويقولون كلاماً منطقياً من شأنه أن يتحول في الحال إلى عمل ونشاط."[1]

ث- الذوق الجمالي:

تناول بنُ نبي دور الجمال في تتويج الفعل الإنساني، معتبراً إياه عنصراً مكوِّناً ومعياراً يؤهِّل الفعل لمرتبة الإتقان، بسبب أثره على مستوى التصور والسلوك معاً، فالصورة القبيحة في رأي بن نبي لا يمكن "أن توحي بالخيال الجميل أو بالأفكار الكبيرة، فإنَّ لمنظرها القبيح في النفس خيالاً أقبح، والمجتمع الذي ينطوي على صور قبيحة، لا بدّ أن يظهر أثر هذه الصور في أفكاره وأعماله ومساعيه."[2] والفعل الإنساني مركبٌ ثلاثيٌ يشمل الفكرة، والفعل، والصور التي يتجسد فيها. فالأفكار في نظره: "المنوال الذي تنسج عليه الأعمال، وهي تتولد من الصور المحسوسة الموجودة في الإطار الاجتماعي فتنعكس في نفس من يعيش فيه، وهنا تصبح صوراً معنوية يصدر عنها تفكيره، فالجمال الموجود في الإطار الذي يشتمل على ألوان وأصوات وروائح وحركات وأشكال، يوحي للإنسان بأفكاره ويطبعها بطابعه الخاص من الذوق الجميل أو السماجة المستهجنة."[3]

٣- مفهوم الإتقان عند إسماعيل راجي الفاروقي:

إن معرفة المنهجية التي سلكها المفكِّرون المسلمون المعاصرون في بيان مكونات "عقلية الإحكام" وتجلياتها في تاريخ الحضارة الإسلامية يساعدنا لا

---

(١) المرجع السابق، ص٨٧-٨٨.

(٢) المرجع السابق، ص٦٣.

(٣) المرجع السابق، ص٨٢.

شك، على استيعاب الأسباب التي كرَّست تراجع ثقافة الإتقان وتشويهها في حاضر المجتمعات الإسلامية، وأيضاً على معرفة المستوى الذي وصل إليه التنظير المسلم في الإحكام والإتقان. وسنتناول بالدراسة نموذج المفكر إسماعيل الفاروقي لمعرفته ونجاحه في تأليف كتابين تناول من خلالهما دور الدين وأثره في صياغة الحياة، وما تقوم عليه من الأعمال المتقنة في مجالاتها المختلفة. ويحمل كتاب الفاروقي الأول "التوحيد وأثره في الفكر والحياة" (١٩٨٢)[١] بيان أثر العقيدة الإسلامية على الفكر والفعل الإنساني، وتتبع ما يستتبعها في مجالات عديدة بما في ذلك التجربة الروحية أو الدينية، وصناعة التاريخ، وتأسيس المعرفة، والرؤية الكونية أو الميتافيزيقا، ومبادئ الأخلاق وقيمها، والأمة، والأسرة، والنظام السياسي والاقتصادي، والرؤية الجمالية. وتمثّل هذه الرؤى والأفكار جملة فصول كتابه الأول. وأما الكتاب الثاني فيتمثل في "أطلس الحضارة الإسلامية" (١٩٨٦م)، والذي تُرجم إلى ست لغات عالمية، وهو محاولةٌ جادةٌ حقّقها الفاروقي في بيان تجليات العقلية التوحيدية ومنجزاتها المتقنة في تاريخ الحضارة الإسلامية. إن مثل هذه الأعمال للفاروقي تساعد على تحقيق مسألتين أساسيتين تتعلقان بعلاقة العقيدة بالإتقان، ومعرفة أنظمة الإتقان وأبعاده من المنظور الإسلامي. وبين عمله الأول والثاني، نحاول البحث عن أسباب ركود عقلية الإتقان، وتعطيلها في العالم الإسلامي المعاصر.

هذا، ويدرك القارئ لكتاب "التوحيد وأثره في الفكر والحياة"، أنه لا يمكن تصنيفه ضمن الكتب الكلامية الإسلامية، بسبب الاتجاه العملي في إبراز مجالات حياتية مختلفة. ففي الفصل الأول حول "ماهية التجربة الدينية"

(1) Al-Faruqi, Ismail Raja. *Al-Tawhid and Its Implication for Thought and Life*, Herndon, Verginia: IIIT, 1982.

مثلاً، لم ينجرّ الفاروقي إلى معالجة عالم الأحوال والشطحات الصوفية أو كرامات الأولياء وغيرها من المسائل، بل اتجه إلى بيان علاقة التوحيد بنظام العالم، الذي يقابل نظريات الفوضى والصدفة وما يساندها من تصورات شاذة. يرى الفاروقي أن مبدأ التوحيد إقرار بالخالق ليس لكونه المطلق أو العلة الأولى للوجود فحسب، بل بوصفه مصدراً لكل النظم والقيم والمعيار. وقد حاول الفاروقي تحليل ما يلزم عن التوحيد الخالص وأثره في مجالات اجتماعية مختلفة، مثل الأخلاق، والمعرفة، والغيبيات، والنظام الاجتماعي، والنظام الأسري، والنظام الاقتصادي، ومبدأ الجمال. ومن خلال هذه المحاور، حاول الفاروقي إبراز أوجه الإتقان في صياغة ألوان الحياة الإنسانية والمؤسسات التي تفرزها من وجهة الإتقان. وهو التصوّر الذي يمكن استنتاجه بسهولة حين نجد أن الفاروقي قد حاول في كل فصول كتابه إبراز تميّز العقيدة الإسلامية أو التوحيد عن غيرها في صياغة عالم الإنسان الخليفة، وقيمه، ومؤسساته، وأسلوب حياته اعتماداً على المنهج المقارن، وهو المنهج الذي جعل تفسيراته أكثر ظهوراً ووضوحاً وشمولاً. وقد وردت عباراتٌ تنبّه إلى هذا التميز بلغة مباشرة مثل: "بخلاف اليهودية"، و"بخلاف المسيحية"، و"بخلاف الديانات الهندية".

وأخذت نظرة الفاروقي بالاعتبار اللغة وصياغة المفاهيم والمصطلحات أيضاً، فقد رفض الفاروقي مثلاً ترجمة كلمة الإيمان إلى الكلمة اللاتينية (faith, belief)؛ لأن الأخيرة تنقصها الدقة والإحكام في التعبير عن المعاني الدينية الخالصة؛ وأيضاً لأنّ هاتين الكلمتين يشوبهما الشك، والاحتمال، والربية، وهي كلها خصائص لا تتوافق مع "الحقيقة".[1] ومثل هذا التمييز

(١) انظر:

- Al-Faruqi, *Al-Tawhid and Its Implication for Thought and Life*, p. 40-41.

الذي أبرزه الفاروقي يسري أيضاً على الفنّ، كما بيَّن الفاروقي في فصل عن "مبدأ الجمال" الاتجاه الذي اتخذه الفن في العالم الإسلامي وأدواته ولغته وأشكاله المميزة بناءً على ما يقتضيه مبدأ التوحيد. فتصور الفن الإسلامي دائماً وأبداً يعكس مبدأ التوحيد. ولهذا السبب، لم يتجه المسلمون إلى نحت الأجسام، بل اتجهوا إلى الإحكام في فن الخطوط، والزخرفة وفن رسم الأزهار (floral Arts).

وقد اتبع الفاروقي في "أطلس الحضارة" المنهج الظاهراتي الذي حاول فيه فكّ التجربة الفلسفية الأوربية مع (إيدموند هرسل)، ليصلها بالعالم المسلم أبو الريحان البيروني (توفي: ٤٤٠هـ). والحقيقة أن هذا المنهج يحمل سمات الإتقان في نقل صور من التراث الإنساني واعتبار مكانته وتقدير عمله، فالظاهراتية، كما فهمها الفاروقي هي الطريقة "التي تتطلب من المراقب [الباحث] أن يترك الظاهرة تتحدث عن نفسها دون أن يقحمها في إطار فكري مقرّر سلفاً، كما يدع صورة الجوهر الذهنية تنسق المعلومات أمام الفهم فتتعزّز مصداقيتها بها."[١] وكما أشار الفاروقي، فإنَّ من الفوائد المنهجية المترتبة عن هذا المسلك النظر إلى "جوهر الإسلام من حيث علاقتُه المطلقةُ بالقرآن والسنّة،"[٢] وتقديم "المكونّات الحضارية بوصفها تجسيداً لذلك الجوهر في المكان والزمان."[٣] وبناءً على هذه المنطلقات، ذكر الفاروقي أن سبب اختياره لمواد هذا الكتاب هو بسبب قربها من "الدرجة التي يمكن القول فيها: إن تلك المعلومات التاريخية كانت تشكل تمثيلاً لجوهر العقيدة."[٤] وقد أشار الفاروقي إلى أن محاولته الاستعانة بهذا المنهج قد

(١) الفاروقي، **أطلس الحضارة الإسلامية**، مرجع سابق، ص٢٥.

(٢) المرجع السابق، ص٢٧.

(٣) المرجع السابق، ص٢٧.

(٤) المرجع السابق، ص٢٨.

تصح أن تكون أول محاولة في العالم الإسلامي لدراسة الإسلام وحضارته.[1] وقد حمل الفصل الثالث من الأطلس عنوان "الدين والحضارة"، وهي العبارة التي تحمل بذرة التجديد في دراسة الدين من وجهة "مقارنة الأديان" أو "تاريخ الحضارات الإنسانية". فقد طغت التوجهات المادية في تحديد اتجاه تلك البحوث والدراسات التي تدرس هذه مسألة؛ إذ قلّما أُعْطي الدِّين موقع الحسم في تشكيل الحضارة على الرغم من أنها لون من ألوان الأعمال المتقنة للأفراد والجماعات البشرية في ظرف زماني ومكاني، وبمستوى محدد من المعرفة والتجربة الإنسانية المتداولة؛ لكن يبدو أن العنوان الديني الذي اختاره الفاروقي للفصل يعكس الاتجاه البديل الذي يريد أن يسلكه وفق شروط الإتقان في البحث.

وتنمُّ دراسة الدين أو العقيدة الدينية بوصفها عنصراً جزئياً للصورة الكلية للحضارة الإنسانية عن تصوّر منحرف للحقيقة؛ لأن تلك الحضارات لم تظهر إلا من خلال انطلاقة دينية، وهو ما يمكن التدليل عليه من خلال قصة الإنسان الأول "آدم" عليه السلام؛ إذ يُخبرنا القرآن الكريم أنّ الله تعالى بعد أن جعل آدم عليه السلام خليفة في الأرض، زوّده بمعرفة تحميه وتعينه على أداء أمانة العبادة لله وحده. قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢﴾ [البقرة: ٣٢]؛ إذ لا يمكن تصوّر قيمة الأسماء التي علَّمها الله تعالى آدم من دون معرفة العلاقة بين تلك الأسماء، وإذا سلَّمنا بها، وجدنا أنفسنا أمام أولى الخطوات التي وضعها الإنسان في اتجاه بناء العمران البشري والحضارة انطلاقاً من الدين.

اعتمد الفاروقي في إبرازه العلاقة بين الدِّين والحضارة عنصرين اثنين: أولهما تفسير وبيان "الجوهر"، وهو مرجعية الفعل البشري وتصوره، ويقصد

(١) المرجع السابق، ص٢٧.

بذلك الدين، والذي قال عنه: "لا شكّ أن جوهر الحضارة الإسلامية هو الإسلام، وأنّ جوهر الإسلام هو التوحيد."[1] وأضاف بأن التوحيد هو "ذلك المبدأ الذي يمنح الحضارة الإسلامية هُويّتها، ويربط جميع مكوناتها معاً، ليجعل منها كياناً عضوياً متكاملاً نسمِّيه حضارة،"[2] والثاني: "التجليات"، وهي أفعاله الصادرة وفق ماهية ذلك الجوهر وشروطه، وهو ما يعبّر عن تصميم محكم يتتبع كيفية صياغة العقيدة الدينية "للتصور" أو "الفعل" أو "مادة مشكلة" بصورة متقنة.

وتتمثل الطريقة التي سلكها الفاروقي في تفسيره أثر التوحيد في الإتقان والإحكام -كما يمكن استنتاجها من نصوصه- في "الرؤية الكونية". ولهذا جاء المبحث الأول من الفصل الرابع من الأطلس بعنوان "جوهر الحضارة الإسلامية" و"التوحيد بوصفه نظرة تفسّر العالم". إنّ الرؤية الكونية تدخل في إنجاز العمل المحكم أو المتقن من خلال ما توفره من المبادئ، التي تتميز بأنَّها:

- كلية شاملة، وعملية مستمدة من الوحي.
- يقينية مستقرة، وثابتة.
- مفهومة، تدخل في نظام "سُنّة الله" في الخلق.
- تنظيمية دقيقة، تدخل تحتها كل أحوال الإنسان.
- تضمُّ مقاييس كلية تقويمية لنشاط الإنسان في العالم، ونتائجها في العالم الأخروي.

وبالإضافة إلى أنّ الرؤية التوحيدية الكونية تزوّد الباحث بمجموعة الأدوات القبْلية والبعْدية التي تنير الطريق لتحصيل العلم وفهم طبيعة الأشياء،

---

(١) المرجع السابق، ص١٣١.

(٢) المرجع السابق، ص١٣١.

وإنجاز الأعمال المحكمة؛ فهي كذلك توجّه الملكات الذهنية والقدرات الإدراكية والشعورية وفق نظام دقيق وشامل ومتكامل. ووفق هذا المبدأ، فسّر الفاروقي نظام الكون المتقن قائلاً: "فقد كان [الأمر] الإلهي عميق الصلة بالعالم الذي خلق. فإرادة الخالق هي ما يجب أن تكون عليه الخليقة، وأوامره ما يجب أن تفعله. وكان تصور هذه الإرادة أنها في اللب من الطبيعة، إذ يمكن إدراكها عن طريق الحدس أو تفسير النُذُر... وقد تمّ فعل الكشف هذا من جانب الله، لكي يجعل إرادته معروفة ومطاعة. وتنفيذ إرادة الله من جانب الطبيعة ضروريٌّ؛ وهذه الضرورة هي بالضبط ما يجعل الخليقة كوناً لا فوضىٰ."[1]

ثانياً: دور المبادئ العقائدية في تشكيل ثقافة الإتقان

للفكرة دورها الأساسي في تصور مقاصد الإتقان، وبواعثه، ودافعيته، وكيفيات أدائه، واستدامته، والتطلع لآفاقه المعنوية والمادية في الآجل والعاجل. كما أنّ هناك بعض المقاييس الأخرىٰ التي تكشف عن الجوانب الذاتية للإتقان كالذكاء أو المكتسبة مثل: المواهب والمهارات والقدرات، والجينية الوراثية في شخصيات الأفراد، مما يستلزم كله تفعيل العقيدة الدينية. العقيدة جوهر روح الإنسان، ولا تعدّ من الفروق البشرية إلا بقدر درجات إيمانهم ومدىٰ صلاحهم. قال الله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢﴾ [التغابن: ٢]. إنّ الفروق الفردية في قوة العقيدة معتبر كذلك في تفاضل المسلمين، خصوصاً فيما يحققونه من درجات التقوىٰ والورع والسبق والعطاء، يقول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝١٣﴾ [الحجرات: ١٣].

---

(١) المرجع السابق، ص٩١.

والباحث في شأن العقيدة والمجتمع يلاحظ أنّ ثمة نقصاً كبيراً في الأعمال العلمية التفصيلية والتطبيقية، التي تبين للناس طرق تفعيل العقيدة في الحياة اليومية وتأثير على جودة مختلف الأنشطة التي يقوم بها الفرد والمجتمع. فمجموعة من الدراسات عن أثر العقيدة الإسلامية في جوانب حياة الإنسان المتوفرة حالياً غير كافية كماً ونوعاً بسبب سيطر الصيغة النظرية عليها،[1] وهي بذلك تقدم فقط المضمون التاريخي والمعرفي الأساسي دون الدخول في تجربة الإتقان والتحديات التي تحيط بالمسألة؛ ذلك لأنّ غرضها الأول هو توعية الناس حول أهمية إتقان العمل في الإسلام. لكن لا بدّ أن نُدرك أنّ بناء ثقافة الإتقان، وإحياؤها في المجتمع المسلم أصبحت حاجةً ملحّة، يجب تلقى اهتماماً كبيراً من العلماء والمفكرين والدعاة، والمعلمين، والأُسر، والهيئات المختلفة في المجتمع. ودون الغوص في دراسة العقيدة الإسلامية وعلاقتها في تشييد العمران والثقافات الإيجابية المختلفة، التي تشكّل حيويته والتصدي للتغيرات والتحديات التي تبقي المجتمع المسلم جسداً ضعفت مناعته.

هناك قضايا كثيرة لا زالت تحتاج إلى العناية البحثية، لا سيما منها تلك التي تتعلق بمظاهر تراجع الجودة في الأعمال، ووظائف العمران البشري، والتراجع الذي تعاني منه المجتمعات الإسلامية المعاصرة. لكن نجد بالمقابل، نجاح مجموعة أخرى من الدراسات في تحليل إشكالات موضوعية مهمة،

---

(١) أبو زهرة، محمد. **المجتمع الإنساني في ظل الإسلام**، القاهرة: دار الفكر العربي، (د. ت.). وانظر:

- عزام، عبد الله. **العقيدة وأثرها في بناء الجيل**، صنعاء: مكتبة الجيل الجديد، ١٩٩١م.
- شلول، زكريا إبراهيم. **أثر العقيدة الإسلامية في السلوك الإنساني**، عمان: دار الكتاب، ٢٠٠٥م.
- يوسف، نعيم. **أثر العقيدة في حياة الفرد والمجتمع**، القاهرة: منشورات دار المنارة، ط١، ٢٠٠١م.

لكنها عجزت عن التعامل المباشر مع بعض الأسئلة الحقيقية للموضوع، فضلاً عن أن تجد لها أجوبتها المناسبة.

فعلى سبيل المثال لا الحصر، قام عبد العال سالم مَكْرم في فصل عن "العقيدة والعمل" بالتذكير بأنّ شعار العقيدة "عِلمٌ وعملٌ"، ليسرد بعض المعلومات التاريخية، مثل عمل الصحابة رضي الله عنهم، وشخصيات إسلامية كما في قوله: "الزبير بن العوام كان خيَّاطاً، وعلي بن أبي طالب –رضي الله عنه– يسقي، وسعد بن أبي وقاص يبري، وعمرو بن العاص كان جزَّاراً، والمهلّب بن أبي صفرة كان بستانيا،"[1] وذكر قصة "أبو مسلم الخولاني" مع الخليفة معاوية بن أبي سفيان الذي خاطبه باسم الأجير بدل الأمير، وعرّج على ذكر بعض الأحاديث في الحث على العمل كقوله ﷺ: "إن الله يحب العبد المحترف، ويكره العبد البطَّال"، و"أفضل الكسب كسب الرجل بيده". وعندما بدأ بإثارة الأسئلة، جاءت أسئلته معلومة الإجابة مسبقاً؛ لأنه يتساءل عن مشروعية التصرف في الملكية المكتسبة وموقع القيود، ويقارن موقف الإسلام بالشيوعية والليبرالية، لينتقل بعدها إلى الأوقات المفضلة لطلب الرزق؛ مدعماً ذلك بأحاديث رسول الله ﷺ، وحادثة الهجرة. أما في بيانه مسألة "ارتباط العقيدة بالعمل"، فاكتفى بإظهار تعجُّبه من حثِّ رسول الله على إتمام غرس الفسيلة إذا همَّ بها أحد ولو قامت الساعة، وهو الحديث الذي استند إليه في تأكيد ما سمَّاه كذلك "قدسية العمل"، إضافة إلى استدلاله بقلة عدد ركعات صلات الفجر كدليلاً للتخفيف على الناس من أجل السعي وراء الأرزاق.[2]

إلى جانب هذه الدراسة، يجب الإشارة إلى مجهود عبد السلام الرياح،[3]

---

(١) مكرم، سالم. **العقيدة والعمل**، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٨م، ص١٠٠.

(٢) المرجع السابق، ص١٠٨-١٠٩.

(٣) الرياح، عبد السلام. **عقيدة التوحيد وأثرها في إتقان العمل والإبداع فيه**. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩م.

الذي كان موفقاً إلى حدّ ما في تبيان تفاصيل معتبرة، وربط أثير العقيدة بإتقان العمل والإبداع فيه، واتجه فيه إلى فتح نافذة البحث في الإتقان والحياة العملية عوض الاكتفاء بعرض الحيثيات التاريخية والنظرية للمسألة. وهو القائل أن "عقيدة التوحيد عملية تسعى إلى التطبيق والممارسة أكثر مما تسعى إلى القول والتنظير، ومن ذلك تستمد واقعيتها التي يرتبط المسلم من خلالها بربه وذاته ومحيطه الذي يعيش فيه، مقيماً علاقاته على الاعتماد على الذات في العمل الدائم والمتوازن فيه، من أجل تطوير أوضاعه وتحسينها وطبعها بطابع الصلاح."[1] وقد عقد في كتابه عدة فصول تنزل بالموضوع إلى الساحات التطبيقية، فعلى سبيل المثال في المبحث الرابع من الكتاب الذي حلل فيه "عقيدة التوحيد وتطبيقاتها العملية" تناول فيه عدة مسائل ذات طابع تطبيقي من بينها: مسألة التربية والتعليم، والصحة، والعمل، والسكن، والخدمات الاجتماعية.

إنّ بحث الجذور العقائدية للإتقان لا ينبغي أن يكون تمريناً فلسفياً مجرداً، بل استكشاف تطبيقي لمكونات الفطرة الإنسانية في انفعالها مع مجالها العمراني الحيوي، وفيما يأتي بعض الكليات التي تؤطر ذلك التفاعل الذي يجب أن يعتمد في تحديد ماهية العمل والإتقان فيه.

١- العقيدة مكوّن أساسي لطبيعة الإنسان وفطرته،[2] والإنسان كائنٌ ديني قبل أن يكون كائناً اجتماعياً بطبعه، فهو يتصرف مطلقاً بما توفّره له

---

(١) المرجع السابق، ص٢٨.

(٢) ففي الحديث الذي رواه أبو هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ تُنْتَجُ الْبَهِيمَةَ، هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ" انظر:

- البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب: الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، ص٣٢٧، الحديث رقم: (١٣٥٩).

عقيدته من التصورات والمفاهيم الكلية بخصوص أصل خلقه وغاية وجوده وطبيعة العالم المحيط به وأسلوب حياته. وقد أخطأت الاتجاهات الفكرية في أوروبا في القرن الماضي حين حاولت تفسير الظاهرة الدينية من خلال أعراض النفس الإنسانية كالفراغ النفسي أو الخوف أو حتميات الاجتماع كالقوانين وأعراف الجماعات البشرية وطقوسها، التي لا تدل على نمط علاقتهم بالعالم الطبيعي المادي ووجودهم الروحي المعنوي.[1] هذا ونجد أن مفردات القرآن التي تصوّر العقائد المنحرفة لم تُقِرَّ أبداً بوجود جماعات بشرية خارج تأثير دوائر المعتقد الديني، فالعبودية صفات لازمةٌ للإنسان وللمجتمع البشري، منها ما بقي سليماً، ومنها ما اتخذ صوراً وأشكالاً مختلفة، وتظل في مجملها تنادي بأن الزيغ عن عبادة الله تعالى انكار للفطرة ومقاومة لها. ولعل هذا ما يفسر المعنى اللغوي لكلمة "الكفر" والذي هو "السَّتر والتغطية،"[2] والذي ورد في القرآن الكريم بمعنى إخفاء حقيقة الدين وردّ شرائعه.

٢- لا يلزم من اختلال العقيدة الدينية لإنسان ما، غياب أنواع جزئية من الإتقان، كالتي تتجلّى مثلاً في كثير من الأعمال التي يُرجى منها تحصيل المنافع المادية أو المعنوية والمكاسب الإنسانية العامة. وسبب ذلك فيما يظهر أنّ الله تعالى جعل القدرات الأساسية للملكات الإنسانية وسائل مفتوحة على اتجاهات الخير والشرّ على السواء في خدمة مالكها، يتم توظيفها في الهداية أو الغواية. ومن رحمته تعالى أن جعل أبواب الهداية مفتوحة، ولم يجعل من الضلال نتيجة جبرية أو حتمية، بل محصول الإرادة الحرة. وهنا يأتي دور الفطرة والقدرات الذهنية والشعور والإحساس؛ لتذكر صاحبها بحقيقة

---

(١) فتاح، عرفان عبد الحميد. "الفكر الديني المعاصر وتحديات الحداثة"، **مجلة إسلامية المعرفة**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، السنة (٧)، العدد (٢٦)، ٢٠٠١م، ص٢٥-٢٦.

(٢) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، ج٥، ص ١٩١.

المخلوقات وأصلها، وأسلوب الحياة الصحيح، كما تزوّده ببدهيات الاستقامة الأساسية، وشروطها النفسية والمعنوية اللازمة.

ولنا في اليابانيين مثالٌ حيٌّ لخَّصَ مكوناته وآلياته ناصر يوسف قائلاً: "إنّ مثل هذا النهوض الاقتصادي السريع من داخل الأنموذج الإنمائي الياباني المركَّب مرهونٌ بإنسانٍ ناضج، وقيمٍ فاعلة، وعملٍ مستمر، وعناءٍ متواصل، وطموحٍ غير محدود، وتضحيةٍ مثيرة، وادِّخارٍ عالٍ، وقيادةٍ حكيمة؛ وكل هذا معاً يُشكِّل الصورة الأفضل للتنمية المتمحورة على الذات."[١]

لكن على رغم بُعد عقائد اليابان الدينية عن حقيقة الألوهية، غير أنهم يحرصون أشد الحرص على إتقان أعمالهم الدنيوية، إلى درجة يتحوّل فيها الإتقان إلى عقيدة دنيوية تشكل الفضاء الثقافي للرجل الياباني، وهي العامل الحاسم الذي يفسّر وصفهم لها "بالمعجزة أو التجربة اليابانية". لقد تمكّن المجتمع الياباني من تجاوز كثير من المشكلات من خلال استحداث الإصلاح التربوي الذي ركّز في أحد جوانبه على تبسيط منهج العقيدة البوذية، بحيث أفضى إلى ظهور تعدُّد عقدي داخل العقيدة البوذية، وهو الأمر الذي جعل "الدين في متناول العامَّة من الناس؛ لأنّ البوذية بطقوسها المعقَّدة التي ابتكرها الكهنة الجدد، ظلَّت حِكراً على الطبقة الأرستقراطية؛ مما جعل ثروة كهنتها تزداد قرناً بعد قرن، بينما لبث الشعب فقيراً على حاله."[٢]

---

(١) يوسف، ناصر. "مقولات التحديث الإنمائي المشتركة بين اليابان وماليزيا: الإنجاز والاستمرار" **مجلة الإسلام في آسيا**، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، المجلد (٥)، العدد (2)، ديسمبر ٢٠٠٨م، ص٣٦.

(٢) ديورانت، ويل. **قصة الحضارة: الشرق الأقصى، اليابان**، ترجمة: زكي نجيب محمود، بيروت: دار الجيل، (١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م)، مجلد ٥-٦، ص٧١، لخصه ناصر يوسف. انظر: =

يشبه هذا التفسير محاولات ماكس فيبر (Max Weber) ربط جذور النظام الرأسمالي بالعقيدة البروتستانتية،[1] مؤكّداً دورَ التصورات الدينية في التغيير، وفي تحديد السلوك الاقتصادي للفرد والجماعة. غير أنّ الذي يعنينا هنا ليس التحقق أو امتحان صحّة هذه المذاهب، بل تاكيد أن محددات الإتقان وشروط العمل تشكلها عوامل متعددة، من بينها مثلاً وجود متغير واحد حاسم على الأقل، يأخذ موقع المرجعية العليا ومصدر العزم، الذي يستلهم منه الإنسان فلسفة ودافعية الأداء المتقن. ففي مثال اليابان السابق، رجّح إزرا فوجل (Ezra F. Vogel) ظاهرة الإقبال الجماعي المستمر لطلب المعرفة المتجددة أن تكون العامل الحاسم وراء المعجزة اليابانية. قال: "لو أن هناك سبباً وحيداً يفسّر بمفرده نجاح اليابانيين، لكان هذا هو سعيهم الجماعي الموجّه طلباً للمعرفة. ففي كل مؤسسة مهمة، وفي كل مجتمع ابتداء من الحكومة المركزية إلى الشركات الخاصة، ومن المدن إلى القرى، وحيث يشترك الناس في اهتماماتهم العامة، تشعر القيادات الغيورة بالقلق على مستقبل مؤسساتها، ولا يهمها شيء بقدر ما يهمها الحصول على المعلومات والمعارف التي تحتاج إليها جماعاتها يوماً ما."[2]

ويتشكّل هذا العامل بالتوازي مع بناء شخصية الإنسان والمجتمع والأمة التي ينتمي إليها. فالعوامل والأسباب التي تدفع مجتمعاً ما إلى إتقان ما في يده من الوظائف والأعمال لن تكون دوماً هي نفس في مجتمع آخر، هذا مع الإقرار بمساحة الاشتراك والتوافق الكبير بين هذه المجتمعات. إننا

=- يوسف، "مقولات التحديث الإنمائي المشتركة بين اليابان وماليزيا: الإنجاز والاستمرار"، مرجع سابق، ص٤٢.

(١) في كتابه "**الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية**" الذي ألفه سنة بين سنتي ١٩٠٤-١٩٠٥.

(٢) فوجل، إزرا ف. **المعجزة اليابانية**، ترجمة: يحيى زكريا، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦م، ص٤٢.

نبحث عن العامل الحاسم، الذي يتعلق بأصول الدافعية ومصادرها، مما يحرِّك إرادة الإنسان تجاه العمل والإتقان والتفاني في إنجازه بكل ما هو متاح من موارد وموارد عمرانية أخرى مثل الدِّين، والقيم، واللغة، والعلم، والثقافة، والتقاليد، والتاريخ، والطموح، والعلاقات الاجتماعية، وغيرها.

٣- تدعو العقيدة الإسلامية أتباعها إلى إتقان أعمالهم، وتحفظهم عما يشين من الأعمال والأفعال، سواء تعلّق ذلك بالشروط النفسية أو الوسائل والكيفيات، أم بالنتائج والمآلات. فالعجز والكسل آفات تفـ ٠ الدين وتسلب الأعمال جودتها وجمالها، وهو ما كان يتعوذ منه رسول الله ﷺ.[١] كما جعل الإسلام الإحسان بمعنى "كمال الفعل" أمراً محموداً، بل مطلوباً، في حين قدّمت العقيدة الرصيد الروحي والنفسي والسلوكي للأفراد، ليتمكّنوا من أداء الأعمال بإتقان. ومن أولى الشروط صفاء النيات والتوجهات وإخلاصها، سواء في المراحل القَبْلية والبعدية للأفعال. إنّ قيمة الأعمال في الحقيقة تساوي حجم نيات أصحابها، وهي الفكرة التي صاغها محمد عبد الله دراز في شرحه لحديث رسول ﷺ حين قال: "إن الأعمال لا توجد (أخلاقياً) إلا بالنوايا،"[٢] وهو ما ورد في حديث عمر بن الخطاب قال: قال رسولُ الله ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، باب: كتاب: الجهاد والسير، ما يتعوذ من الجبن، الحديث رقم: (٢٨٢٣). وانظر أيضاً:

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: التعوذ من العجز والكسل وغيريه، الحديث رقم: (٢٧٠٦).

(٢) دراز، محمد عبد الله. **دستور الأخلاق في القرآن: دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن**، تعريب وتحقيق وتعليق: عبد الصبور شاهين. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٧٣م، ص٤٣١.

ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه."[1]

كما أنّ للثواب أيضاً دورَه الهام في تصويب وجهة الأداء ومستواه. وإن وحدة قياس الأعمال كما وردت في القرآن أدق من الثواني التي في القياس الزماني؛ فهي تناسب قياس ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [الزلزلة: ٧]. إن من المقاييس الأعمال في القرآن ما هو منصبٌّ على حساب الكمال "مقياس العبودية"، "مقياس الاستخلاف"، و"مقياس الإعمار"، و"مقياس التمكين"و"مقياس العلم"، و"مقياس الحكمة"، و"مقياس الصلاح"، و"مقياس الخير"، و"مقياس الأمانة"، و"مقياس القوة"، و"مقياس الاستقامة"، و"مقياس الصبر والاحتساب"، و"مقياس السرعة"، و"مقياس الإحسان"، و"مقياس الإحكام"، و"مقياس الابتلاء"، و"مقياس الأثر"، و"مقياس الشكر"، و"مقياس الحاجة"، و"مقياس اليسر"، ومقياس "المحافظة"؛ ومنها ما يخص بتعيين النقصان مثل "مقياس الفساد"، و"مقياس الشرّ"، "مقياس الإسراف"، و"مقياس الإفراط"، و"مقياس التبذير"، و"مقياس التعدي". تعكس هذه المقاييس منظومة توحيدية جاهزة تيسّر الأداء المتقن ضمن ظروف العمران البشري وسننه. وقد ذكر القرآن الكريم حالات تبرز أهمية اعتبار هذه المعايير في أداء الأفعال، مثل مقياس القوة والأمانة للعفريت حين عرض خدمته على النبي سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ [النمل: ٣٩] أو مقياس العلم والابتلاء والشكر كما ورد في القرآن الكريم: ﴿قَالَ ٱلَّذِى

---

(١) حديث متفق عليه. انظر:

- البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث رقم: (١).

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ: "إنما الأعمال بالنية"، حديث رقم: (١٩٠٧).

عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٞ ۝٤٠﴾ [النمل: ٤٠]. أما في سورة يوسف فنجد إبراز صفات أخرىٰ مثل المحافظة والعلم. يقول الله تعالىٰ علىٰ لسان يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ۝٥٥﴾ [يوسف: ٥٥]. وقد أحسن عبد المجيد النجار في عرضه لطرق تأثير العقيدة في الفعل الإنساني، فهو يرىٰ توقّف عمل العقيدة في عملية الدفع الحضاري علىٰ: "تحمّل المسلمين لها، فإن كان تحمّلها يجري علىٰ حال صفائها وصحتها كما جاءت عليه في حقيقتها من جهة، وكان يجري من جهة أخرىٰ علىٰ عمق من النفوس بحيث تأخذ بمجامعها، وتحشد قوامها، أفضىٰ ذلك إلىٰ الدفع الحضاري، وإن كان ذلك التحمل يجري علىٰ حال تكون فيه صورة العقيدة علىٰ انحراف وتشويش أو تجزئة واختصار، وكان من وجهة أخرىٰ يجري علىٰ حال لا تتجاوز فيه العقيدة مجرد أفكار وخواطر ومعلومات تقع في الأذهان، ولا تُنَفَّذ لتأخذ بمجامع القلوب، فإنها حينئذ تتعطل دافعيتها للنفوس، فلا يكون لها أثر يذكر في الفعل الحضاري، ويكون إذن التراجع والانحسار في التحضر، ويكون العجز عن النهوض لاستئنافه من جديد."[1]

كما أشار النجار أيضاً إلىٰ مسألة أخرىٰ مهمة تعين علىٰ استيعاب العلاقة وموقع العقيدة في توجيه الإرادة الإنسانية نحو صناعة الفعل المتقن. ففي المجال الذي يقع خارج عقيدة التوحيد، يكون تفسير العلاقة ضمن أشكال مختلفة، تتنوع حسب طبيعة المشكلات التي تسببها تلك العقائد. لكن حين يكون الأمر متعلّقاً بالعقيدة الإسلامية، فعندئذ يتوجّه النظر والمراجعة

(١) النجار، عبد المجيد. "دور الإصلاح العقيدي في النهضة الإسلامية"، **مجلة إسلامية المعرفة**، المجلد (١)، العدد (١)، ١٩٩٥م، ص٥٧.

والتحقيق إلى حامل العقيدة وليس إلى ذات العقيدة. ولذلك جاءت فكرة النّجار حول مراجعة ما سماه "تَحَمُّل العقيدة" مناسبة، خاصّة مع ورود أصل فعل "التَحَمُّل" في القرآن ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥﴾ [الجمعة: ٥]، وقد ذكر الإمام فخر الدين الرازي (توفي: ٦٠٦هـ) أن معنى "الحمل" "أي حُمِّلُوا العملَ بما فيها، وكُلِّفوا القيام بها." وقال صاحب النظم: "ليس هو من الحمل على الظهر، وإنما هو من الحمالة بمعنى الكفالة والضمان، ومنه قيل للكفيل: الحميل، والمعنى: ضمنوا أحكام التوراة، ثم لم يضمنوها ولم يعملوا بما فيها."[1]

ويقوم الحمل على تحقيق أربعة شروط، هي: الفهمُ، وهو ما يعنيه بتصور العقيدة على حقيقتها، والتصديق بحقيقتها في اتجاه علاقتها بالوحي والواقع الإنساني معاً، واعتبارها مرجعية الفكر في توجيه جهد الإنسان المسلم في البحث، وصيرورتُها الدافعة لإرادته إلى الفعل والإنجاز.[2] إنّ وقوع إرادة الإنسان تحت تصرف العقيدة يلزم المسلم تبنّي سلوك الإتقان، واعتبار ما عداه أمراضاً نفسية وثقافية تستدعي العلاج، وأول خطواته النظر في أحوال الاعتقاد. وقد نبَّه إلى هذا العلاج الاجتماعي ابن خلدون في "المقدمة" حين أكّد في عديد من المناسبات تأثير حالة الديانة في بنية العمران البشري وأحواله. وتبنّياً لمقولة ابن خلدون في تأثير الديانة على العمران، أشار النجّار إلى ضرورة النظر في ترتيب مفردات "علم الكلام"، الذي كان يوماً صناعةً وعلماً دفاعياً استخدمه العلماء لدحض الآراء المخالفة للإسلام، واجهوا بها التحديات التي

(١) الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مرجع سابق، ج٣٠، ص٥.

(٢) النجار، "دور الإصلاح العقيدي في النهضة الإسلامية"، مرجع سابق، ص٥٨.

وضعها أمامهم أصحاب الديانات الأخرى، وضرورة الاهتمام بترتيب مفردات العقيدة وفق ما تقتضيه الدعوة عِوَض تعلُّقها غير المجدي بقضايا قديمة تعود إلى مراحل الاستقطاب والفرق. وهذا التوجه يقوم على شرط النظر في مفردات العقيدة وفق ما تقتضيه أحوال العمران البشري الإسلامي، والحاجات التي يتطلبها إعادة بناء الأمة الإسلامية وإعادة بناء الإنسان، مما يقوم على أصل علم العقيدة الإسلامية الذي وصف غايته محمد عبده بالآتي: "القيام بفرض مجمع عليه، وهو معرفة الله تعالى بصفاته الواجب ثبوتها له مع تنزيهه عما يستحيل الاتصاف به، والتصديق برسله على وجه اليقين الذي تطمئن به النفس اعتماداً على الدليل، لا استرسالاً مع التقليد، حسبما أرشدنا إليه الكتاب، فقد أمر بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون وما يمكن النفوذ عليه من دقائقه، تحصيلاً لليقين بما هدانا إليه، ونهانا عن التقليد بما حكى عن أحوال الأمم في الأخذ بما عليه آبائهم."[1]

أما الجانب الآخر فيتعلق بضرورة الاعتناء بأثر اليقين في صياغة حياة الإنسان المسلم ومحيطه الثقافي والاجتماعي، والسير في علاج الأوضاع التي تخالف امتداده في الفكر والوجدان والسلوك. إن غياب هذه الجوانب في العلم الذي حمل على عاتقه حماية العقيدة والذبِّ عنها، والتحول السلبي الذي لحق بمناهج وطرق المتأخرين المتلبسة بمباحث الفلسفة المجردة ذات الجذور اليونانية الإغريقية، دفع بعديد من العلماء المسلمين إلى التحذير من الخوض في علم الكلام، مثل أبي إسماعيل الهروي (توفي: ٤٨١هـ) في كتابه "ذم الكلام وأهله"، والغزالي (توفي: ٥٠٥هـ) في كتاب "إلجام العوام عن علم الكلام"، وابن خلدون (توفي: ٨٠٨هـ) في "المقدمة". يقول ابن خلدون في

(١) عبده، **رسالة التوحيد**، مرجع سابق، ص٣٢.

فصل "علم الكلام": "وعلى الجملة، ينبغي أن تعلم أنّ هذا العلم الذي هو علم الكلام غير ضروري لهذا العهد على طالب العلم؛ إذ الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا، والأئمة من أهل السنة كفَونا شأنهم فيما دوّنوا وكتبوا. والأدلة العقلية، إنما احتيج إليها لما دافعوا ونصروا. وأما الآن، فلم يبق منها إلا كلامٌ يُنـزَه الباري عن كثير إيهاماته وإطلاقاته."[1]

إن تحوّل علم العقيدة إلى تمرينات ذهنية مجردة في الجدل بعيداً عن مقاصد الوجدان والسلوك، قد تسبَّب في هيمنة المسائل الجانبية الهامشية، التي يمكن اعتبارها ضمن مجموعات "المنعكسات الشرطية" التي تمّ تناولتها على حساب المقاصد العملية من العقيدة، وفي انكماش أثره في حياة الأفراد والجماعة، ناهيك عن الانحرافات التي وقعت فيها. إننا نلحظ اليوم في محيطنا الإسلامي فشلاً ذريعاً وإخفاقاً رهيباً في ربط العقيدة بمختلف النشاطات العلمية والاجتماعية والعمرانية، ولعل السبب هو الصورة المدرسية لعلم الكلام، والتي مزجت فيها بلوثة مباحث الفلسفة ومناهجها، مما نتج عنه تحولات سلبية في فهم العلاقة بين العقيدة والمجتمع، وقيمة الفعل الإنساني بالخصوص، وهو ما يدخل فيما سمَّاه ابن خلدون بعامل "جودة التعليم"، الذي يرى أنه "بقدر جودة التعليم وملكة العلم يكون حذق المتعلم في الصناعة وحصول الملكة،"[2] والملكة المقصودة في مجال العقيدة هي ما أشار إليه النّجار من "حملها" والعمل بها وفق أحكامها وتصوراتها التي يمكن الاستغناء عنه في بناء القدرات والمهارات والملكات اللازمة للإتقان.

---

(١) الحضرمي، **مقدمة ابن خلدون**، مرجع سابق، ج٣، ص٣٦.

(٢) المرجع السابق، ج٥، ص١٣٥.

من خلال وقوفنا عند بعض ما جاد به بعض علماء المسلمين في تحديد لمفهوم الإتقان إلى أن الإتقان تصورٌ مركبٌ ورؤيةٌ شاملةٌ للفعل الصالح، تشكّلها جملةٌ من الأبعاد الدينية والنفسية والعمرانية. كما تبيَّن أيضاً اهتمام علماء المسلمين بدراسة النفس والفطرة الإنسانية، ومقاصد الشريعة، وتحرِّي المصلحة العامة، بوصفها نظماً وأطراً وبواعث ذاتية، لتحقيق الإتقان. وقد أَلَّف علماء الإسلام حول أشكال الإحكام والإتقان في مختلف المجالات العلمية والعملية، فالمسلم يفكِّر ليعمل، ويعمل ليتقن، فالإتقان إذن، عقيدةٌ وملكةٌ وسلوك، تتجلّى فيها كثيرٌ من العلوم والمعارف والقدرات والمهارات في امتحان الأفعال والأعمال ورفع مستويات حُسنها وجودتها. ويتجلّى الإتقان كذلك في التدبير والحكم والإدارة والسياسة، وبحكم سعي المسلم إلى نفع مجتمعه وحماية كيانه، فإن الإتقان عملٌ جماعي ومؤسساتي، فالمدرسة، والمكتبة، والورَّاقة، والمستشفى، وبيت المال، والوقف، والحسبة، وغيرها من المؤسسات والأنظمة المتميزة قد شُيِّدت بإحكام وتدبير؛ لتلبي حاجات المجتمع والأمة، ولتخدم الإنسانية.

الفصل الرابع:

الإتقان في العمران الإسلامي

تمهيد:

الإتقان ظاهرة متعددة الأبعاد؛ منها ما هو نظري تصوري وأخرى عملي تطبيقي، بحيث لا تكتمل صورته وتتحقق فعالته إلا بعدما ينتقل التصور إلى مراتب العمل، ومنتجات ملموسة تخدم الإنسان وتغير واقعه إلى ما هو أفضل. وهذا التحوّل من النظري إلى العملي حدث في تاريخ الأمة الإسلامية، بحيث لم يبق الإتقان كلامٌ يُذكر في حلقات الوعظ، بل تحول إلى ثقافة عمل مكّن المسلمين من تقديم إسهامات لا تستغني عنها البشرية حتى يومنا هذا، كتطوير منهج البحث العلمي وخطواته. ففي غضون مئتي وخمسين عاماً، استطاعت هذه الأمة برصيدها في الإتقان أن تتصدّر الأمم، وتقدم أروع خدمات للبشرية في مختلف المجالات الحيوية كالطب، والهندسة، والجغرافيا، والفلاحة. فهذه الطفرة الحضارية لا يمكن تفسيرها بالصدفة أو بعوامل أخرى موضوعية تخرج عن سبب أو شرط مراعاة مقاييس الإبداع والابتكار والإتقان، وتبني نظمه ووسائله في مختلف المجالات. تأكيداً لهذه الفرضية نحاول في هذا الفصل عرض نماذج من جهود الإتقان عند المسلمين في ثلاث مجالات: المدرسة الإسلامية ونظام الحسبة، والفن الإسلامي.

أولاً: نموذج المدرسة الإسلامية

يمكن اعتبار المدرسة الإسلامية ونظامها التعليمي والتربوي في تاريخ الحضارة الإسلامية امتداداً طبيعياً لمدرسة النبوة، فقد كان منشؤها الأول المسجد النبوي، وموادها الأساسية علوم الإسلام ومناهج تبليغه والدعوة

إليه. وبانتشار الإسلام واتساع رقعته الفكرية والثقافية، ولتلبية الاحتياجات المتزايدة إلى العلوم والمعارف داخل دار الإسلام وخارجها، تطوَّرت المدرسة في اتجاهات متنوعة لمواكبة التطور العلمي والمعرفة الإنسانية. ولمعرفة فلسفة الإتقان وتجلياته في مؤسسة المدرسة، ويمكن النظر إلى مسائل، منها: الرؤية الكلية للعلم والمعرفة، ومنهجية التعليم والبحث، والإدارة والتسيير، وطبيعة الإنجازات والإسهامات. كما يمكن أيضاً الوقوف على قضايا أخرى تدخل في إطار الإحكام والإتقان، مثل أساليب المدرسة في حل المشكلات تتعلق بجودة التعليم وعوائقه كالتقليد.

تقوم الرؤية الكلية للمدرسة الإسلامية على التوحيد والشمول والتكامل المعرفي والمنهجي. ولا يقصد بطلب المعرفة ثمراتها المادية الصرفة، كما ينظر إلى العلوم والمعارف "صبغة في العمران" لا مجرد معلومات توظف للكسب والربح المادي، كما هو الحال في التعليم اللاديني أو "العلماني" (Secular)، بل غاياتها الروحية والمعنوية أرقى، وأشرفها القرب من الله تعالى ونيل رضاه. وقد أصاب عرفان عبد الحميد حين جَزَمَ "أنّ لكل "دائرة حضارية كبرى" نظريتها المعرفية، التي تحدد لها خصائصها الجوهرية، وتمنحها هُويتها الثقافية والاجتماعية المتميزة، وتكون النظرية المعرفية عادة مرآة تعكس أوجه نشاطاتها الفكرية المتعددة على مستويات ثلاثة متداخلة: "عقيدة جامعة"، و"مواقف أخلاقية متماثلة"، وهوية اجتماعية مشتركة."[1] ولما كان هذا هو المقصد، لم تنحصر لوازم التعليم فقط في عدِّ المؤهلات الذهنية والمهارات العقلية، بل أيضاً في رعاية الأحوال الروحية الإيمانية والأخلاقية، واعتبار أبعاد الإنسان والكون في جانبيه، الغيبي والمشاهد،

(١) فتاح، عرفان عبد الحميد. "معالم نظرية المعرفة في القرآن الكريم" في: **نحو نظام معرفي إسلامي**، تحرير: فتحي حسن ملكاوي، عمان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٠٠م، ص١٥١ – ١٥٢.

ضمن تصوره المتكامل والشمولي المتوازن.

١ - سيادة مبدأ التوحيد والتكامل بين العلوم الدينية والطبيعية:

لم تكن فكرةُ الفصل بين العلوم الدينية والدنيوية أو "العمران" تصوراً إسلامياً أصيلاً بالرغم من تداولها بكثرة في أسلوب تقسيم العلوم وتصنيفها عند المسلمين على شكل التفرقة بين العلوم النقلية والعقلية. فمفهوم "العلم" ينطبق على الوحي الإلهي وعلومه، وعلوم العمران البشري، وعلوم العمران الطبيعي. وكل هذه العلوم تطورت تحت الرؤية التوحيدية[1] ومنهجيته في إثبات الحقائق المختلفة بسلطان البرهان والدليل والحجة التي قدّمها الإسلام للإنسانية. ففي كثير من المناسبات، يحثُّ القرآن على ممارسة الملاحظة والتفكير في مخلوقات الله تعالى وآياته الكونية وخفاياها، بل يُعلي من شأن ودرجات الإنسان الذي يمارس هذه المهارات العلمية ويمنحه ألقاب الرفعة المختلفة مثل: "العلماء"، و"أولو الأبصار"، و"أولو الألباب"، و"أولو العلم"، و"العالمون"، و"الراسخون في العلم". ففي سورة آل عمران يربط القرآن مباشرة بين صفة أولِي الْأَلْبَابِ؛ أي ذوي العقول الراجحة، بالتفكر في خلق السماوات والأرض، ونتيجة ذلك التفكير الطبيعي السليم الذي ينفي الرؤى الكونية الخاطئة والمنحرفة التي تُدعى العبثية والصدفة والدهرية، وغيرها من التأويلات البعيدة عن الحقيقة. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

والمدرسة الإسلامية، وإن كان مجال اهتمامها الأساسي منصبٌّ على تعليم علوم الوحي أو الدينية لحاجة المجتمع الكبيرة، لم تلبث أن توسّعت، لتشمل

---

(١) الفاروقي، **التوحيد ومضامينه على الفكر والحياة**، مرجع سابق، ص١١١-١٢٢.

مختلف العلوم والمعارف اللازمة للعمران الإسلامي. فالحساب، والجغرافيا، والطب، والرياضيات، والفلك، والهندسة والكيمياء مثلاً مجالاتٌ علميةٌ أدرجت في التعليم في مراحل متقدمة من تاريخ التعليم الإسلامي. ففي العهد الأيوبي على سبيل المثال أسست كثير من المدارس الدينية، لتقاوم وتطهر ما غرسه الشيعة الفاطميون من عقائد باطلة، ولما تراجع النفوذ الشيعي "الديني"، أمر المستنصر أن يعيّن طبيب حاذق بالمدرسة المستنصرية ليعلم، الطلبة علم الطب.[1] ومن خلال هذا الاستيعاب والتكامل استطاعت المدرسة الإسلامية أن تنجب كثيراً من العلماء الموسوعيين، ممن أبدعوا وساهموا في النمو النوعي للمعرفة الإنسانية، وأتقنوا فهم السنن الإلهية في العمران البشري والعالم الطبيعي، وأحسنوا في استخراج فوائد العلوم، مثل الخوارزمي، وابن الهيثم، والجزري، وفخر الدين الرازي، والبيروني، وابن خلدون، وغيرهم.

٢- التربية والتأديب في التعليم:

لم يكن الهدف الأساسي للمدرسة الإسلامية نقل المعرفة النظرية أو المعلومات إلى الأجيال الجديدة فحسب، وإنما بناء "الإنسان الخليفة" و"العبد المؤمن" الذي جعله القرآن الكريم مناط حمل الأمانة وتأديتها على أحسن الوجه. ولهذا ركز النظام التعليمي للمدرسة إضافة إلى نقل المعارف وتطوير العلوم النظرية والتطبيقية، على المقاصد الأخلاقية، لتصبح أقرب إلى مركز تنشئة تربوي تأديبي؛ يُعنى بتنمية قدرات الطالب وتوجيهه، أخذاً بعين العناية والاعتبار أبعاده الفطرية، روحية كانت أو نفسية، سلوكية أو اجتماعية.[2] وفي ضوء هذه

---

(١) شلبي، أحمد. **تاريخ التربية الإسلامية**، القاهرة: دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، ١٩٥٤م، ص٩٩.

(٢) ملكاوي، فتحي حسن. **الفكر التربوي الإسلامي المعاصر: مفاهيمه ومصادره وسبل إصلاحه**، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٢٠م، ص٤٢٨.

الرؤية، كان للمدرسة في التاريخ الإسلامي وظائف إنسانية نبيلة ترتكز على التعليم والتربية والتأديب والتزكية، وبذلك تمكّنت من الجمع بين تأديب النفس، وتصفية الروح، وتثقيف العقل، وتقوية الجسد.[1] تشمل وظيفة المربي ثلاث دوائر تعليمية، هي: النفس وتعالجها التزكية، والعقل، وينميه بالتعليم، والسلوك، ويحسنه التأديب والتهذيب. فالتحلّي بالأخلاق وتزكية الأنفس مقاصد لا تنفك عن طلب العلم وتفرعاته، وهو النموذج التعليمي المعتمد كما نقله العلماء أمثال الزرنوجي (توفي: ٦٢٠هـ) في كتابه "تعليم المتعلّم طريق التعلّم"، وما ألفه العلماء قبله مثل "أدب الصحبة" لعبد الرحمن السلمي (توفي: ٤١٢هـ)، و"الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع" للخطيب البغدادي (توفي: ٤٦٣هـ)، و"آدب العالم والمتعلم " للإمام النووي (توفي: ٦٧٦هـ)، و"تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم" لابن جماعة (توفي: ٧٣٣هـ)، وغيرهم. ولتبيان أهمية الأدب، قال أحد البلغاء: "الفضل بالعقل والأدب، لا بالأصل والحسب؛ لأن من ساء أدبه ضاع نسبه، ومن قلَّ عقله ضلَّ أصله". وقال بعض العلماء: "الأدب وسيلةٌ إلى كل فضيلة، وذريعة إلى كل شريعة."[2]

٣- تنوع وجودة المناهج العلمية:

الناظر في تاريخ المدرسة الإسلامية يظهر له حجم الاهتمام بالمنهج العلمي في اكتساب المعارف، والتمييز بين العلم والجهل، والصحيح والخطأ، والحق والباطل. وقد استمدّت أصول المناهج العلمية في المدرسة الإسلامية من الوحي الإلهي، وتمكَّنت من خلال تصحيح الأخطاء ودحض الأوهام، وتنمية المعرفة الموروثة، وتعزيز الإبداع والاختراع في إنتاج معرفة إنسانية جديدة. فقد أبدعت

(١) الأهواني، أحمد فؤاد. **التربية في الإسلام**، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٧م، ص٩-١٠.

(٢) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب. **أدب الدنيا والدين**، بيروت: دار اقرأ، ط٤، ١٩٨٥م، ص٢٤٢_٢٤٣.

المدرسة الإسلامية في ضمان الكتب التعليمية المدرسية، لا سيما بعد استفادة المسلمين المبكرة من الصينين في صناعة الورق وتطويرهم لها. إنّ دراسة الكتاب التعليمي يدلنا على فلسفة المسلمين ومناهجهم في الإتقان، فإننا لو نظرنا مثلاً إلى مناهج التأليف وأساليبها لوجدنا من سمات الإتقان الكثير، كما هو ظاهر أولاً في دقة اختيار العناوين، فالكلمات المفتاحية المشهورة كالوسيط، والجامع، والمبسَّط، والعُمدة، والتُحفة، والمبسوط، والوافي، والصَّفوة، والفتح، والشامل، والكامل، والحاوي، والمغني، والقانون، كلها تدلّ على وعي مؤلّفيها بأبعاد الجودة التربوية. هذا ولم يقتصر إتقان الكتاب المدرسي على جودة المضمون فحسب، بل تضمن أيضاً أساليب نقل المعرفة إلى الأجيال والتحسين المستمر لوسائطها. فعلى سبيل المثال، أبدع المسلمون في استعمال اللغة، وابتكروا الألفية والأرجوزة بوصفها وسائط لغوية تعين على حفظ أصول العلوم كألفية ابن سينا (توفي: ٤٢٧هـ) في أصول الطب، وأبو الحسين يحي بن عبد المعطي الزاوي (توفي: ٦٢٨هـ) في النحو، وابن مالك (توفي: ٦٧٢هـ) في اللغة، وزين الدين أبو الفضل الحافظ العراقي (توفي ٨٠٦هـ) في السيرة النبوية، وجلال الدين السيوطي (توفي: ٩١١هـ) في علم الحديث.

ومن مظاهر إتقان المدرسة الإسلامية توفيرها الكتب العلمية للعلماء وطلبة العلم على السواء، إذ كان لمؤسسات المكتبة والخزانة المؤسسات التابعة للمدرسة الدور الكبير في إغناء المعرفة وتلاقح العلوم. وإن ما يميز المؤسسة العلمية أيضاً طرق إدارتها وعمومية خدماتها، بمعنى أنها وقفية مفتوحة ومتاحة بالمجان لجميع الناس. والمكتبية الإسلامية منذ مراحلها الأولى لم ينحصر نشاطها في جمْع كتب معينة وإقصاء أخرى، بل شملت كل التخصصات والفنون، واجتهدت في دخول غمار ترجمة التراث العلمي والفكري الحضاري للأمم والشعوب الأخرى، كما كان الحال مع بيت

الحكمة الذي أسَّسه الخليفة هارون الرشيد (توفي: ١٩٣هـ)، وازدهر في عهد ابنه المأمون (توفي: ٢١٨هـ) في بغداد، والذي تمت فيه ترجمة الكتب من لغات أجنبية عدة مثل الإغريقية، والسريانية، والهندية، والآرامية إلى العربية.

ومن إسهامات المدرسة الإسلامية على سبيل المثال ردّ أصناف من شبه المعارف الضارة كعلم النجوم والسحر وغيرهما، مما شُيد على مقولات مناقضة للتوحيد والنبوة. فبعض الأسماء المشهورة التي لمعت في الفلسفة أصبحت نماذج غريبة في التفكير والتصور لشؤون المسلم وعُمرانه، لا سيما بعد المراجعات العلمية الجادة، التي من أشهرها مؤلفات "مقاصد الفلاسفة" و"تهافت الفلاسفة" و"المنقذ من الضلال" للإمام الغزالي (توفي: ٥٠٥هـ)، و"درء التعارض"، و"نقض المنطق" لابن تيمية (توفي: ٧٢٨هـ)، و"المقدمة" لابن خلدون (توفي: ٨٠٨هـ).

واستطاعت المدرسة الإسلامية من توفير المرونة اللازمة للمعلمين والمتعلمين من خلال اعتمادها نماذج متنوعة من الأساليب والمناهج التعليمية، بما يواكب احتياجات التخصصات المختلفة من جهة، ومتطلبات المناهج واجتهادات العلماء والخبراء، وهو ما أفاده ابن خلدون في مناقشة اتجاهات المدرسة الإسلامية ونقدها بخصوص تعليم الولدان في القرن التاسع الهجري، فقد نقل لنا الفروق التعليمية المنهجية الكائنة بين المدرسة الأندلسية، والمغربية (نسبة إلى المغرب الإسلامي)، والمشرقية. وأبرز تلك الفروق حاصل في تعليم مادتي تحفيظ القرآن واللغة العربية.[1] هذا إضافة إلى بروز مراكز متخصصة (دار العلوم) تُعنى بعلوم القرآن وعلوم الحديث، وخانقاه أو زوايا الصوفية، والمدارس التي تعتني بترجمة العلوم الفلسفية

(١) الحضرمي، **مقدمة ابن خلدون**، مرجع سابق، ج٥، ص٢٨٣-٢٨٦.

والطبيعية التي كان أهمها بيت الحكمة في بغداد، والمراصد الفلكية التي يتم فيها رصد الأجرام السماوية المختلفة، من نجوم وكواكب وأقمار وشهب ونيازك ومذنبات، وكل الظواهر الكونية المتاحة، وتدوين الملاحظات يفيد منها الباحثون، وتغذي العلوم، وتدعمها في كشف المزيد من أسرار النظام الكوني الإلهي المنتشرة في عدة مدن إسلامية كمراغة، ودمشق، وسمرقند، وغيرها من المراكز العلمية الكبرى، والتي تُعدّ فروعاً للمدرسة الإسلامية، المتوجهة إلى اكتشاف العالم الطبيعي وقوانينه، والاستفادة من موارده وتسخيرها لخدمة العمران البشري.

٤ – الخدمة المجتمعية:

إنّ من مظاهر الإتقان في منظومة المدرسة الإسلامية ارتباطها بالمجتمع والعمران الإسلامي، وعملها على سدّ احتياجاته المعنوية والمادية. فقد كانت العلوم التي ازدهرت تحت مظلتها علوماً عملية، واقعية غير مثالية، تخدم مقاصد الإسلام والأمة وشروط عمرانها، والعلم كما جاء في قول ابن عبد ربه نوعان: "عِلْمٌ حُمِل وعِلْمٌ استُعمِل، فما حمل منه ضرّ، وما استعمل نفع."[1] كما أن المعارف والعلوم التي فشلت في مواكبة متطلبات العمران الإسلامي ركنت إلى السكون، كما حدث لعلم الكلام في مراحله الأخير بعد تحوله عن القصد الذي وضع لأجله تحت تأثير الفلسفة والاتجاهات الفكرية المختلفة كما هو ظاهرٌ عند البيضاوي والإيجي. وقد أُسندت إلى علم الكلام مقارعة أهل البدع والانحراف العقدي باستخدام الحجج والأدلة العقلية اللازمة، فلما تحولت بوصلته إلى المعارك الداخلية، ضّعُف عندئذ دوره، وقلَّت حيويته في حماية العقيدة الإسلامية.

---

(١) ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي. **تأديب الناشئين بأدب الدنيا والدين**، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، القاهرة: مكتبة القرآن، ١٩٨٥م، ص١٩.

إنّ الخلاف واللبس والتفرق الذي سببه أصحابه مشهود إلى الحد الذي دعت إلى ظهور دعوات تحذر من تعلمه ونشره بين عامة المسلمين، مثل "إلجام العوام عن علم الكلام" أو كما في تأكيد ابن خلدون على انتفاء ضرورة تعلمه، إذ قال: "ينبغي أن تعلم أن هذا العلم الذي هو علم الكلام غير ضروري لهذا العهد على طالب العلم."[1]

هذا وتُعدُّ العلاقة بين العلم والمجتمع من الركائز الإسلامية الأساسية؛ إذ كلما كانت تلك العلاقة قوية، كان ازدهار المعارف والعلوم ونضجها أكبر، لتوقف حركيتها على نسبة تفاعلها الحي مع مسائل الحياة والعمران. وإن ضعف العلاقة بواقع المجتمع وقطاعاته في السياسة والاقتصاد والتعليم والأسرة والدولة، وأحوال والسلم والحرب، وغيرها من المجالات، التي تسبب له الجمود والسكون، وتجعله يعيش حالة العزلة والانكماش. ولعل أقرب مثال يوضح هذه العلاقة، علم الفقه الذي وضع "لمعرفة أحكام الله في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهة والإباحة."[2]

٥- التعاون وروح الفريق في البحث العلمي:

تشهد كثيرٌ من الأمثلة والنماذج في تاريخ تطور العلوم والمعارف الإسلامية بقوة لفكرة الروح العلمية الجماعية، نذكر منها في هذا المقام ثلاثة أمثلة في مجال العلوم التطبيقية والنظرية الشرعية. أولها ما حقَّقه أبناء موسى بن شاكر (أبو جعفر محمد، أبو القاسم أحمد، الحسن) تحت رعاية الخليفة المأمون (١٩٨-٢١٨هـ) ممن أجادوا البحث والعمل الجماعي المنظم لتطوير علم الهندسة الميكانيكي، وتأليفهم الجماعي "كتاب الحيل"، و"كتاب مساحة الأكر"، و"كتاب

(١) الحضرمي، **مقدمة ابن خلدون**، مرجع سابق، ج٣، ص٣٦.

(٢) المرجع السابق، ج٣، ص٣.

قسمة الزوايا إلى ثلاثة أقسام متساوية"، و"كتاب الشكل المدور والمستطيل"، و"كتاب الشكل الهندسي"، و"كتاب حركة الفلك الأولى". أما المثالان الآخران، فإنهما أسَّسا لفترتين من أهم فترات تاريخ التشريع الإسلامي؛ كانت الأولى مع الإمام الأعظم أبي حنيفة (توفي: ١٥٠هـ)، والذي كان اختار له أصحاباً يجتمعون إليه، فيطرحون المسائل ويتناظرون ساعة، فلربما اتفقوا مع أبي حنيفة وربما استقلّوا، وهو الجهد الجماعي الذي أسماه الشيخ محمد أحمد الراشد بنادي التأصيل،[١] ولأعضائه وأتباعه الفضل الكبير في تأسيس مدرسة الرأي الإسلامية. أما الآخر، فيعود لمؤسس علم أصول الفقه الإمام الشافعي (توفي: ٢٠٤هـ)، الذي كان "يجمع نبلاء تلامذته، ويبحث معهم القضية بعد القضية، ويحاكمونها، ويكون ثمة رأي ورواية، ثم يكون ترجيح واختيار عن دراية"، وقد سمَّى الراشد هذا الجهد الاستنباطي بمجمع الأم الحنون،[٢] وهو امتدادٌ لمدرسة أبي حنيفة، التي طوَّرها الشافعي لما نزل بمصر، وقد عُرِفت مدرسته الأصولية لاحقاً بمدرسة المتكلمين مقابل مدرسة الأحناف.

٦- اعتماد نظام الوقف في التسيير:

الوقف كما عرَّفه ابنُ قدامة "تحبيس الأصل وتسبيل الثمرة،"[٣] وهو مقتبس من قول رسول الله ﷺ لعمرَ بن الخطاب رضي الله عنه: "حبِّس الأصلَ وسَبِّل الثمرة،"[٤] ويعني "منع التصرف في رقبة العين التي يمكن

(١) الراشد، محمد أحمد. **أصول الإفتاء والاجتهاد التطبيقي**، فان كوفر وزيورج: دار المحراب للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢م، ج٢، ص ٢٩.

(٢) المرجع السابق. ج١، ص٣١.

(٣) ابن قدامة ، محمد عبد الله بن أحمد المقدسي. **عمدة الفقه في المذهب الحنبلي**، تحقيق: أحمد محمد عزوز، بيروت: المكتبة العصرية، (د. ت.)، ص٦٩.

(٤) النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي. **سنن النسائي**، تعليق: محمد ناصر الدين الألباني، الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ١٤١٧هـ، كتاب: الأحباس، باب: أحباس =

الانتفاع بها مع بقاء عينها، وجعل المنفعة لجهة من جهات الخير ابتداء وانتهاء."[1] ونظام الوقف الإسلامي له ما يميزه في الفلسفة والمقاصد، والصور والتطبيقات، ويقوم أساساً على مفاهيم البر والخير والعمل الصالح والمعروف والقربات. وقد استفاد النظام التعليمي أيما استفادة من النظام الوقفي، فعلى المستوى الفكري مثلاً، أكسب الوقف التعليم مساحة حيوية واسعة من التفكير المستقل، الذي مهّد للإبداع والابتكار، وانفتاح الآفاق الفكرية، ونمو المعارف.

ولم يكن الوقف تطبيقاً عملياً بسيطاً، وإنما تغلغل بمنظومته المفهومية والقيمية في مجالات اجتماعية وثقافية وعمرانية حية، ولهذا لم يلبث أن تطور بسرعة، ليتحول إلى منظومة إدارية ضخمة، لا سيما بعد دخوله مرحلة مأسسة المدارس والمستشفيات وغيرها. وقد كانت بداية هذا التحول في تولي القضاة إدارة شؤون الوقف، بوصفها مرحلة ثانية بعد تصدّر صاحب الوقف الإشراف عليه، فأُنشِئت دواوين مستقلة للوقف تقوم على تسجيل الأحباس، ومن أوائل بداية هذا التحول في مصر تصدَّر القاضي توبة بن نمر ابن حومل الحضرمي في عهد هشام بن عبد الملك إدارة الوقف.[2] ثم تطورت إدارة الأوقاف في العهود التالية أكثر، مروراً بالعهد العباسي إلى العثماني الذي أصدر نظام إدارة الأوقاف، مع ترتيبات إدارية تنظيمية وتحسينية حديثة. كما ساهم نظام الوقف في توفير الحماية الاجتماعية للفئات الهشة من الفقراء والأيتام، وذوي الحاجات الخاصة، وضمان ضرورات الحياة الكريمة.

= المشاع، ص٥٦١، الحديث رقم: (٣٦٠٤).

(١) أبو زهرة، محمد. **محاضرات في الوقف**، القاهرة: معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٥٩م.

(٢) الكبيسي، محمد عبيد عبد الله. **أحكام الوقف في الشريعة الإسلامية**، بغداد: مطبعة الإرشاد، ١٩٧٧م، ص٣٨.

ثانياً: التدبير في نظام الحسبة

نتجه الآن لتراث "الحسبة العلمية" لمعرفة تطبيقات الإتقان في الحياة العملية للمسلم،[1] ونسير في هذا الاتجاه للمسوّغات الثلاثة الآتية: أولاً: أصالة مصطلح الحسبة في الإسلام وعلاقتها بأداء العمل وفق مقاييس إسلامية منضبطة. ثانياً: غنى التراث الإسلامي بمؤلفات الحسبة، وثالثاً: احتواء مؤلفات الحسبة على أصول نظرية تؤطر تصور الإتقان، وتشرح كيفيات العمليات، التي تُعين على تنـزيل مضامينه وأحكامه العمرانية، علاوة على توفير وسائل امتحان وتحسين أداء مستمر. والحسبة نظامٌ إسلامي عام مبدؤه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واحتساب الجهد لنيل الثواب. لكن نتيجة توسع المجتمع وازياد نشاطاته، ظهرت الحاجة إلى تنظيم ذلك الجهد، فظهرت ولاية الحسبة بوصفها جزءاً من النظام الإسلامي في الحكم وإدارة شؤون المجتمع والدولة. وتعدّ الحسبة رسالة علمية دينية واجتماعية متكاملة، وصناعة عملية لنشر ثقافة الإتقان في مختلف القطاعات، الدينية أو السياسية أو التربوية والتعليمية أو المعاشية العامة. وقد جعل هذا التطور الهام مفهوم الحسبة أكثر توسعاً وعمقاً في الوعي والمعرفة الإسلامي، إلى درجة أن عدّه بعضهم علماً، كما هو الأمر عند حسن القنوجي حين عرَّفها بالآتي: "علمٌ باحثٌ عن الأمور الجارية بين أهل البلد من معاملات سياسة العباد بنهي المنكر وأمر المعروف، بحيث لا يؤدّي إلى مشاجرات وتفاخر بين العباد بحسب ما رآه الخليفة من الزجر والمنع ومباديه بعضها فهي وبعضها أمور استحسانيّة ناشئة من رأي الخليفة، والغرض منه تحصيل الملكة في تلك

(١) مشوش، صالح بن طاهر. ولعجال، طارق. "نحو صياغة الأصول النظرية للحسبة العلمية في الإسلام: دراسة في المفهوم وتطبيقاته"، **مجلة إسلامية المعرفة**، السنة (٢٠)، العدد (٧٧)، ٢٠١٤م.

الأمور وفائدته إجراء أمور المدن في المجاري على الوجه الأتم."[١]

تمثّل الحسبة بهذا المفهوم مؤسسة مراقبة الأداء المهني والوظيفي والتثبت من استيفاء معايير الجودة، ولأهمية هذا الجانب أولى المسلمون موضوع الحسبة الرعاية اللازمة. يصف ابن الأخوة (توفي: ٧٢٩هـ) الحسبة بأنها "من قواعد الأمور الدينية، وقد كان أئمة الصدر الأول يباشرونها بأنفسهم لعموم صلاحها وجزيل ثوابها وهي أمرٌ بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهيٌ عن المنكر إذا ظهر فعله وإصلاح بين الناس."[٢] وقد ظهرت مؤلفات متنوّعة حولها، لعل أقدمها "الأغشاش وصناعة الحسبة الكبير" و"غش الصناعات والحسبة الصغير" لصاحبها أبو العباس أحمد بن محمد بن مروان المعروف بأحمد بن الطيب السرخسي (توفي: ٢٨٦هـ)،[٣] وكتب أخرى مثل "الرتبة في طلب الحسبة" للإمام الماوردي (توفي: ٤٥٠هـ) وغيرها من المؤلفات. وقد وجدت هذه المؤلفات سنداً قوياً يعود إلى عهد النبوة، فقد روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ "مرّ على صبرة طعام فأدخل يده فيها، فنالت أصبعه بللاً، فقال: "يا صاحب الطعام ما هذا؟" فقال: أصابته السماء يا رسول الله. قال الرسول ﷺ: "أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس،" ثم قال ﷺ: "من

---

(١) القنوجي، صديق بن حسن. **أبجد العلوم**، أعده: عبد الجبار زكار، دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٧٨م، ص٢٦.

(٢) ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد. **معالم القربة في أحكام الحسبة**، نقله وصححه: روبن ليوى، كيمبرج: مطبعة دار الفنون، ١٩٣٧م، ص٧.

(٣) انظر: كعدان، عبد الناصر. ومهروسة، محمد ناظم. **أدب الطبيب في التراث الطبي العربي الإسلامي**، ص٤٦ (نسخة إلكترونية)، تم تحميلها من الموقع (بتاريخ ١٤ نوفمبر، ٢٠١١م):

- http://www.elm7ata.com/vb/showthread.php?t=8311

غشَّنا فليس منّا، وإن الغاش ليس بمؤمن."[1]

وقد أدرج ابنُ خلدون (توفي ٨٠٨هـ) الحسبة عموماً في الخطط الدينية، وذلك لتركيزها على إزالة المنكرات وقيام المصالح؛ إذ يقول: "فهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين، يعين لذلك من يراه أهلاً له، فيتعين فرضه عليه. ويتخذ الأعوان على ذلك، ويبحث عن المنكرات، ويعزّر ويؤدب على قدرها. ويحمِل الناس على المصالح العامة في المدينة... ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداء، بل له النظر والحكم فيما يصل إليه علمه من ذلك ويرفع إليه."[2]

ولعرض تصور المسلمين لماهية الإتقان وأبعاده، نكتفي بعرض مثالين اثنين يرتكز أحدهما على فعل ديني-اجتماعي، والآخر على فعل صناعي-مهني؛ أما الفعل الديني-الاجتماعي، فقد اخترنا مسألة "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، أما الفعل الصناعي-المهني فيتمثل في ممارسة الطب. ولمعالجة الغرض الأول، فإننا سنعتمد على ما ذهب إليه محمد بن محمد أحمد القرشي المعروف بابن الأخوة، في كتابه "معالم القربة في أحكام الحسبة". إنه لا يخفى على أحد أنّ "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" كما وصفه ابن الأخوة "القطب الأعظم في الدين، وهو المهام الذي ابتعث الله بها النبيين أجمعين، ولو طوي بساطُه وأهمل عملُه وعلمُه لتعطّلت النبوة واضمحلت الديانة، وعمّت

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، وأبو داود في سننه. انظر:

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الإيمان، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم: "من غشنا فليس منا"، حديث رقم: (١٠٢).

- أبو داود، **سنن أبي داود**، مرجع سابق، كتاب: البيوع، أبواب الإجارة، باب: النهي عن الغش، حديث رقم: (٣٤٥٢).

(٢) الحضرمي، **مقدمة ابن خلدون**، مرجع سابق، ج١، ص٣٧٩-٣٨٠.

الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، وانتشر الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد وإن لم يشعروا بالهلاك إلى يوم التنادي."[1]

إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مهمةٌ تتطلب جملة من القدرات، مثل العلم. ولهذا، اشترط العلماء أن يكون المحتسب صاحب علم كاف ينير له طريق الأداء والممارسة، وهناك من اشترط الاجتهاد باعتباره العرفي على الأقل. وليس المقصود من اشترط العلم هنا التحصيل الكمي للعلوم المختلفة فحسب، بل الدراية والحكمة في توظيفها. فمواجهة المنكرات الفكرية أو العقدية أو السياسية أو الاقتصادية، يحتاج الآمر فيها إلى معرفة وعلم ودراية بقدر المسائل وطبيعتها وحدودها؛ إذ ينبغي على المحتسب كما يرى ابن الأخوة: "إنكار ذلك والمنع منه، وهذا إنّما يصح منه إنكاره إذا تميّز عنده الصحيح من الفاسد والحق من الباطل، وذلك من أحد الوجهين: إما أن يكون بقوته في العلم واجتهاده فيه لا يخفى ذلك عليه، وإما أن يتفق علماء الوقت على إنكاره وابتداعه، فيستعدونه فيه فيعوّل في الإنكار على أقاويلهم وفي المنع على اتفاقهم، فإن الخطر عظيم والمحتسب الجاهل إن خاض فيما لا يعلمه كان ما يفسده أكثر مما يصلحه، ولهذا قالوا: إنّ العامي لا يحتسب إلا في الجليات."[2]

غير أنّ شرط العلم وحده لا يكفي؛ لأنّ من مهام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التعامل مع الناس والاتصال والتواصل بهم في حالات غير "عادية" أو استثنائية؛ لأنها تحدث غالباً في حالات الإهمال واللامبالاة. لكن قد لا يفيد الاعتماد على العلم وحده لمقاومة ميول النفس للكسل والدعة، بل قد تصدّه عن تحقيق الأداء النوعي الإيجابي. إنه لا يعالج المؤثرات السلبية من هوى النفس

---

(١) ابن الأخوة. **معالم القربة في أحكام الحسبة**، مرجع سابق، ص١٥.

(٢) المرجع السابق، ص٢٩.

ووسوسة الشيطان والركون إلى الدنيا، مما يدعو إلى المضي في ارتكاب المنكر وإهمال المعروف، إلا العلم والصبر. ولأهمية الصبر، قَرَنَ الله تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالصبر، كما ورد على لسان لقمان ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾ [لقمان: ١٧].

ومن الخصلة التي ينبغي أن يتحلّى بها المحتسب الرفق والمعروف، مع طلاقة الوجه ولين القول، فقد ورد في رواية أنّ "رجلاً دخل على المأمون، فأمره بمعروف ونهاه عن منكر، وأغلظ له في القول، فقال له المأمون: يا هذا، إنّ الله تعالى أمر من هو خير منك أن يلين القول لمن هو شرٌّ مني، فقال لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾ [طه: ٤٤]، ثم أعرض عنه ولم يلتفت إليه."[(١)] وقد فصَّل العلماء في بيان ماهية المعروف وجعلوه ثلاثة أقسام: ما تعلق بحقوق الله تعالى، وهو ما يكون مطلوباً فرداً أو جماعة، وما تعلق بحقوق الناس؛ إمَّا عاماً أو خاصاً، وما كان مشتركاً.[(٢)]

ولا يكتفي الآمر بالمعروف بالملاحظة الآنية لأحوال الناس وسلوكهم، بل ينبغي أن يستشرف المستقبل، والتقدير الحكم للآثار المرتقبة لتلك الأحوال على النشء، مما هو مطلوب في مسيرة الحفاظ على المجتمع واستقرار حالة ديانته -وفق اصطلاح ابن خلدون-. وقد استخدم رسول الله ﷺ هذا النوع من الاستشراف في تبليغ الدين وبناء الأمة الإسلامية،[(٣)] وهي من

---

(١) الشيزري، عبد الرحمن بن نصر. **نهاية الرتبة في طلب الحسبة**، إشراف: محمد مصطفى زيادة، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٦م، ص٩.

(٢) انظر على سبيل المثال:

- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب. **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، تحقيق: أحمد مبارك البغدادي، الكويت: مكتبة دار قتيبة، ط١، ١٩٨٩م، ص٣١٨-٣١٩.

(٣) انظر على سبيل المثال:

- قاسم، حسام أحمد. "التخطيط الاستراتيجي في السنة النبوية: أسسه العامة، أدواته، =

ميزات الأداء المتقن للأعمال والواجبات الدينية، وتبعه بعده المسلمون، لا سيما ممن تقلدوا خطط التدبير وإدارة شؤونهم. فقد وظف زياد بن أبي سفيان على سبيل المثال هذا النوع من التفكير للحفاظ على صلاة الناس من الحركات الزائدة التي قد تلبس عليهم الفريضة في جامع البصرة والكوفة؛ إذ "كانوا إذا صلّوا في صحنه، ورفعوا من السجود، مسحوا جباههم من التراب، فأَمَرَ بإلقاء الحصباء في صحن المسجد، وقال: "لست آمن أن يطول الزمان فيظن الصغير إذا نشأ أنّ مسح الجبهة من أثر السجود سنّةٌ في الصلاة."[1]

أما ما يخص الوظيفة الصناعية، فقد اخترنا الطب نموذجاً، وذلك لأهميته الكبرى التي لا تقل عن أهمية الفعل الديني الاجتماعي. فأهمية صناعة الطب في تاريخ الحضارة الإسلامية عظيمة، وإتقانهم للممارسة الطبية وعلومها مما وصل من الحضارات جديرٌ بالدراسة؛ لكن يكفي أن نُشير هنا إلى صدارة المسلمين في تأسيس المستشفيات المحترفة، وإدارتها وفق أرقى معايير الإحكام، كما تدل على ذلك تآليفهم العلمية والمهنية المعينة على الاستحكام الطبي، مثل "المعتمد في الأدوية المفردة" ليوسف بن عمر بن علي بن رسول الغسّاني التركماني، (توفي: ٦٩٤هـ)، و"العمدة" لابن القف أبو الفراج بن يعقوب، (توفي: ٦٨٥هـ)، و"الشامل"، و"الجامع"، و"الحاوي" لأبو بكر بن محمد زكريا الرازي (توفي: ٣١٣هـ)، و"القانون" لحسن بن علي بن سبنا، (توفي: ١٠٣٧م)، و"الكافي في الطب" لابن العين زربي، (توفي: ٥٤٨هـ)، و"الكامل في الصناعة الطبية" لعلي بن عباس المجوسي (توفي: ٤٠٠هـ).

= وخصائصه" في الندوة العلمية الدولية الخامسة: الاستشراف والتخطيط الاستراتيجي في السنة النبوية، دبي: كلية الدراسات الإسلامية والعربية، أفريل ٢٠١١م، ص٢٧-٩٦.

(١) ابن الأخوة. **معالم القربة في أحكام الحسبة**، مرجع سابق، ص٢٣.

هذا ولم يكتف المسلمون بأداء هذه الأدوار فحسب، بل باشروا بأنفسهم في تطوير أساليب طبية علاجية راقية؛ إذ يعود تخصص علم الجراحة إلى جهود الأطباء المسلمين، مثل أبي القاسم الزهراوي (توفي: ٤٠٤هـ)، الذي ألَّف المصادر المعتمدة في العلم مثل كتاب "التصريف لمن عجز على التأليف" في ثلاثين مجلداً في الطب والصيدلة والجراحة، وعرض فيه وشرح الأدوات الطبية الخاصة بالجراحة في غاية الدقة والإحكام، يصل عددها إلى مائتي أداة، وصنع الكثير منها،[١] والتي لا يزال بعضها مستعملاً في المستشفيات المعاصرة بعد تعديلها وتحسين جودتها.[٢]

وقد أولت كتب الحسبة اهتماماً خاصاً بالصحة وعلومها المتداولة، فحاولت تغطية مجمل الأنشطة التي تنضمّ تحت هذه الصناعة مثل: المراقبة، والعناية، والتوجيه، والحماية. كما أدرجت أيضاً تصنيفاً طبياً بديعاً يضمّ الأطباء، والمجبرين، والجرَّاحين، والكحَّالين، والفصَّادين، والحجَّامين، والصيادلة، والعطَّارين، والبيَاطِرة.[٣] ولاستكمال شروط الإتقان والإحكام، لم يعتمد نظام الحسبة فقط على أصحاب الكفاءة الشرعية لتحديد المخالفات الدينية، بل استعان أيضاً بأصحاب المعرفة التخصصية في المجالات المختلفة لعمل المحتسب، وتعيين "العريف" مساعداً مختصاً له. ففي مجال الطب مثلاً،

---

(1) See: Tshanz, David W. "*Pionner physicians*", in:

- http://MuslimHeritage.com/topics/default.cfm?ArticleID=1308 (retrieve on: November 15th 2011).

(٢) لمعرفة تفاصيل حول: إسهامات المسلمين في الطب، وإتقانهم في ممارسته، والتأليف فيه، يرجى الرجوع إلى البحوث القيمة الكثيرة التي نشرها الموقع (Muslimheritage.com).

(٣) الملاح، هاشم يحيى. **الحسبة في الحضارة الإسلامية: دراسة تاريخية فقهية في الرقابة على الجودة الشاملة**، القاهرة: جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتنمية الإدارية، ٢٠٠٧م، ص٢٠٠-٢١١.

يشترط على العريف كما نقل ذلك عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله العدوي الشيزري (توفي: ٥٨٩هـ) "معرفة كتاب جالينوس المعروف بقاطا جانس في الجراحات والمراهم، وأيضاً كتاب الزهراوي في الجراحات، وأن يعرفوا التشريح وأعضاء الإنسان، وما فيه من العضل والعروق والشرايين والأعصاب، ليتجنب الجرّاح ذلك في وقت فتح المواد وقطع البواسير، ويكون معه دست المباضع..."[١]

وامتدت ثقافة الإتقان الطبي عند المسلمين، لتشمل جوانب حوكمة أخرى، تسيرية وإدارية، كما اشترطوا مثلاً على الطبيب تأدية "العهد" الذي يضم مبادئ الممارسة الطبية والأخلاق. ولئن كانت نسخة هذا القسم، قد أخذت مما قاله الطبيب أبقراط، والذي أخذه بدوره من التراث الشرقي القديم في ممارسة الطبّ، فإنّ المسلمين عدّلوه وأضافوا إليه، ليعكس القيم الإسلامية، وقد ترجمه من اليونانية إلى العربية حبيش بن الأعصم، تلميذ إسحاق بن حنين.[٢] وهو القسم نفسه، الذي يؤديه الطبيب اليوم في الجامعات الحديثة.

وأما توثيق صاحب الصناعة لمعاملاته وأعمال وظيفته المختلفة، فكان ينبغي على الطبيب -كما نقل- ابنُ الأخوة، أن "يكتب نسخة [من الوصفة] لأولياء المريض بشهادة من حضر معه عند المريض."[٣] وهذا التوثيق مهم في متابعة تبعات التمريض وممارسة الطب، كما في حالة موت المريض مثلاً، إذ يمكن للمحاسب

---

(١) الشيزري، **نهاية الرتبة في طلب الحسبة**، مرجع سابق، ص١٠١-١٠٢.

(٢) عمار، سليم. "آداب الطبّ في التراث العربي الإسلامي"، **مجلة آفاق الثقافة والتراث**، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، السنة (١)، العدد (٢)، ١٩٩٣م، ص١٤-١٩.

(٣) ابن الأخوة، **معالم القربة في أحكام الحسبة**، مرجع سابق، ص١٢٧.

معرفة حدود مسؤولية الطبيب في تلك الحالة. فإذا "مات [المريض]، حضر أولياؤه عند الحكيم [الطبيب] المشهور، وعرضوا عليه النسخ التي كتبها لهم الطبيب، فإن رآها على مقتضى الحكمة وصناعة الطبّ من غير تفريط ولا تقصير من الطبيب، قال: هذا قُضِي بفروغ أجله، وإن رأى الأمر بخلاف ذلك، قال لهم: خذوا دية صاحبكم من الطبيب، فإنّه هو الذي قتله بسوء صناعته وتفريطه."[1] ومثل هذا النموذج في مراعاة إتقان العلاج الطبي والمتابعة الصحية يدلّ من منظور نظرية الإتقان على التصورات والمهارات العالية في صناعة وممارسة الطب.

إن مثال "الحسبة على الفصادين"؛ أي الذين يعالجون آلام الناس من خلال الفصد، والذي يعرفه القنوجي (توفي: ١٣٠٧هـ) بقوله: "علمٌ باحث عن كيفية آلات الفصد ومعرفة أنواع العروق، ومعرفة ما يخص كل مرض من فصد العرق مخصوص،"[2] يجمع جملة الشروط النوعية التي ينبغي مراعاتها لتحقيق إحكام أداء وظيفة الفصد، وهي:

١- المعرفة:

وتعني العلم بتشريح الأعضاء والعروق والعضلات والشرايين، مما يشير إلى درجة العلم ومستواه، ففي هذا المجال يكون الحرص على دقة مهارات التمكن واشتراط معرفة "التراكيب وكيفياتها."[3]

٢- الإرشادات العلمية والعملية المناسبة:

وهي التي تؤهل المهتمين بتلك الصناعة لتنمية معارفهم وتطوير مهاراتهم للأداء الوظيفي المعتمد، كما هو الحال في ممارسة مهنة الفصد، فإن المحتسب

---

(١) المرجع السابق، ص١٢٧.

(٢) القنوجي، **أبجد العلوم**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٨٩-٣٩٩.

(٣) الشيزري، **نهاية الرتبة في طلب الحسبة**، مرجع سابق، ص٨٩.

يرشد الراغبين في تعلم هذه المهنة إلى إدمان فصد ورق السلق حتى تستقيم أيديهم، مما يعني اكتساب المهارات المهنية المطلوبة.[1] وتتناول مقاييس الحسبة العلمية أيضاً الحفاظ على ملكات صاحب الصناعة ومهاراته، مما يملي فرض إجراءات وقائية تتمثل في عدم السماح "للفاصد" بأداء وظائف مهنية أخرى قد تؤثر على أداء يده أو تُوهن قوة شعوره بالعروق. ولهذا يقول الشيزري (توفي: ٥٨٩هـ): "ينبغي للفاصد أن يمنع نفسه من عمل صناعة مهنية تكسب أنامله صلابة وعُسر الحس لا يتأتّى معها نبش العروق؛ وأن يراعي بصره بالأكحال المُقَوِّيَةِ له والأيارجات، إن كان ممّن يحتاجُ إليها."[2] والمعروف أنّ لكثير من الصناعات والحرف الأثر المباشر على المجتمع وتركيبته البشرية، مما يدعو الحسبة إلى النظر في قدر مراعاة المستفيدين وحاجاتهم وأحوالهم في المجتمع حين تقدم لهم تلك الصناعات والوظائف والخدمات، ففي مثال "الفصاد" مثلاً لا يسمح للفاصد أن "يفصد عبداً إلَّا بإذن مولاه، ولا صبيًّا إلَّا بإذن وَلِيِّهِ، ولا حاملًا ولا طامثًا."[3]

٣- مراعاة الأحوال النفسية لأصحاب الصنائع:

تعدّ مراعاة الأحوال النفسية لأرباب العلم والصنائع والمهنيين والحرفيين من الشروط الأساسية التي تكفل أداءهم المحكم؛ إذ إنّ كثيراً من الإخفاقات تكون بسبب سوء أحوالهم وتردي أوضاعهم. وقد أدرك أصحاب الحسبة العلمية هذا الجانب، وعدّوا استيفاء الشروط النفسية المناسبة في أداء الصنائع من مقاييس الحسبة كما في مثال الفصد، فلا يسمح

---

(١) المرجع السابق، ص٨٩.

(٢) الشيزري، **نهاية الرتبة في طلب الحسبة**، مرجع سابق، ص٨٩.

(٣) المرجع السابق، ص٨٩.

للفاصد أداء وظيفته تحت ضغط الظروف النفسية السلبية، كما أشار إليه الشيزري في قوله: "وألّا يفصِد وهو منزعجُ الجَنَانِ."[1] كما ينبغي أيضاً مراعاة الظروف الخارجية التي تحيط بممارسة الصناعة، وسبب ذلك أنّ الأحوال النفسية السلبية قد تعود في الأصل إلى آثار الظروف الخارجية، ما جعل أصحاب الحسبة العلمية يتحدثون عن شروط محل العمل وأحواله وظروفه ووسائله الآلية والفنية المتاحة. ففي مثال الفصاد، لا يسمح للفاصد إلا أن يراعي ظروف مكان الفصد أو كما عبَّر عنه الشيزري يجب عليه ألا "يَفْصِدَ إلَّا في مكان مُضِيءٍ وبِآلَةٍ مَاضِيَةٍ."[2]

٤- ضبط المعايير المهنية بالمواثيق:

لتسهيل ضبط الإتقان ومتابعته، تفرض الحسبة العلمية "التطبيقية" صياغات متعددة، حسب تنوع الصنائع والمهن، تُثبِتُ بصفة شرعية المقاييس الضرورية لأداء الصناعة. ففي مثال "الفاصد" السابق، أشار الشيزري إلى نمط من المواثيق يمكن عدّها "مواثيق الحماية"، تقي صاحب الصناعة من مغبة الوقوع في الأخطاء ذات الأثر البالغ على المتطبب أو المستفيد من الصناعة. ويقترح الشيزري خطوة الحماية هذه من خلال مراجعة السلطة العلمية العليا، بما فيهم الأطباء في مثال الفصاد؛ إذ يقول: "بالجملة ينْبغِي للمحتسب أَنْ يأخذَ عليهم العَهْد والميثاق [أَلَّا يَفْصِدُوا] في عشرة أمزجة، وليحذروا فيها حذراً، إلّا بعدَ مشاورة الأطبَّاءِ."[3] وأضاف من المعلومات حول الأمزجة وآراء الأطباء ومَنْهِياتهم فيها، وأوقاتها المناسبة، ومتابعة أحوال المفتصد بعد عملية

(١) المرجع السابق، ص٨٩.

(٢) المرجع السابق، ص٨٩.

(٣) المرجع السابق، ص٨٩.

الفصد مثل التزام التدرج في الغذاء، ونظام النوم.[١]

٥- توفر المستلزمات والأدوات المناسبة:

إنّ من فنون مراعاة الإتقان في نظام الحسبة العلمية أيضاً الوعي بأهمية وسائط الصناعات وأدواتها وآلاتها وأثرها في تحقيق إحكام الصنائع، لا سيما فيما يكون أثره مباشراً في الحياة الإنسانية، كالصناعات الطبية التي أخذنا منها المثال السابق. تبين الحسبة العلمية لأصحاب الصناعات الطريقة المثلى لاستعمال الأدوات، واختيار أمثلها، مع تسويغ أسباب الاختيار. وفي مثال "الفاصد" ذكر الشيزري جملة من مستلزمات أصحاب الصنائع، منها: مَبَاضِعُ، كَبَّةٌ من حريرٍ أو خَزٍّ، وبر الْأَرْنَبِ، دواء الصّبْرِ والكندر، نافجة مِسك وأقراص المسكِ."[٢]

٦- التحقيق والاختبار:

تهدف الحسبة العلمية إلى حماية الإنسان من الاستهلاك السلبي للمعرفة العلمية، والاعتماد على وسائل وأدوات أكثر فاعلية للتحقق من مقاييسها لدى أصحاب الصنائع، ومن أمثلة ذلك تصميم وسائل اختبارية لهم، والكشف عن مهاراتهم، وإدراك حجم معرفتهم بالتفاصيل العلمية للصناعة والممارسة الفعلية. ففي "الحجامة" مثلاً، يرشد الشزري المحتسب لغرض معرفة حذق الحجام بامتحانهم بورقة يلصقوها على آجُرة، ثم يأمر بشرطها، فإذا نفذ الشّرط، استنتج أنه "كان ثقيل اليد سَيِّئ الصّناعة."[٣] ومن هنا نشأت فكرة الاختبارات المهنية أو التأهيلية لأصحاب الحرف؛ قصد الوقوف

---

(١) المرجع السابق، ص٩٠.

(٢) المرجع السابق، ص٩١-٩٢.

(٣) المرجع السابق، ص٩٥.

على درجة إتقانهم حرفهم ومهنهم، مما قد تجسد بكثرة في التراث العلمي الإسلامي، منها مثلاً أمر الخليفة المقتدر سنة (٣١٩هـ) باختبار الأطباء في بغداد لمعرفة المتقن منهم من العالة على الصنعة، ووكّل الأمر إلى سنان بن ثابت بن قرة الذي ذكر أنه امتحن في بغداد وضواحيها ٩٠٠ من المتطببين.[١]

٧- مراعاة الأعراف الاجتماعية الصالحة:

إنّ الجوانب الإيجابية للأعراف تعكس جملة الأساليب الحياتية التي يعتقد أصحابها سلامتها ومناسبتها وصلاحيتها في أداء وظائف اجتماعية وسياسية واقتصادية مختلفة. ولهذا، السبب تُعد مراعاتها في مجال أداء ولاية الحسبة العلمية اختياراً لأقصر الطرق وأقلّها تكلفة، وهو الأمر، الذي يستحسن مراعاته وفق "مبدأ التيسير" في الشريعة الإسلامية؛ لأنّ اعتبار أعراف الناس يعد اختياراً لما تعودوا عليه من أساليب العمل.

ويمكن استخلاص نتيجة مفادها أنّ عناصر الإتقان ومقوماته في مؤلفات الحسبة الإسلامية مبنية على جل التصورات العقائدية حول مفهوم الكون والإنسان والحياة، والاستخلاف، ومفهوم الإسلامي في تحديد الأداء المتقن. ويتمثل أوَّل شرط للحسبة العلمية في تحقيق الوعي والمعرفة والعمل بالعقيدة الإسلامية، وأصل ذلك ما قاله ابن تيمية عليه رحمة الله: "أن تعلم أن جميع الولايات في الإسلام مقصودُها أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا. فإنّ الله سبحانه وتعالى، إنما خلـ الخَلْقَ لذلك، وبه أنزل الكتاب، وبه أرسل الرسل، وعليه جاهد الرسول ﷺ والمؤمنون."[٢]

---

(١) النجار، عامر. **في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية**، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٧م، ص٨٨-٨٩.

(٢) ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم الحراني. **الحسبة في الإسلام**، تحقيق: سيد محمد بن محمد بن أبي سعدة، الكويت: مكتبة دار الأرقم، ط١، ١٩٨٣م، ص٨.

ثالثا: تصميم الفن الإسلامي

الفنّ الإسلامي جزءٌ لا يتجزّأ من المكونات الأساسية للحضارة لما يحمله من الرسالة في رياضة النفس وربطها بعالم المصور وخالقه المبدع. وقد خاض هذا الفن بأشكاله المتنوعة من زخرفة أو رسم أو فن نباتي أو ورقي، وخط، معركة طويلة لانتزاع مكانته وتميزه في ساحة الفن العالمي، رغم محاولات الطمس له بترويج لنظرية التقليد والاستعارة من غيره، وإطلاق الأحكام المتحيز ضده.[١] وهو الأمر الذي ذكره الفاروقي في قوله: "تبين لنا أن أولئك المستشرقين جميعاً بلا استثناء بنوا رؤاهم على فرضية خاطئة، بل مغرضة، فحواها: أنّ الإسلام لم يقف عند حدّ عدم المساهمة بشيء في فنون المسلمين عبر العصور، بل إنه عرقل اتجاهاتهم الفنية، وقيَّدها، وأفقرها، بحيث انحصرت الإضافة الجمالية الوحيدة لهم في التفنن الدائم في كتابة الآيات القرآنية بالخط العربي."[٢]

وتكمن أبرز صفة لتميز الفن الإسلامي في تحديد ماهية الفن نفسه، وإغناء وسائله الروحية والفكرية والأخلاقية، التي تتجلّى عبر خواصه المختلفة من الغائية، والتجريد، ونبذ الفراغ، والابتعاد عن المحاكاة الساذجة للطبيعة، والتداخل، التنوع، وتطبيق الأنساق اللامتناهية، والألفة مع الفطرة الإنسانية السليمة.[٣] لا تفرق نظرية الفن الإسلامي في عالم التصوير والإبداع بين ما هو

---

(١) راجع تحديد وظائف فن الزخرفة التي في مقدمتها التذكير بمبدأ التوحيد في كتاب:
- الفاروقي، **أطلس الحضارة الإسلامية**، مرجع سابق، ٥٣٩-٥٤٥.

(٢) الفاروقي، **التوحيد ومضامينه على الفكر والحياة**، مرجع سابق، ص٣٠٢.

(٣) انظر:
- حنش، إدهام محمد. "نظرية الفن الإسلامي عند المفكر إسماعيل الفاروقي" في **أسماعيل لفاروقي وإسهاماته في الإصلاح الفكري الإسلامي المعاصر**، تحرير: فتحي حسن ملكاوي ورائد جميل عكاشة وعبد الرحمن أبو صعيليك، هرندن وعمان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ودار الفتح للدراسات والنشر، ٢٠١٤م، ص٣٧٣.

ديني ودنيوي، فكلاهما يخضعان لعقيدة التوحيد، والشريعة، والأخلاق. فالفنّ بهذا التصور "فكرة ومناسبة وشيء يجب أن تكون تحت تأثير الفكر الإسلامي وملتزماً به. والفنّ، مثل أي شيء آخر، يعد جزءاً متمماً من النظام الشامل الذي يسري في تضاعيف حياة (الأمة)، ولهذا السبب تكون أنماط الأشياء جميعاً مما يستعمله المسلمون أو يصنعون مزخرفة بشكل غامر بتلك الأنساق اللامتناهية التي تربط تلك الأشياء بالدين وبالكل الإسلامي."[١]

وقد أبدع عزت بيجوفيش (Alija Izetbegović) في بيان معالم العلاقة بين الدين والفن، وقدّم أمثلة مختلفة ومن مختلف الديانات والحضارات تشهد لتلك العلاقة.[٢] أما الفاروقي، فقد استهلَّ بيانه لهذه العلاقة في تأثير القرآن الكريم في الأدب بظاهرة التأثير المباشر على جمهور السامعين الذي يعرفون فنون اللغة ومقاماتها وأذواقها. فقد كان محض سماع القرآن يتلى كفيلاً بإقبال على اعتناق الإسلام. وقد ذكر أنّ الوعي الأدبي الذي "هيأته وشذبته القرون قد أدرك واستوعب الأثر الرفيع في القرآن شكلاً ومحتوى، فانصاعوا للأثر، واستحوذ على أرواحهم وعقولهم وقلوبهم وإرادتهم الأثر الرفيع من تحول الذات الجذري، والالتزام بقضية تحويل العالم والتاريخ إلى شبيه الأنماط التي وجدوها في الوحي الإلهي"[٣] وهو ما يدل على "قدرة الرفيع في الشكل والمحتوى على إحداث الأثر الرفيع."[٤]

---

(١) الفاروقي، **أطلس الحضارة الإسلامية**، مرجع سابق، ص٤٣٩.

(٢) بيجوفيش، علي عزت. **الإسلام بين الشرق والغرب**، ترجمة: محمد يوسف عدس، الكويت وميونخ: مجلة النور الكويتية ومؤسسة بافاريا للنشر والإعلام والخدمات، ط٢، ١٩٩٧م، ص١٤٤-١٥٢.

(٣) الفاروقي، **أطلس الحضارة الإسلامية**، مرجع سابق، ص٤٨٨.

(٤) المرجع السابق، ص٤٨٨.

إنَّ تشكيل الهندسة المعمارية، كما في تصميم المسجد والمدينة والسوق والمستشفى والمدرسة والقصر السلطاني، تدل على خضوع هذه المباني والمرافق جملة من الأصول والتصورات القَبْلِيَة حول الخالق والإنسان والعمران والكون والجمال، برغم اختلاف وظائف هذه المرافق العمرانية. إن تصميم المدينة الإسلامية يبين مدى الالتزام المبدع بهذه المبادئ، كما هو بارز في تصميم مدينة بغداد أو مدينة السلام التي بناها الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور ما بين (٧٦٢هـ) و(٧٦٨هـ)، والتي يدل اعتماد تصميمها على نظام الدوائر ومركزية المسجد، تكون أقرب دائرة إلى المسجد المساكن والمرافق الحيوية كالتعليم، في حين يكون أبعدها دائرة الأسواق وأنشطتها المختلفة. وقد ضمَّت هذه المدينة أيضاً مكتبة بيت الحكمة التي سطع نجمها في تاريخ التعليم الإسلامي.[١]

فملامح الإتقان في الفنون الإسلامية المختلفة تؤكد الالتزام بمحورية التوحيد، وهو ما جعلها تسلك التجريد بدل التشخيص الذي ساد معظم فنون الحضارات الإنسانية، كما تعمد استخدام وسائل التحوير أو نزع الصفات الطبيعية حتى لا تكون الطبيعة هي المحور. ولم تقم الفنون الإسلامية على التقليد الساذج للطبيعة، ولا على ملأ الفراغات على حدّ زعم المستشرقين، بل تُبنى على أصول التصوير الإبداعي الذي يسعى إلى إحداث التغير وتحقيق الإضافة الجديدة. ولهذا، كانت من خصائص الفن الإسلامي تغيير مظهر البنى

---

(١) لمعرفة قصة بيت الحكمة، وأوجه الابتكار فيه، وأهميته في تاريخ المعرفة الإنسانية والعلوم، راجع:

- Al-Khalili, Jim. *The house of wisdom: how Arabic sciences has saved the ancients knowledge and give us the renaissance*, New York: The Penguin Press, 2011.

بوسائل مختلفة مثل الطلاء أو التلبيس فيما يخصّ هندسة المناظر الطبيعية الإسلامية أو مجمعات الأبنية. وهناك أيضاً عنصر التجميل، الذي تعتمد فيه الفنون الإسلامية على إبداع النماذج المتناظرة، والألوان المفرحة، والأشكال الرشيقة المتنوعة في القطعة ذاتها تظْهر على ما يسر الناظر إليها.

إن تجليات الإتقان في الفن الإسلامي تطلق أشعتها من خلال عدة نوافذ، أعظمها اعتبار التوحيد المحور الرئيس، والتزام الحق، والوحدة في الخصائص التكوينية، والتنوّع في الصياغة، والحركية، والتأثير، وراحة الناظر النفسية، وتغيير المظهر، ونسج العلاقات، والتداخل، والانفتاح، والتكيف الثقافي، ورعاية العرض الجمالي، مما يطلعنا على ألوان الإتقان الذي يرفع الإنسان ووجدانه إلى مقامات عالية من الوعي والإدراك وذكر عظمة الخالق، والتماس معنىً أعمق للحياة الكون.

من خلال الأمثلة التي عرضنا يمكن القول: إنّ حضور الإتقان في المجتمع والحضارة الإسلامية كان شاملاً يعكس نظام حياة يخضع له المسلم في حركاته وسكناته. فالمسلم ينظر إليه ليس بوصفه معجزةً بعيدة المنال، بل نعمة، وطبيعة، وفطرة، وسجية، وملكة تتحقّق عبر مراحل البذل والاجتهاد، ويعتمد الإتقان على الترتيب والتنظيم، ووصل الأفكار والأفعال والأشياء. وهذا التصور يزرع في أذهاننا منابع الأمل، ومستقبلاً مشرقاً بإحياء ثقافة الإتقان في المجتمعات الإسلامية المعاصرة. فالعوائق الكثيرة التي نواجهها في وقتنا الحاضر، لا تستطيع أن تعطل إلى الأبد القوىٰ الفطرية والقدرات التي خلقها الله في الإنسان. وبذلك يسد الطريق إلى الإتقان لا يتطلب إلا تحريك الإرادة، والعمل والتوكل على الله.

تأملات في إحياء ثقافة الإتقان:

لا شك أنّ الإتقان ملكة فطرية تنمو وتضعف في الإنسان، وهو مبدأ وشرطٌ أساسي الذي جعله الوحي وصف للأعمال الصالحة، وهو كذلك العامل الذي ساعد المسلمون عبر العصور تشييد عمران وحضارة عالمية متميزة، واستطاعوا من خلاله كذلك تخطي الصعوبات وحل المشكلات ومواجهة التحديات. ولهذا نلاحظ أن تفاقم المشكلات في العالم الإسلامي اليوم وتعقدها لا يمكن فصلها عن أحوال وظروف التي تعيشها "ثقافة الإتقان" في المجتمع من قوة وضعف. بحيث كلما ضعف وازع الإتقان في المجتمع فاش ما يقابله من الفساد والفوضى ومظاهر التخلف. وبناء على هذه العلاقة، يصبح الاهتمام بموضوع الإتقان، وعيا، وسلوكا، وإجراء، وإنجازا ومنتوجا، وتثقيفا وتكوينا، ليس ضرب من الترف الفكري، بل ضرورة عمرانية يستلزما التفكير الجد في الأزمة الكبرى، وهي مسألة التخلف والتراجع الحضاري.

فالإتقان ملكة يحتاج نموها إلى توفير أحوالاً نفسية ومعنوية، ومادية معاً، وهي ضرورية للفكر والوجهة والدافعية، وتقي أسباب الاضطراب والإحباط والإهمال والرداءة. وفي سياق القوة الإنسانية الباطنة، تُقِرُّ كثيرٌ من الدراسات الحديثة على الرغم من توجهاتها اللادينية (Secular)، واستهجانها بُعدي النفس والروح ومقاربتهما بوصفهما يقعان خارج دوائر الملاحظة والتجربة الإمبريقية، مستبدلين إياهما بما يرونه أنسب من الألفاظ "الحيادية" مثل "قوة داخلية أو باطنية" أو "الذات" وغيرهما. فقد عنون روبرت جرين (Robert Greene) الفصل الأول من كتابه "التحكم" (Mastery) "اكتشف نداءك الباطني: مهمتك في الحياة"، والذي فيه يحاول الاستدلال على امتلاك الإنسان نوع من القوة الداخلية (inner force) تسعى لإرشاده إلى مهمة حياته، وهي كثيراً ما تكون في مرحلة الطفولة قوية وبارزة على شكل ميول

طبيعية، لكنها لا تلبث أن تضعف وتتلاشى لأسباب كثيرة مثل الوالدين والأقران وحيثيات أخرى. كما يرى أن الانفصال مع أعماق النفس قد يكون هو سبب تعاسة الإنسان.[1] في هذا الإطار يعتبر ضعف الإرادة، وخوار العزيمة، وفتور الهمة، ونزعة التشاؤم وسوء الظن مما يمثل حصيلة العلل الفكرية والثقافية والاجتماعية القديمة المستشرية عبر مراحل تاريخية طويلة متوالية، من الآفات النفسية السلبية المعيقة للإتقان.

وللخروج من حلقة الإحباط والتخلف، من الضروري مراجعة الذات، وبعث القيم، وشحذ الهمم بالتعلم والتوجيه، وتعزيز الثقة في النفس. وقبل هذا وذاك، التعامل مع القرآن الكريم بوصفه كتاب هداية لما هو أقوم، وحلاً للمشكلات النفسية التي يعاني منها الفرد في عصر أصبح فيه القلق لصيقاً بأسلوب الحياة الإنسانية.[2] فالقرآن يعلِّم الإنسان أصول التفكير السديد، ويوسّع مداركه، بل ويرقى بمستوى نظره وتفكيره، فترتيله يفتح قريحة الإنسان ومداركه العقلية والنفسية للإنسان، وهو ما يستدعي تحويل تدارس القرآن

---

(١) غرين، روبرت. **الإتقان**، ترجمة: عبد اللطيف أبو البصل، الرياض: شركة العبيكان للتعليم، ٢٠١٧م، ص٢٩.

(٢) يقول الإمام الشاطبي في **الموافقات** مبيناً مكانة القرآن في شريعة الإسلام: "إن الكتاب قد تقرر أنه كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، وأنه لا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيء يخالفه، وهذا كله لا يحتاج إلى تقرير واستدلال عليه؛ لأنه معلوم من دين الأمة، وإذا كان كذلك؛ لزم ضرورة لمن رام الاطلاع على كليات الشريعة وطمع في إدراك مقاصدها، واللحاق بأهلها، أن يتخذه سميره وأنيسه، وأن يجعله جليسه على مر الأيام والليالي؛ نظراً وعملاً، لا اقتصاراً على أحدهما؛ فيوشك أن يفوز بالبغية، وأن يظفر بالطلبة، ويجد نفسه من السابقين في الرعيل الأول، فإن كان قادراً على ذلك، ولا يقدر عليه إلا من زاول ما يعينه على ذلك من السنة المبينة للكتاب، وإلا؛ فكلام الأئمة السابقين، والسلف المتقدمين آخذ بيده في هذا المقصد الشريف، والمرتبة المنيفة" انظر:

- الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي. **الموافقات في أصول الشريعة**، القاهرة: دار ابن عفان، ط١، ١٩٩٧م، ج٤، ص١٩٥.

وتعلمه إلى استراتيجيات للتنمية الذاتية والنفسية؛ إذ لو أصبح ترتيل القرآن وتدبره ممارسة تعليمية في المدرسة والمخبر والمعمل، لكان باعثاً لليقظة الروحية والعمل الجيد، ولتتفتح معه القرائح في مجالات العلم والابتكار والإبداع والصناعة. وفي هذا المضمار تمثّل النفس الإنسانية الركيزة الأساسية التى ينطلق منها الإصلاح ، فهي النافذة التي يطرأ على الإنسان من خلالها الهداية والارتقاء، والقرآن الكريم صريحٌ في أن التغيير تصنعه الأنفس، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، ومنطقه واضح في مصدرية النفس في الصلاح والفساد، يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران: ١٦٥]. وعند الحديث عن الإتقان، يكون التوجه إلى أعماق الإنسان، مما يستعان به بالغيب والوحي والنبوات. إنّ الأداء المتقن صعب المنال في بيئات تجهل الاحترام والتقدير والعرفان أو تستهجن الحرية والكرامة الإنسانية أو يغيب فيها الأمن والطمأنينة، وسبب ذلك؛ أن الأمان شرطٌ أساسي للصحة النفسية والتوازن النفسي، فالإنسان الذي ينعم بمشاعر الود والاحترام، يتلذّذ بحسن الأداء، ليكتمل عنده شعور كامل بتحقيق الذات، فيزداد الطموح وتتأكد أهمية الأعمال والصنائع النافعة والمتقنة.[1] إنّ هذه الشروط مدعاة لنشاط الروح

(١) ومما يؤكد هذا المعنى ما حكاه الجاحظ عن إبراهيم بن السندي: "قلت في أيام ولايتي الكوفة لرجل من وجوهها كان لا يجف لبده، ولا يستريح قلمه، ولا تسكن حركته في طلب حوائج الناس وإدخال السرور على قلوبهم، والمرافق على الضعفاء، وكان عفيف الطعمة، وجيهاً مفوهاً: خبرني عمّا هوّن عليك النصب، وقواك على التعب، قال: قد والله سمعت غناء الأطيار بالأسحار على الأشجار وسمعت خفق الأوتار، وتجاوب العود والمزمار، فما طربت من صوت حسن كطربي من ثناء حسن على رجل قد أحسن، فقلت: لله أبوك، لقد حشيت كرماً". انظر:

- ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد. **التذكرة الحمدونية**، تحقيق: إحسان عباس وبكر عباس، بيروت: دار صادر، ١٩٩٦م، ج٤، ص٦٠.

والإيمان، وتحول النفس إلى قوة مبصرة مبدعة راقية في مدارج الإحسان بدل أن يقضي عليه الوهم والوهن والهزيمة.

إنّ الإتقان يستلزم أن يمتلك الفرد من الخصائص النفسية الإيجابية ما يؤهله للانبعاث والتكيف مع مختلف التغيرات والأزمات، من خلال إعادة بناء التصورات والمفاهيم، وإزالة الرواسب السلبية والشكوك والمخاوف، وتصحيح توجيه الرغبات، وتعديل السلوك والدوافع، واستبدال التصورات المثبطة بما هو أنفع وأقدر على إحياء الهمم وتشكيل القناعات الجادة. إن تعديل الدوافع كما يرى فائز محمد علي الحاج يكون بالإعلاء أو الإبدال، وهو تعديل تربوي يعوِّد الناشئ على إرواء دوافعه الغريزية بأسلوب مثالي أو التشاغل عنها بصرف طاقته في نشاط آخر يمت إلى دوافع أخرى، فالإعلاء مثلاً أن يشبع غريزة التملك بالكسب المشروع سعياً وراء رزق نفسه أو أبويه أو رزق عياله أو قضاء حاجات الناس... أما الإبدال فمثاله إشغال طاقات الناشئ مؤقتاً بالرياضة أو تأليف مجلة أو تأليف جماعة ذات نشاط روحي، والإبدال مرجَّحٌ على الإعلاء؛ لإشغال الشباب والاستفادة من حيويتهم.[1] ومما يقترحه توجيه كثير من دروس الدين واللغة والاجتماعيات هذه الوجهة النشاطية، كتأليف لجان ثقافية واجتماعية وتاريخية لها غايات فعلية تنشط الطلاب وتستغل دوافعهم الفطرية، كجمع التبرعات، وحساب كل ناشئ مقدار الزكاة التي تجب عليه أو على أهله وذويه.[2]

وهذا مما يؤكد أن المعرفة ركيزة أساسية في تحسين الأداء وتعزيز الإبداع؛ لأنها تضمن بعض المداخل الضرورية لتخصصات الوظائف والصنائع والمهن

---

(١) الحاج، فائز محمد علي. **بحوث في علم النفس**، بيروت: المكتب الإسلامي، ط٢، ١٩٨٧م، ص١٤٩.

(٢) المرجع السابق، ص١٥٤.

للارتقاء بالفعَّالية وتحسين المخرجات الكمية والنوعية. فمثلاً، الأستاذ الذي لا يلم بمادة دروسه، كسلاً أو إهمالاً لا يسعىٰ لتحديثها وتطويرها، وبسبب الأقدمية، ينأىٰ بنفسه عن التدريب والتوجيه المتخصص، ولا يمكن أن يضيف شيئاً يذكر لمهنته ولا أن يفيد طلابه، ناهيك عن أي ابتكار تربوي أو إبداع بيداغوجي منهجي. وقد يعظ طلابه في الدين والأخلاق والقيم، وبضاعته في الباب زهيدة، وأساليبه منفرة، ومنهجه اعتباطي ارتجالي، فكيف يكون أداؤه عندئذ احترافياً متقناً؟[1] وفي هذا السياق ندرك أن أحد أسباب الرداءة وضمور الإتقان ضعف المهارات الوظيفية والمهنية التي يمكن امتلاكها من خلال التدريب والتوجيه. ولعل من أهم المهارات المهنية البارزة تزكية الدافع الذاتي في أداء المهن وإنجاز الأعمال، وإسناد الأعمال إلىٰ أصحابها من أهل الرغبة والكفاءة بوصفها قاعدة أولية في التهيئة المهنية، فلا يعمل في النِّجارة من يرغب في الزراعة، ولا في الطب من يرغب في الفلسفة.[2] هذا، إضافة إلىٰ التدريب علىٰ المهارات الناعمة اللازمة لمختلف المهن والصنائع، واستثمار الأساليب والتقنيات الحديثة، مع تنمية الوعي بمتطلبات الإتقان، وتعزيز روح الإبداع والابتكار، مع تلافي عوامل التمييز والعنصرية في معاملة العمال والموظفين كافة، وتقويم الأداء علىٰ معايير الموارد البشرية الموضوعية النزيهة، والاستمرار بانتظام في تطوير المهارات في إطار برنامج تطوير هادف.

---

(١) كانت والدة الإمام مالك في غاية الحكمة ونضخ الأخلاقي حين قررت إرسال ولدها للإمام ربيعة، ليتعلم من أدبه قبل علمه. قال رحمه الله: "كانت أمي تعلمني وتقول لي: اذهب إلىٰ ربيعة فتعلّم من أدبه قبل علمه. انظر:

- القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسىٰ بن عياض السبتي. **ترتيب المدارك وتقريب المسالك**، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، الرباط: وزارة الأوقاف المغربية، ط٢، ١٩٨٣م، ج١، ص٣١.

(٢) ومما عمّت به البلوىٰ أن الآباء صاروا يوجهون أبناءهم للتخصصات الأكثر رواجاً في أسواق العمل، وهذا ما أضرَّ بكثير من الطلاب وجعلهم يجرون علىٰ وجوههم إلىٰ تخصصات غير راغبين فيها، ومن أهم وسائل الإبداع في التخصص عشقه كما أُثر عن الأقدمين.

يمثل الإعداد والتدريب والتوجيه للعمال والموظفين في مختلف مجالاتهم إحدى الطرق الفاعلة في رفع وعي الأداء وتحسن الأداء، كما أصبح استثمار القيم الإيمانية الروحية والأخلاقية مصدر تعزيز للدافعية والمراقبة، ويدعو في الوقت نفسه إلى استدامة التعلم وتحسين الممارسة. ولعل من أمثلة ذلك الأمُّ التي لا يمكن أن تؤدي دور الأمومة فقط بالعواطف الفطرية الجياشة والحب الفيّاض الذي تحمله لأبنائها، بل لا بدّ لها من تعلّم فنّ الأمومة والتربية، وعلم التواصل والحوار، وأن تكون مجنّدة بمعارف الوالدية؛ فالأم الجاهلة تدمّر بحبها الطبيعي أبناءها، وبالمقابل فإنّ الزوج الذي يفتقر إلى المعرفة والإيمان والأخلاق، ولا يُحسن فنّ الزوجية أو الأبوة المسؤولة، رجلٌ فاشلٌ وأبٌ مدمِّر لا يُتقن فن الزوجية ولا الأبوة، فضلاً عن القوامة الأسرية.

ويستند استرداد ثقافة الإتقان إلى منظومة تعليمية واعية تزود روادها بالمعرفة وتؤهلهم بمختلف المهارات الحياتية، وترعى دوماً صقل مواهبهم وتزكيتهم داخل قاعات الدراسة وخارجها، وتتحقق من تسلحهم للحياة العملية. إنّ استرداد ثقافة الإتقان في المجتمعات الإسلامية لن يكون عمليةً عفويةً ارتجالية، بل وعي بالمستقبل وصناعة مستمرة دائبة تخضع لمجموعة منهجية من الخطوات الفنية والتنظيمية، والتدابير الإجرائية اللازمة، وتسخير الموارد الضرورية. ولعلّ من أولى خطوات استرداد الإتقان معالجة الأحوال الروحية والنفسية والثقافية، والتي تبعاً لها تتغيّر التصورات الاجتماعية لكثير من المفاهيم الأساسية، والعمل على بلورة الرؤية الإصلاحية اللازمة مع مراعاة السياقات الثقافية والإمكانات المتاحة لإزالة العقبات بفاعلية، وصياغة قرارات مدروسة، وتشجيع البحث العلمي واتخاذه الوسيلة لحلّ المشكلات، والتدرج في تحسين مستويات التحليل والمعالجة، مع الحرص على

شمول المقاربة، لأن استرداد الإتقان بدوره مرهون بنوعية عمليات الإصلاح الفكري والثقافي العام. ويتطلب الأداء المتقن أيضاً قاعدة روحية ومعنوية صلبة، وتعزيزاً لقدرات التفكير المنهجي، ولهذا ينبغي على مؤسساتنا التعليمية والإنتاجية على السواء رعاية التفكير النقدي والإبداعي، مما يتطلب تطوير برامج مدروسة لمختلف الأعمار والفئات والشرائح، وتطوير قدرات ومهارات التكنولوجيا والتقنية.

إنّ الحديث عن الحاجة للإصلاح العام، يستدعي النظر في التغيرات الثقافية الكبرى التي لها أثر كبير في كيان المسلمين النفسي والثقافي؛ وطبيعة المشكلة في غورها ليست فقط في الهزائم العسكرية المتوالية خلال مراحل الاستنزاف المتكررة، واستلاب الجيوش المستعمرة المدمرة التي أتت على الأخضر واليابس، بل هي اليوم في واقع الإحباط الثقافي اللصيق بجسم الأمة. إنّ الهزائم الثقافية الفادحة، وضعف علاقة الثقافة الإسلامية بالوحي، ومعها حالات التيه في دوَّامات الفلسفات الوضعية القديمة والجديدة، ومعاناة المنظومة التربوية من أزمات هوية، تتخبّط في تجريب كلّ جديد من النظريات والنماذج من خارج تربتها الثقافية، كل هذا له دوره من بعيد أو قريب في فتور حسّ الإتقان وثقافته في المجتمعات الإسلامية. لكن أهم من ذلك كله، كيفية وثوب المسلم اليوم، وهو يصارع أكوام المشكلات التاريخية والنفسية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، إلى سطح الأرض وانتفاضه من تحت هذا الوابل المثقل إلى عالم الإحسان والإبداع والتميز؟

إنّ هذا -لا شك- سؤالٌ كبير يحتاج إلى تكاتف دراسات منهجية مستفيضة ومركزة لمجموعات بحثية متخصصة، تتكامل فيها الجهود والإسهامات كافة، الكبيرة والصغيرة، في مجالي النظرية والتطبيق. لكن يمكن

وبكل تأكيد دفع المؤسسات العلمية والتربوية الثقافية والإعلامية في أداء رسالتها في بعث فكر جديد، وتعزيز الممارسات الإصلاحية الإيجابية على المستوى الفردي والاجتماعي، ومن خلال مخاطبة العقل والقلب معاً، وإعادة طرح التصورات السليمة، ونشر الوعي الصحيح، والإشادة بنماذج الإحسان البنّاءة، وشحذ العزائم، وبعث الإرادة، والكشف عن مواطن القوة وتعزيزها، والسعي التدريجي لضمان الأجواء النفسية والثقافية اللائقة للنمو الروحي والمعرفي، ومواصلة التشجيع والحثّ على التميز والنجاح. ينبغي مغالبة ظروف التحدي وعوامل الإحباط، ومجابهة الانهزامية؛ لأنها روح سلبية وذبيحة تتخبط وسط المشكلات، تخبط الصريع المسلوب الإرادة، مثله كمثل ضعيف وقع في حفرة، ولا يرى من حوله سوى حدود تلك الحفرة التي وقع فيها. وينبغي ألا نستسلم للانهزامية ونركن للاستسلام؛ لأن الأزمة مهما كانت فادحة فإنها لا تلغي وظيفة الإنسان ومكانته الكريمة المميزة.(١)

كما ينبغي أيضاً تفعيل ملكات الإيمان والتدين والقيم التي ترمي إلى تحقيق المكونات البنيوية للاستخلاف؛ أي العبودية، والتعمير، والإصلاح؛ ليجمع الأداء في كنفه بعديه الدنيوي والأخروي، مما يستلزم على المؤسسات تفعيل الإيمان وإنارة الأرواح والترويج لنماذج الأداء المؤمن الخيّر، والصانع الماهر، والفلاح المبدع، والشاب العابد الجادّ، والأم المتفانية في بناء الأجيال، والطفل المنظم، والعجوز الخبير الذي يظلّ يمدّ من خبراته ويشارط تجاربه، والمريض الذي يقاوم بالأمل واليقين، والمرأة الصالحة التي تسهم في بناء

---

(١) وقد نُهينا عن اليأس في أكثر من آية كما حكى الله عن يعقوب عليه السلام: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف: ٨٧].

المجتمع حتىٰ تستيقظ الهمم الهامدة، وتتحرك الحياة الراكدة بالتربية الناجحة والكتاب النافع والفيلم الهادف والبرامج المدروسة، إلىٰ أن يستقرّ في الوعي العام حقيقة أن الإنسان بإيمانه وعبادته وأخلاقه كائنٌ مكرم مبدعٌ أمدَّه وهيّأه بالفطرة والعقل والوحي للفعل الراقي، وبذلك ينتشر موقع الأفعال الصالحة المتقنة ويشتد عودها، وتزول تدريجياً الروح الانهزامية التي تخطَّفت عقل المسلم منذ قرون التخلف.

لكن تستدعي تنمية القدرات والمهارات والملكات التهيئة المادية والاجتماعية الكافية؛ إذ تختلف طبيعة الدوافع والحوافز التي تؤثر في إتقان الأعمال والمهن والصنائع، حسب خلفيات الأفراد وتجاربهم، وسياقاتهم الحضارية والاجتماعية والثقافية، لكن يبقىٰ ضمان الضرورات الحياتية وإشباع الحاجات الفطرية والحرية والكرامة، وتحقيق الاكتفاء المعاشي والاستقلال الذاتي الحد الأدنىٰ في سلّم أداء الأعمال. إنّ الإسلام يعترف للإنسان بإنسانيته وحريته وكرامته، ويقرّ له بحقّه في العيش الكريم من المأكل والمشرب والملبس والمسكن والأمن والتعليم والتداوي وغيرها من ضرورات الحياة الأساسية، فإذا اختلّ نظام توزيع الثروة المالية مثلاً، انعكس ذلك حتماً علىٰ الأنشطة الاجتماعية كافّة، بما فيها صور الفكر والأداء والمشاركة. كما أنّ توزيع الثروة بعيداً عن الفكر في تحسين جودة العمل إهدار للمال العام وإحباط للهمم والعزائم ووأد للطاقات والمواهب.

إنّ مراعاة حاجات الأفراد وضمان عيش أسرهم الكريم، واعتبار الأجر المكافئ للدرجة العلمية والخبرة والإضافة النوعية، وتحقيق نظام العلاوات التحفيزية، والإشراك في الأرباح، والأجور التشجيعية، وضمان التأمين الصحي الجيد، والتعليم، والسكن. ولا أدلّ علىٰ ذلك من العقول المسلمة

المهاجرة والسواعد الفعَّالة التي تُسهم بقوة في تنمية المجتمعات الغربية وتقدّمها، والتي لم تكن لتتقن أو تبدع لو لم تُتح لها الأجواء الإنسانية المحفّزة. ولكي يتقن الإنسان الأداء لا بد له من ضمان القدر الكافي من العيش الكريم، يأكل من عمل يده لا يسأل أحداً ولا يسقط في ذلّ الحاجة والمسكنة؛ فكيف للعامل وأحواله مزرية من أن ينتج ويعمل بضمير حيّ، فضلاً عن أن يتقن؟ وما الذي سيدفعه للإتقان وهو رهين الظلم والعدوان والحرمان؟ فقاعدة الإتقان العدل بين الناس وحفظ كرامتهم وضمان الحوافز المادية والمعنوية لهم. وفي هذا السياق، نجد مناسبة تفسير ابن خلدون لآثار الظلم والعدوان على سعي الناس واكتسابهم، فهو يعتقد الآتي:

"أنّ العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها، لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم. وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك. وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب. فإذا كان الاعتداء كثيراً عاماً في جميع أبواب المعاش، كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالآمال جملة بدخوله من جميع أبوابها. وإن كان الاعتداء يسيراً كان الانقباض عن الكسب على نسبته. والعمران ووفوره ونفاق أسواقه، إنما هو بالأعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين. فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب، كسدت أسواق العمران وانقبضت الأحوال وابذعرَّ الناس في الآفاق من غير تلك الإيالة في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها، فخفَّ ساكن القطر، وخلت دياره، وخرجت أمصاره واختلّ، باختلاله حال الدولة والسلطان لما أنها صورة للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورة".[1]

(١) الحضرمي، **مقدمة ابن خلدون**، مرجع سابق، ج٢، ص٨٠.

لكن نظام الحوافز المادية بعيداً عن الوازع الإيماني والقيم الأخلاقية محلّ إشكال، فالمؤسسات التي تتبع أسلوب الحوافز المادية تحتاج إلى الكثير من التفتيش والمراقبة لحساب استحقاق الأجور والمكافآت، والعامل المادي وحده لا يتحكم في نوعية الإنتاج، ذلك أنّ سدَّ الحاجات المادية للعامل يتناسى التكوين الخلقي والروحي، ورصيد القيم وتأثير ذلك كله في الإتقان. كما أنّ نوعية كثيرة من الأعمال تحتاج إلى حوافز أدبية لأجل تحقيق الذات. فحين يبني الإسلام الجزاء على النيّة والإتقان، يعترف في الوقت نفسه بالحوافز المادية والمعنوية سواء بسواء. ولهذا حرص الإسلام على التوازن المادي للإنسان كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى: ٢٧]. يقول الفخر الرازي: "يعني أنه عالم بأحوال الناس وبطباعهم وبعواقب أمورهم، فيقدر أرزاقهم على وفق مصالحهم. ولما بيّن تعالى أنه لا يعطيهم ما زاد على قدر حاجتهم لأجل أنه علم أن تلك الزيادة تضرهم في دينهم بَيَّنَ أنهم إذا احتاجوا إلى الرزق، فإنه لا يمنعهم منه فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى: ٢٨]."[1]

(١) الرازي، **مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير**، مرجع سابق، ج٢٧، ص١٤٧.

الخاتمة

خطت الدراسة أولى خطواتها في دراسة الإتقان، فتناولت جملة من المفاهيم والمصطلحات الأساسية في موضوع الإتقان. وقد بدا البون شاسعاً بين ما هو كائن وما ينبغي أن يحدث ويكون. وقد خلص البحث إلى أنّ الحضارة الإسلامية حافلة بتجليات الإبداع والإتقان كافة، مما لا تزال آثاره وشواهده قائمة؛ أما المستقبل، فإننا نمتلك القواعد نفسها وكذلك المعطيات التي تمكننا من تجاوز التحديات الراهنة كافة؛ وبذلك انطلقت الدراسة من نظرة مستقبلية متفائلة تؤمن بإمكانية النجاح مع استيفاء الشروط واللوازم، إذا توفرت آتت أكلها بإذن ربها. والإتقان كما تبين أبعد ما يكون عن الخوارق أو الظواهر الغريبة الاستثنائية أو الصفة الوراثية عند بعض الأجناس والأعراق أو الألغاز التي يختص به الأذكياء من الناس فقط، بل هو سننٌ إلهية مطردة ونظام أداء منهجي يخضع لرؤية واضحة وخطوات فنية تنظيمية، تتَعَهَّد بالرعاية كما تُسقى النباتات وترعى. وهو؛ أي الأداء المعجمي ليس أفعالاً أو صوراً ماديَّة صرفَة تستجيب لمحض الجمال الغريزي، فتنتج أجمل المنافع المحسوسة المرغوبة على حساب الفطرة والأخلاق والقيم الإنسانية، بل يحمل من الخصائص الروحية والمعنوية والأدبية ما يدفع الإنسان إلى ابتغاء الأجر والمثوبة في صنعه المادي المتقن. ويتجلّى من خلال هذا البحث أيضاً ارتباط الفطرة السليمة بالعقل السوي وبالوحي، ولتتحدد في ضوء ذلك علاقات ومعاني مهمة مثل: التقوى والورع، والهبة والنعمة، والقدرة والإنجاز، والإرادة والفعل، والرؤية والقصد، والتوكّل والاستعانة، وقوة

الشعور وجمال الذوق، والعمل والإحسان والإتقان.

وقد عرض البحث أيضاً البناء المفاهيمي للإتقان في الوحي، إذ يتكامل التداول الاصطلاحي مع الأمثلة والشواهد التطبيقية، وحيث يدل الاستعمال القرآني لمفاهيم الإتقان ومصطلحاته على غنى مادته، التي تُبرز المكانة العالية التي أولاها القرآن في عرضه السّنني لحسن العمل وجودة الأداء، وتفصيله وميزاته ومقوِّماته ومؤشراته. والإتقان فقه سنن الله تعالى في الآفاق والأنفس، ووعيٌ بالواقع والمستقبل، وإحياء للقراءة، واكتساب للمهارات. وما العالم المتقن الصنعة، الذي هيَّأه المولى عزّ وجلّ للإنسان مهداً للاستخلاف والعمارة ومخبراً للعلم والعمل إلا تجليات لسنن الخلق والإبداع، التي تدعو الإنسان إلى النظر في ملكوت السماوات والأرض، واستلهام تجليات الإتقان الكثيرة في صنع الله تعالى في الكون الفسيح. وفي هذا السياق فإنّ إهمال الإتقان مجانبة لسنن الله تعالى في الكون، ومخالفة صريحة للوحي والعقل، بل وانحرافاً عن الفطرة السليمة. وليكتمل تصوّر القرآن لمفهوم الإتقان، فقد عرض البحث بعض تجليات الإحسان وجملة من تطبيقاته في السنة النبوية، لترسم بذلك حياة النبي العامل المجتهد الدؤوب والمتقن، الذي اتخذ من الإحسان الأسوة الدينية، التي ينبغي اقتفاؤها وتلمّس الأجر في إحيائها. كما حاول البحث أيضاً رصد ممارسات المسلمين للإتقان، وتسليط الضوء على أبعاده الدينية، والنفسية، والتنظيرية. فالمسلم يفكّر ليعمل، ويعمل فيتقن؛ وبهذا يكون الإتقان مهارةً تدبيريةً تتجلّى في كثير من الوسائل والتقنيات والفنون الإدارية، التي اخترعها المسلمون، مما يدل على جمع المسلمين المقاييس الروحية والمعنوية والمادية معاً.

المراجع

أولاً: المراجع العربية:

- ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد. **معالم القربة في أحكام الحسبة**، نقله وصححه: روبن ليوى، كيمبرج: مطبعة دار الفنون، ١٩٣٧م.
- الألباني، محمد ناصر الدين. **صحيح الترغيب والترهيب للمنذري**، بيروت: مكتبة المعارف، ط١، ١٤٢١هـ.
- الأهواني، أحمد فؤاد. **التربية في الإسلام**، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٧م.
- الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب. **إعجاز القرآن**، تحقيق: السيد أحمد صقر، القاهرة: دار المعارف، (د. ت.).
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**، تحقيق: محب الدين الخطيب، القاهرة: المكتبة السلفية، ط١، ١٤٠٠هـ.
- بيجوفيش، علي عزت. **الإسلام بين بين الشرق والغرب**، ترجمة: محمد يوسف عدس، الكويت وميونخ: مجلة النور الكويتية ومؤسسة بافاريا للنشر والإعلام والخدمات، ط٢، ١٩٩٧م.
- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى. **الجامع الكبير**، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٦م.
- ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم الحراني. **الحسبة في الإسلام**، تحقيق: سيد محمد بن محمد بن أبي سعدة، الكويت: مكتبة دار الأرقم، ط١، ١٩٨٣م.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. **البيان والتبيين**، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت: مكتبة الخانجي، ١٩٨٥م.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، **صيد الخاطر**، دمشق: دار القلم، ط٣، ٢٠١٢م.

- الحاج، فائز محمد علي. **بحوث في علم النفس**، بيروت: المكتب الإسلامي، ط٢، ١٩٨٧م.
- حاجي خليفة، مصطفىٰ بن عبد الله. **كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت.).
- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي. **الإحكام في أصول الأحكام**، تحقيق: الشيخ أحمد محمد شاكر، بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٣م.
- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي. **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، تحقيق: محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، بيروت: دار الجيل، ط٢، ١٩٩٦م.
- الحضرمي، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق: عبد السلام الشدادي، الدار البيضاء: بيت الفنون والعلوم والآداب، ٢٠٠٥م.
- ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد. **التذكرة الحمدونية**، تحقيق: إحسان عباس وبكر عباس، بيروت: دار صادر، ١٩٩٦م.
- حنش، إدهام محمد. "نظرية الفن الإسلامي عند المفكر إسماعيل الفاروقي" في **أسماعيل لفاروقي وإسهاماته في الإصلاح الفكري الإسلامي المعاصر**، تحرير: فتحي حسن ملكاوي ورائد جميل عكاشة وعبد الرحمن أبو صعيليك، هرندن وعمان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ودار الفتح للدراسات والنشر، ٢٠١٤م.
- أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي. **تفسير البحر المحيط**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٣م.
- الخالدي، صلاح عبد الفتاح. **مع قصص السابقين في القرآن**، دمشق: دار القلم، ط٥، ٢٠٠٧م.
- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت. **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، تحقيق: محمد عجاج الخطيب، دمشق: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٩م.
- دراز، محمد عبد الله. **دستور الأخلاق في القرآن: دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن**، تعريب وتحقيق وتعليق: عبد الصبور شاهين. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٧٣م.

- ديورانت، ويل. **قصة الحضارة: الشرق الأقصى، اليابان**، ترجمة: زكي نجيب محمود، بيروت: دار الجيل، (١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م).
- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين. **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، بيروت: دار الفكر، ١٩٨١م
- الراشد، محمد أحمد. **أصول الإفتاء والاجتهاد التطبيقي**، فان كوفر وزيورج: دار المحراب للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢م.
- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد. **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دمشق: دار القلم، ط٤، ٢٠٠٩م.
- رضا، محمد رشيد. **تفسير المنار**، القاهرة: دار المنار، ط٢، ١٣٦٧هـ.
- الرياح، عبد السلام. **عقيدة التوحيد وأثرها في إتقان العمل والإبداع فيه**. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩م.
- الزرقا، مصطفى أحمد. **المدخل الفقهي العام**، دمشق: دار القلم، ط٢، ٢٠٠٤م.
- زرمان، محمد. "وظيفة الاستخلاف في القرآن الكريم: دلالاتها وأبعادها الحضارية"، **المجلة العلمية لكلية جامعة الشارقة**، العدد: (١٦)، ١٩٩٨م.
- الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر. **الكشاف عن حقائق غوامض التنـزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، تحقيق: عادل أحمد عبد موجود وعلي محمد معوّض، الرياض: مكتبة العبيكان، ١٩٩٨م.
- أبو زهرة، محمد. **المجتمع الإنساني في ظل الإسلام**، القاهرة: دار الفكر العربي، (د. ت.).
- أبو زهرة، محمد. **محاضرات في الوقف**، القاهرة: معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٥٩م.
- زيدان، عبد الكريم. **السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية**، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣م.
- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق. الرياض: دار السلام للنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠٠٢م.
- سعيد، جودت. **اقرأ وربك الأكرم**، بيروت: دار الفكر المعاصر، ط٢، ١٩٩٣م.

- السلمي، عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام. **تفسير القرآن**، تحقيق: عبد الله بن إبراهيم الوهبي، بيروت: دار ابن حزم، ط١، ١٩٩٦م.
- السمين الحلبي، أحمد بن يوسف بن عبد الدايم. **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دمشق: دار القلم، (د. ت.).
- الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي. **الموافقات في أصول الشريعة**، القاهرة: دار ابن عفان، ط١، ١٩٩٧م.
- شحادة، محمد أمين. **إدارة الوقت بين التراث والمعاصرة**، الرياض: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥م.
- الشريف الجرجاني، علي بن محمد بن علي الحسيني. **كتاب التعريفات**، بيروت: مكتبة لبنان، طبعة جديدة، ١٩٨٥م.
- شلبي، أحمد. **تاريخ التربية الإسلامية**، القاهرة: دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، ١٩٥٤م.
- شلول، زكريا إبراهيم. **أثر العقيدة الإسلامية في السلوك الإنساني**، عمان: دار الكتاب، ٢٠٠٥م.
- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد. **فتح القدير الجامع بين فنيّ الرواية والدراية من علم التفسير**، بيروت: عالم الكتاب، ط١، ٢٠٠٢م.
- الشيزري، عبد الرحمن بن نصر. **نهاية الرتبة في طلب الحسبة**، إشراف: محمد مصطفى زيادة، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٦م.
- صالح، عبد الله ميرغني محمد. **الابتلاء وأثره في حياة المؤمنين كما جاء في القرآن الكريم**، الرياض: دار الاعتصام، ١٩٨٣م.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، اعتنى به: عبد الله بن عبد المحسن التركي، القاهرة: هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط١، ٢٠٠١م.
- ابن عاشور، محمد الطاهر. **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، تونس والجزائر: الدار التونسية للتوزيع والمؤسسة الوطنية للكتاب، ط٢، ١٩٨٥م.

- ابن عاشور، محمد الطاهر. **التحرير والتنوير**، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.
- العالم، يوسف حامد. **المقاصد العامة للشريعة الإسلامية**، هيرندن: فيرجينيا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٢، ١٩٩٤م.
- ابن عباس، عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **تنوير المقباس من تفسير ابن عباس**، جمعه: مجد الدين أبو طاهر محمد يعقوب الفيرزوآبادي. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م.
- عباس، فضل حسن. **قصص القرآن الكريم**، عمان: دار النفائس، ط٣، ٢٠١٠م.
- عبد الرحمن حللي. "مقاربات مقاصد القرآن الكريم: دراسة تاريخية"، **مجلة التجديد**، الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا، المجلد: (٢٠)، العدد: (٣٩)، ٢٠١٦م.
- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي. **تأديب الناشئين بأدب الدنيا والدين**، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، القاهرة: مكتبة القرآن، ١٩٨٥م، ص١٩.
- عبده، محمد. **الإسلام بين العلم والمدنية**، تحقيق: طاهر الطناحي، القاهرة: دار الهلال للنشر والتوزيع، كتاب الهلال العدد (١١٤)، ١٩٦٠م.
- عبده، محمد. **رسالة التوحيد**، القاهرة: تحقيق: محمد عمارة، القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٤م.
- العبيد، عبيد بن علي. "تفسير أسماء الله الحسنى للشيخ عبد الرحمن السعدي؛ جمعاً ودراسة"، **مجلة الجامعة الإسلامية**، المدينة المنورة، السنة (٣٣)، العدد (١١٢)، بتاريخ ١٤٢١هـ.
- عزام، عبد الله. **العقيدة وأثرها في بناء الجيل**، صنعاء: مكتبة الجيل الجديد، ١٩٩١م.
- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي. **المحرر الوجيز في تفسير كتاب العزيز**، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، بيروت: دار ابن حزم، ٢٠٠٢م.
- أبو العلا، ليلى محمد حسيني. **مفاهيم ورؤى في الإدارة والقيادة التربوية بين الأصالة والحداثة**، عمان: دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، ٢٠١٣م.
- عمار، سليم. "آداب الطبّ في التراث العربي الإسلامي"، **مجلة آفاق الثقافة والتراث**، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، السنة (١)، العدد (٢)، ١٩٩٣م.

- الغرناطي أبو يحيى محمد بن عاصم. **جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وارتضى**، تحقيق: صلاح جرار، عمان: دار البشير للنشر والتوزيع، ١٩٨٩م.
- غرين، روبرت. **الإتقان**، ترجمة: عبد اللطيف أبو البصل، الرياض: شركة العبيكان للتعليم، ٢٠١٧م.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الطوسي. **الحكمة في مخلوقات الله**، تحقيق: محمد رشيد القباني، بيروت: دار إحياء العلوم، ١٩٧٨م.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الطوسي. **المقصد الأسنى في شرح معاني الأسماء الحسنى**، قبرص: الجفان والجابي للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٧م.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي. **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، بيروت: دار الفكر، ١٩٧٩م.
- الفاروقي، إسماعيل راجي. **التوحيد: ومضامينه في الفكر والحياة**، ترجمة: السيد عمر، القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر، ٢٠١٤م.
- الفاروقي، إسماعيل راجي. والفاروقي، لويس لمياء. **أطلس الحضارة الإسلامية**، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، الرياض: مكتبة العبيكان، ط١، ١٩٩٨م.
- فتاح، عرفان عبد الحميد. "الفكر الديني المعاصر وتحديات الحداثة"، **مجلة إسلامية المعرفة**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، السنة (٧)، العدد (٢٦)، ٢٠٠١م.
- فتاح، عرفان عبد الحميد. "معالم نظرية المعرفة في القرآن الكريم" في: **نحو نظام معرفي إسلامي**، تحرير: فتحي حسن ملكاوي، عمان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٠٠م.
- فتاح، عرفان عبد الحميد. "مناهج المتكلمين: دراسة وتقويم"، **مجلة إسلامية المعرفة**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، السنة (٢)، العدد (٨)، (١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م).
- فوجل، إزرا ف. **المعجزة اليابانية**، ترجمة: يحيى زكريا، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦م.
- الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، بيروت: المكتبة العلمية، ١٩٨٤م.

- الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. **القاموس المحيط**، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٧، ٢٠٠٣م.
- القابسي، أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري. **الرسالة المفصَّلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين**، تحقيق: أحمد خالد، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، ط١، ١٩٨٦م.
- قاسم، حسام أحمد. "التخطيط الاستراتيجي في السنة النبوية: أسسه العامة، أدواته، وخصائصه" في الندوة العلمية الدولية الخامسة: الاستشراف والتخطيط الاستراتيجي في السنة النبوية، دبي: كلية الدراسات الإسلامية والعربية، أفريل ٢٠١١م.
- القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض السبتي. **ترتيب المدارك وتقريب المسالك**، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، الرباط: وزارة الأوقاف المغربية، ط٢، ١٩٨٣م.
- ابن قدامة ، محمد عبد الله بن أحمد المقدسي. **عمدة الفقه في المذهب الحنبلي**، تحقيق: أحمد محمد عزوز، بيروت: المكتبة العصرية، (د. ت.).
- القرضاوي، يوسف. **دور القيم الأخلاقية في الاقتصاد الإسلامي**، القاهرة: مكتبة وهبة، ط١، ١٩٩٥م.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر. **الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأحكام الفرقان**، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي. بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٦م.
- القشيري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري. **صحيح مسلم**، الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦م.
- قطب، سيد. **التصوير الفني في القرآن**، القاهرة: دار الشروق، ط١٧، ٢٠٠٤م.
- قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، القاهرة: دار الشروق، ط٣٢، ٢٠٠٣م.
- القنوجي، صديق بن حسن. **أبجد العلوم: الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم**، أعده: عبد الجبار زكار، دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٧٨م.

- قوزح، مريم عطا حامد. "أحكام مال اليتيم في الفقه الإسلامي"، أطروحة ماجستير في الفقه والتشريع، كلية الدراسات العليا: جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، ٢٠١١م.
- ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب. **الأمثال في القرآن**، تحقيق: سعيد محمد نمر الخطيب، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٩٨١م.
- ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب. **الفوائد**، تحقيق: محمد عزيز الشمس، جدة: دار عالم الفوائد، ط١، ١٤٢٩هـ.
- الكبيسي، محمد عبيد عبد الله. **أحكام الوقف في الشريعة الإسلامية**، بغداد: مطبعة الإرشاد، ١٩٧٧م، ص٣٨.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر. **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي بن محمد السلامة. الرياض: دار الطيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٩٩م.
- كعدان، عبد الناصر. ومهروسة، محمد ناظم. **أدب الطبيب في التراث الطبي العربي الإسلامي**، الرابط الإلكتروني: (http://www.elm7ata.com/vb/showthread.php?t=8311)
- الكناني، يحيى بن عمر بن يوسف. **أحكام السوق**، تحقيق: محمود علي مكي، مدريد: صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، المجلد (٤)، العدد: (١+٢)، ١٩٥٦م.
- اللخمي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم. **الإعلان بأحكام البنيان**، تحقيق ودراسة: فريد بن سليمان. تونس: مركز النشر الجامعي، ١٩٩٩م.
- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب. **أدب الدنيا والدين**، بيروت: دار اقرأ، ط٤، ١٩٨٥م.
- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب. **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، تحقيق: أحمد مبارك البغدادي، الكويت: مكتبة دار قتيبة، ط١، ١٩٨٩م.
- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب. **النكت والعيون**، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، بيروت: دار الكتب العلمية، (د. ت.).

- المجالي، محمد خازر. "مصطلح التفكر كما جاء في القرآن: دراسة موضوعية"، **مجلة الشريعة والقانون**، العدد (٢٣)، ٢٠٠٥م.
- المرزوقي، أبو يعرب. **مفهوم السببية عند الغزالي**، تونس: دار بو سلامة للطباعة والنشر، ط١، (د. ت.).
- ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب. **تهذيب الأخلاق**، دراسة وتحقيق: عماد هلالي، بيروت: منشورات الجمل، ٢٠١١م.
- مشوش، صالح بن طاهر. "معالم الجماعة الدعوية الفعَّالة على ضوء أحوال العمران البشري وسننه عند ابن خلدون"، **مجلة "التجديد"**، المجلد (٢٦)، العدد (٣١)، ١٤٣٣هـ.
- مشوش، صالح بن طاهر. ولعجال، طارق. "نحو صياغة الأصول النظرية للحسبة العلمية في الإسلام: دراسة في المفهوم وتطبيقاته"، **مجلة إسلامية المعرفة**، السنة (٢٠)، العدد (٧٧)، ٢٠١٤م.
- مكرم، سالم. **العقيدة والعمل**، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٨م.
- الملاح، هاشم يحيى. **الحسبة في الحضارة الإسلامية: دراسة تاريخية فقهية في الرقابة على الجودة الشاملة**، القاهرة: جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتنمية الإدارية، ٢٠٠٧م.
- ملكاوي، فتحي حسن. **الفكر التربوي الإسلامي المعاصر: مفاهيمه ومصادره وسبل إصلاحه**، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٢٠م.
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي. **لسان العرب**، القاهرة: دار المعارف، (د. ت.).
- منيار، محمد يحيى بلال. "مبادئ الجودة في السنة النبوية: تأصيلاً وتطبيقاً"، ندوة: صناعة التميز وتنمية المهارات في السنة النبوية، دبي، ١٣-١٥ جماد الآخر، ١٤٣٤هـ.
- الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة. **معارج التفكر ودقائق التدبر**، دمشق: دار القلم، ط١، ٢٠٠٠م.
- بن نبي، مالك. **شروط النهضة**، ترجمة: عبد الصبور شاهين. دمشق: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٦م.

- بن نبي، مالك. **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، ترجمة: بسام بركة وأحمد شعبو، بيروت ودمشق: دار الفكر المعاصر ودار الفكر، ط١، ٢٠٠٢م.
- بن نبي، مالك. **مشكلة الثقافة**، ترجمة: عبد الصبور شاهين، بيروت ودمشق: دار الفكر المعاصر ودار الفكر، ط٤، ٢٠٠٠م.
- بن نبي، مالك. **من أجل التغيير**، بيروت ودمشق: دار الفكر المعاصر ودار الفكر، ٢٠٠٥م.
- بن نبي، مالك. **وجهة العالم الإسلامي**، ترجمة: عبد الصبور شاهين. بيروت ودمشق: دار الفكر المعاصر ودار الفكر، ط١، ١٩٨٦م.
- النجار، عامر. **في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية**، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٧م.
- النجار، عبد المجيد. **خلافة الإنسان بين الوحي والعقل؛ بحث في جدلية النص والعقل والواقع**، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٣م.
- النجار، عبد المجيد. "دور الإصلاح العقيدي في النهضة الإسلامية"، **مجلة إسلامية المعرفة**، المجلد (١)، العدد (١)، ١٩٩٥م.
- النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي. **سنن النسائي**، تعليق: محمد ناصر الدين الألباني، الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ١٤١٧هـ.
- يوسف، ناصر. "مقولات التحديث الإنمائي المشتركة بين اليابان وماليزيا: الإنجاز والاستمرار" **مجلة الإسلام في آسيا**، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، المجلد (٥)، العدد (2)، ديسمبر ٢٠٠٨م.
- يوسف، نعيم. **أثر العقيدة في حياة الفرد والمجتمع**، القاهرة: منشورات دار المنارة، ط١، ٢٠٠١م.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

- Al-Faruqi, Ismail Raja. *Al-Tawhid and Its Implication for Thought and Life*, Herndon, Verginia: IIIT, 1982.
- Al-Khalili, Jim. *The house of wisdom: how Arabic sciences has saved the ancients knowledge and give us the renaissance*, New York: The Penguin Press, 2011.

- Fischel, Walter J. *Ibn Khaldun in Egypt: his public function and his historical research*, California : University of California Press, 1967.

- Lewis, Harry R. *Excellence without a soul: does liberal education have a future?,* New York: Public Affairs, 2007.

- Tshanz, David W. "*Pionner physicians*", in: (http://MuslimHeritage.com/topics/default.cfm?ArticleID=1308)

- www.Muslimheritage.com

صدر حديثاً

التَّجديدُ في الفِكرِ الإسلاميِّ المُعاصِر

تجربةُ مشروعِ إسلاميةِ المعرفةِ

فتحي حسن ملكاوي

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

صدر حديثاً

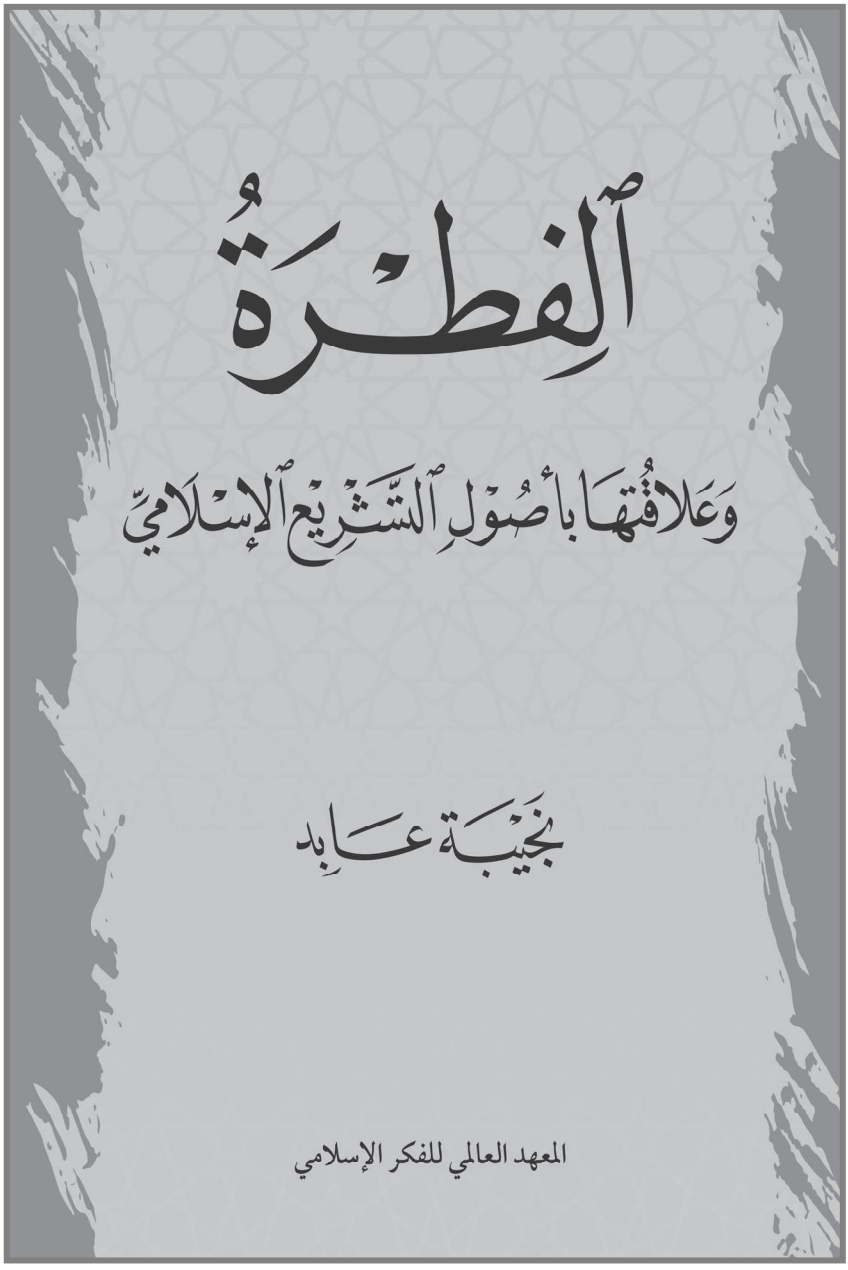
الفطرة
وعلاقتها بأصول التشريع الإسلامي
نجيبة عابد
المعهد العالمي للفكر الإسلامي

صدر حديثاً

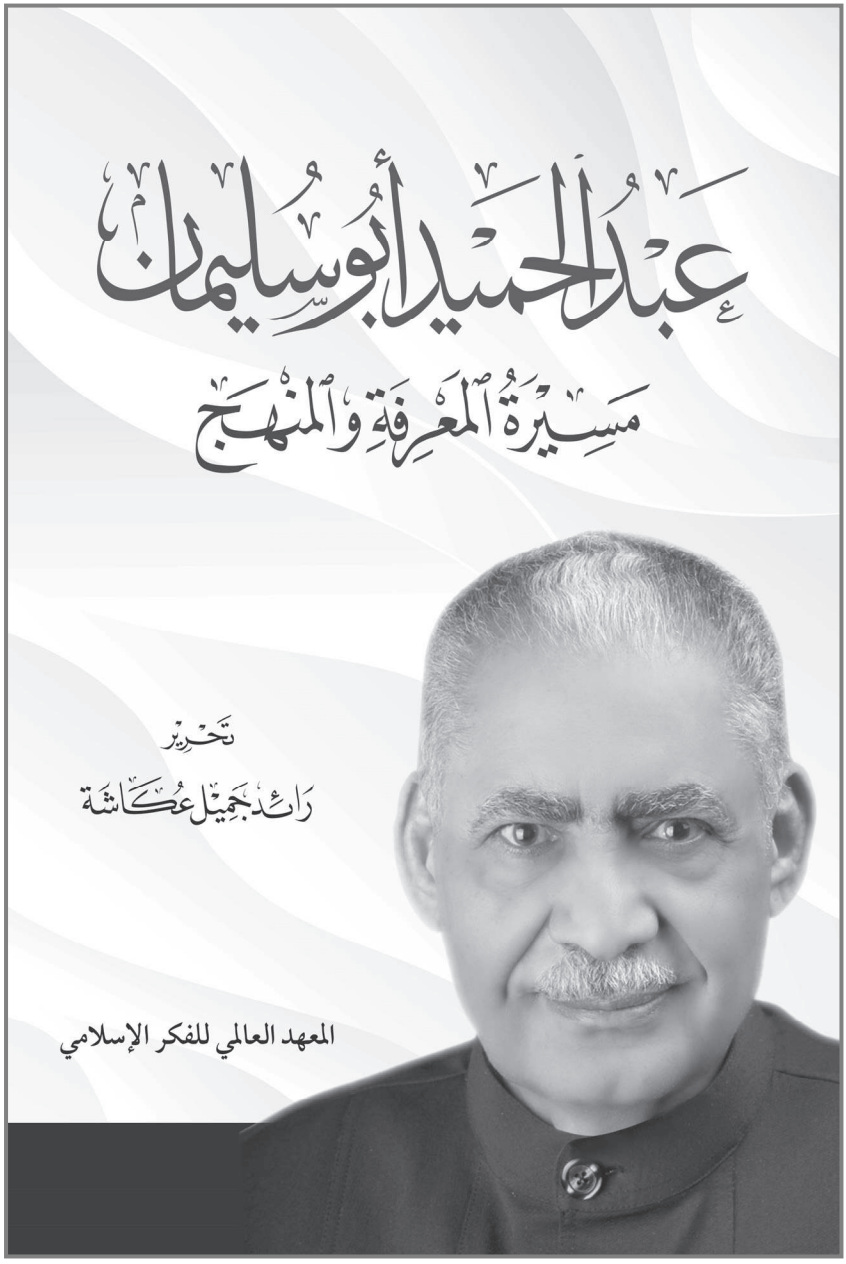
عبد الحميد أبو سليمان
مسيرة المعرفة والمنهج
تحرير
رائد جميل عكاشة
المعهد العالمي للفكر الإسلامي

صدر حديثاً

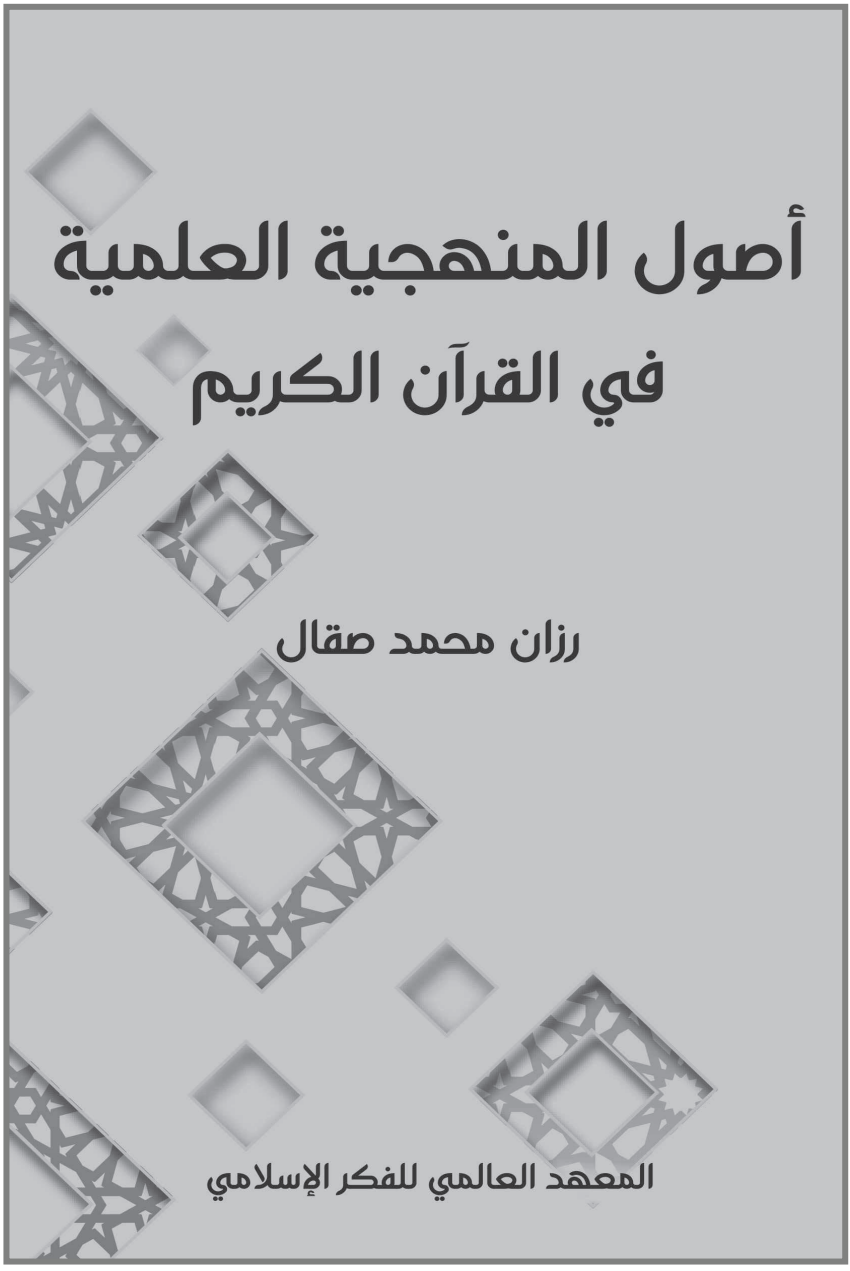
أصول المنهجية العلمية
في القرآن الكريم
رزان محمد صقال
المعهد العالمي للفكر الإسلامي

المعهد العالمي للفكر الإسلامي
INTERNATIONAL INSTITUTE OF ISLAMIC THOUGHT

هذا الكتاب

يُعَدُّ هذا الكتاب محاولة جادة لإحياء ثقافة الإتقان في حياة المسلم المعاصر التي تعج بمشكلات تعود بعض أسبابها إلى ضعف الاهتمام بجودة الأعمال بجانب مظاهرها وشكلها الخارجي.

يستعرض الكتاب مفهوم الإتقان كقيمة إسلامية ومهارة إنسانية أساسية تُسهم في بناء الأفراد والمجتمعات. كما يقدم رؤية متكاملة حول مكانة الإتقان في القرآن الكريم والهدي النبوي، متناولاً خصائصه وتطبيقاته العملية، ومبيناً كيف أسهمت السيرة النبوية في تطوير ملكة الإتقان وتوجيهها لتعزيز جودة التفكير والعمل في الجيل الأول.

كما سلط الكتاب الضوء على جهود المفكرين والعلماء المسلمين في بلورة رؤية شاملة للإتقان، موضحاً اهتمامهم بتحرير مفهومه وربطه بالتصورات العقائدية التي توجه الإنسان نحو تحقيق غايات الحياة العليا، لإبراز نماذج ملهمة للإتقان. يتناول الكتاب سمات الإتقان في نظام التعليم الإسلامي، ومؤسسة الحسبة، وفنون التصميم والصياغة. من خلال هذا الطرح، يعكس الكتاب أهمية الأساس العقائدي في بناء ثقافة الإتقان باعتبارها شرطًا ضرورياً لتحقيق التقدم الإنساني والعمراني.

ناقش الكتاب مسائل مهمة تخص الاتقان، واستخدم مصادر ومراجع غنية يُتيح للمهتمين والباحثين مساحة واسعة للاستفادة وطرح تساؤلات جديدة حول هذا الموضوع بهدف البحث واستكشاف كنوز الفكر الإسلامي وحضارته.

ISBN 978-1-56564-847-0
9 781565 648470

المعهد العالمي للفكر الإسلامي
INTERNATIONAL INSTITUTE OF ISLAMIC THOUGHT